

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

الصوفية في الإسلام

تأليف :

الأستاذ حسن كامل الملطاي

الجزء الأول

القاهرة

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩

اهداءات ٢٠٠٠
المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية - وزارة الأوقاف

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

الصوفية في الزعام

تأليف :

الأستاذ حسن كامل المطاوي

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى من علينا بالايامن ، وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد امام الأولين والآخرين ، علمه ربه فأتقن تعليمه ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وطهر بنفحاته القدسية قلبه ، وزكى بأنواره الربانية روحه ، وأنزل عليه القرآن الكريم ، وأمره أن يبلغه للناس ، ويبين معانيه ، فصعد بالأمر غير عابى بما لقي من الحروب والكروب والشدائد ، مجاهدا فى الله حق جهاده ، حتى علت فى الارض كلمة الله ، ثابتة الدعائم ، قوية الأركان .

ثم قيض له سبحانه من يحفظها من بعده ، فرزقه من عطائه أكبرم ذرية ، وطهرهم من الرجس تطهيرا ، كما رزقه خير أصحاب ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وجعل من هؤلاء وأولئك أعظم أئمة ، فى هذه الأمة ، ليقتدى بهم من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، وجعل تعالى من هؤلاء المقتدين أئمة فى كل جيل ، روادا للحق ، ورائدة للسالكين ، حتى يبقى نور الايمان وضاء فى القلوب ، ليتيم ما أراده الله من أن تكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، كما نطقت آيات الله البينات .

وأئمة الهدى هؤلاء ، أهل سعادة أبدية فى سوابق الأزل ، أحبهم الله فأحبوه ، وآثرهم وآثروه ، ونصروه فنصرهم ، فهموا عنه ، وجاهدوا فيه وأقبلوا اليه بكلياتهم وجزئياتهم ، فى سرهم وجهرهم ، فأنسوا به ، واستوحشوا مما سواه ، وافتقروا لاحسانه اختيارا ، فملاهم أسرار .

وقد اصطلاح فى القرن الثانى الهجرى على أن يلقب هؤلاء الخواص بلقب « الصوفية » وهم كما وصفهم الله فى قوله الكريم (واصبر نفسك

مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم
تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه
وكان أمره فرطا) •

ويتكلم عنهم في شيء من التفصيل امام منهم ، من أئمة القرن الرابع
الهجرى ، هو الامام أبو بكر الكلاباذى فيقول :

« سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف
بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت
عليها معاملاتهم فمئحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق
الفراسة ، ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم وأنارت اعلامهم •

فهموا عن الله وساروا الى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت
الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وعميت عما دون العرش
أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفي الأرض سماويون ، سكوت نظار ،
غيب حضار ، ملوك تحت أطمار أنزاع قبائل وأصحاب فضائل ، وأقوار
دلائل ، آذانهم واعية ، ونفوسهم خافية ، ونفوسهم صافية ، صنفوية
صوفية ، نورية صفية ، ودائع الله بين خليقته وصفوته فى بريته ووصاياه
لنبيه ، وخفياياه عند صفيه ، هم فى حياته صلى الله عليه وسلم أهل
صفته ، وبعد وفاته ، خيار أمته ، لم يزل يدعو الأول الثانى والسابق
التالى بلسان فعله ، أغناه ذلك عن قوله » •

وعن هؤلاء الصوفية ، تتكلم المقالات التى يحويها هذا الكتاب وقد
تفضل المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، فنشرها سلسلة فى مجلة
« منبر الاسلام » الغراء ، ثم تفضل فطبعتها فى هذا الكتاب مجموعة بين
دفتيه ، لتيسير الاطلاع عليها جملة ، فأضاف فضلا لاحقا الى فضل سابق ،
وللمجلس الموقر فى كل ذلك فضل البداية ، وعلى دوام الشكر والثناء •

حسن كامل الملطوى

تفويض الأمور لله تعالى والرضا بقضائه

— ١ —

شاء الله سبحانه ، وهو الفعال لما يشاء أن أعرف في نشأتي ، مصادفة رجلين من أعلام التصوف في عصرنا ، فنهلت من وردهما الصافي المروق أصفى المشارب وأحلاها ، وقد فقدتهما واحدا بعد واحد ، وسبحان الحي الذي لا يموت ، فأصبحت أطوى ضلوعى على ذكرياتهما الحلوة ، فأنس بها ، وأحمد الله على صحبتتهما لأنى اعتبر تلك الصحبة أعظم حدث سعدت به فى حياتى ، كيف وقد دلانى على الله ، وريانى فى طاعته تعالى ، وهى السعادة الحققة .

واحتفظ للعارف الأكبر منهما برسائل قليلة ، لكنها تضمنت نصائح روحية من الهام نفس زكية ، بارة تقية .

واحتفظ للثانى بحكم صوفية شعرية ، كان ينطق بها الهاما لوقت ، وكنا نكتب منها ما تيسرت لنا كتابته حتى تكاملت لدينا مجموعة مباركة من الحكم ، يفاخر بها صوفية زماننا عصور الصوفية الزاهرة .

أما أول الرجلين فهو العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى وهو أستاذى الذى بايعته على تربيته فى السلوك الى الله ، وقد انتقل الى دار الرضوان فى ١٠ اكتوبر سنة ١٩٤٤ .

وأما ثانى الرجلين فتلميذه الاول العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، الذى عاون فى ثقافتى الدينية وتربيته الصوفية بأمر أستاذه وقد انتقل الى دار الرضوان فى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٨ .

وهما من صالحى خلفاء العارف بالله ، قطب زمانه ، ومجدد قرنه ، سيدى الشيخ محمد أبو خليل ، الحسينى نسبا ، الشافعى مذهباً ، ساكن ضريحه الأنور بالزقازيق ، وصاحب الطريقة الخليلية التى انتشرت فى البلاد شرقا وغربا ، وقد انتقل الى رضوان الله فى يونية سنة ١٩٢٠ .

وسأعطى أخى القارىء الكريم فى هذه المجالة نماذج من تلك الحكيم والنصائح الثرية والشعرية وهى تفصح بأسلوبها عما كان يتحلى به الامامان من معرفة وصفاء ، وعلم وحكمة ، وأدب كامل فى الدين •
فمما فصحنى به أستاذى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، فى احدى رسائله (وكان حينئذ بالاسكندرية وكنت بالقاهرة) قوله :

« أما عن الدنيا وما فيها ومن فيها ، فدعها بما فيها لمن يدبرها فيوفيهما وفيها ما فيها ، لأنك ان دبرت وصح التدبير ، وهو مطلوب شرعا ، فلا تدري كيف قضى فيه ، فان صح القضاء بالرضا فهو القضاء ، وان حصل الجفاء سألناه اللطف فى القضاء ، مع الرضاء على أنه الرضاء » •
وها أنت تراها نصيحة غالية ، تعلم المؤمن الرضا بمواقع المقدور ، وهو عند الصوفية أساس من أسس تعاليمهم ، التى ينبون عليها تربية القلوب فى جنب علام الغيوب ، حتى انهم قالوا : الرضا بمواقع القدر نعم الوسيطة الى درجات المعرفة •

وقد أثر عن القطب الكبير سيدى عبد القادر الجيلانى (من أعلام القرن السادس الهجرى) أنه كان يقول فى هذا المقام :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تديرى
ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما يشاء يفعل بى

أحاط بى علمه من قبل تصويرى .

واذا نظرت فى أقوال أئمتنا المجتهدين ، الذين عقدت الأمة لهم ألوية الامامة فى الدين ، أخذت عنهم هذا المشرب كذلك ، لان السادة الصوفية لم يتدعوا شيئا فى الدين ، بل هم أخذوا منه بالعزائم دون الرخص والتأويلات ، وأقبلوا على الله بكلياتهم وجزئياتهم ، فسمت مذاقاتهم ، حتى ظن العوام أنهم غالوا فى الدين ، ونأوا عن الصراط المستقيم ، وحاشاهم أن يفعلوا ذلك وهم يتمسكون بالكتاب والسنة ، ويتأسون بمولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الاقوال والأفعال

والأحوال ، وإنما الجديد هو أنهم وضعوا آداب القلوب فى سلوكها الى الله فى قالب علم ، عرف بعلم « التصوف » ولقب أهله بلقب « الصوفية » وقيل للمتشبهين بهم « المتصوفة » ، وذلك شبيه بما وقع فى شأن العلوم الأخرى التى نشأت فى صدر الاسلام ، فقد وضعت مثلاً قواعد اللغة العربية فى قالب علم عرف بعلم النحو ، ووضعت أحكام الشريعة فى قالب علم عرف بعلم الفقه ، ولا يقال ان النحويين أتوا بلغة جديدة ، أو ان الفقهاء أتوا بشرع جديد .

هذا ومن تسليم الامام مالك ورضاه بقدر الله أنه — رضى الله عنه — كتم أمر مرضه بسلس البول عن تلاميذه ومحبيه أعواماً طويلاً ، فلم يعرفوا أن تلك العلة كانت السبب فى تخلفه عن الذهاب للحرم النبوى كماداته ، وجلس للتدريس فى منزله ، ولما علموها آخر حياته سأله ولماذا لم تخبرنا بذلك يا امامنا فقال : أشكو خالقى لعباده ؟ .

كما أن الامام الشافعى — رضى الله عنه — يقول فى توحيد خالص لله تعالى ، وفى رد الأمور لمشيئته سبحانه :

وما شئت كان وان لم أشأ

وما شئت ان لم تشأ لم يكن

خلقت العباد على ما علمت

ففى العلم يجرى القى والمن

على ذا منت وهذا خذلت

وهذا أغت وذا لم تعن

فمنهم شقى ومنهم سعيد

ومنهم قبيح ومنهم حسن

فاذا نحن قارفاً أحوالنا بأحوال هؤلاء الصالحين ، وجدنا الفرق واضحة وكبيرة ، فنحن نضجر بمواقع القدر وهم يسلمون ، ونحن نشكو وهم يشكرون ، ذلك بأننا نجهل الحقيقة وهم يعلمون ، ونضعف فى إيماننا وهم يوقنون .

أما عن الحكم الشعرية ، فانى ناقل لآخوانى مثلاً رائعا منها ، لاستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، فقد كان — رضى الله عنه — ينشد

شعره على مجلس الذكر الهاما وارتجالا لوقته دون روية أو اعمال فكره ،
وكان ينشده ليشد عزائم الذاكرين ، فكان فيما قال وكتبناه عنه :
حوالى فضل الله من كل جانب

عزيز غزير جاره اليوم واصل
فأردت أن أبين للسامعين الذين لم يقفوا من قبل على حاله النوراني
أن هذا من الهامه الفورى وليس شعرا مؤلفا على روية وتفكير ، أو
محفوظا من قديم ،

فقلت لسيدى الاستاذ .. حوالى مرة أخرى ياسيدى الشيخ ،
وكنت أثيرا عنده ، فقال عفا الله عنه :

حوالى نور العلم يسكن جبهتى
أسالم أيامى وما أنا جاهل

فقلت : حوالى مرة أخرى من فضل الشيخ ، فقال :

حوالى نور المصطفى وأنا به

أموت وأحيأ انه لى مناهل

فقلت : حوالى أيضا لو سمحت ياسيدى (وكنت قد رأيت اتباعها
شديدا من السامعين) فقال :

حوالى ايناس من الله وحده

وما لعبت يوما بعقلى الشواغل

فقلت أريدها والله مرة أخرى اكراما لذكرى مولانا الامام الحسين
— رضى الله عنه — (وكانت الحفلة مقامة فى مناسبة ذكرى مولده المبارك)
فقال قدس الله سره :

حوالى اشراق من الشرع ثابت

وشمس التجلى ما عليها حوائل

وعندئذ هب الجمع على كثرتهم وقوفا ، وصفقوا طويلا ، وصاحوا
صيحة الإعجاب ، ولا أقول بعد الذى جاء فى الشطر الأخير من البيت
الأخير ، الا ما قاله الله تعالى (الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم
يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى
الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم) .

تربية النفس فجنب الله تعاف

— ٢ —

قدمت لآخواني القراء الأعزاء في الصفحات السابقة نماذج مما احتفظ به من حكم ملهمة — ثرية وشعرية للامامين الصوفيين المعاصرين ، العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى وسيدى الشيخ على عقل ، قدس الله سرهما — وهما اللذان توليا تربيتى الدينية فى الطريقة الخليلية لصاحبها الامام العظيم والقطب الكبير سيدى الشيخ محمد أبو خليل رضى الله عنه — ساكن ضريحه المشرق بالزقازيق ، وذلك على مشرب السادة الصوفية — وهو أصفى مشرب للواردين الظاهريين فى هجرتهم الى الله رب العالمين ، ذلك المشرب الذى يصفه الامام الغزالى رضى الله عنه بقوله :

« علمت يقينا أن الصوفية هم السابقون لطريق الله خاصة ، وإن سيرتهم أحسن السير ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهريهم وباطنيهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وبالجمل فمأذا يقول القائلون فى طريقة أولها استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله ، وما قبل ذلك كالدلهيز للسالك » .

وأقدم اليوم جديدا من تلك الحكم الصادرة من قلوب زكية ، أمثالات بحب الله واستضاءات بنور رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كتب لى استاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فى رسالة بعث بها من الاسكندرية :

« ان استعراض النفوس يحير الألباب ، ويفتح بابا وراء ألف حجاب
لا يعلم ما وراءها الا واهب الألباب طريق الصواب ، فان كشف الحجاب
لبعض الأحباب ، رأى تدبير القادر الحكيم وقال « يوم لا ينفع مال ولا
بنون الا من أتى الله بقلب سليم » •

والتأمل فى حكمة استاذى هذه يدرك أهمية النفس فى صلة العبد
بربه ، فهم رأس مال الانسان فان نسي ربه أنساه الله نفسه ، فغفل عن
النظر إليها ، ففقد رأس ماله ، وكان عاقبة أمره خسرا ، وان خاف مقام
ربه فنهى النفس عن هواها ، وعنى بها فزكاها ، انكشف له حجاب الغفلة
وأشرقت عليه شمس الحقيقة ، فرأى بنور اليقين الذى يهبه الله لأحبابه
الذين قال فيهم (يحبهم ويحبونه) — ان القلب السليم هو خير ما يلقى
به العبد ربه يوم القيامة ، ولا يكون القلب سليما الا اذا سلم من آفة
الشرك الميتة ، ومن ظلمات الغفلة المعوقة •

وقد بين القرآن الكريم أنواع النفوس التى تصاحب الناس ، فهناك
نفس أمارة ، ونفس لوامة ، ونفس ملهمة ، ونفس مطمئنة ، فقال فى الأولى
(ان النفس لأماراة بالسوء الا ما رحم ربه) وقال فى الثانية (لا أقسم
بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) وقال فى الثالثة (ونفس وماسواها
فالهنما فجورها وتقواها) وقال فى الرابعة (يأتينا النفس المطمئنة أرجعى
الى ربك راضية مرضية) وقالت النفس المطمئنة بذلك الشرف كل الشرف
اذ خاطبها رب العزة ثم أرجعها الى حظيرة قدسه راضية مرضية ثم كان
جزاؤها (فادخلنى فى عبادى وادخلنى جنتى) •

والإيمان علم وعمل يزيد وينقص ، وحجب الغفلة كثيرة وكثيفة عبر
عنها سيدى الشيخ بأنها « ألهم حجاب » فان جاهد المؤمن نفسه وهواه
بالطاعة والذكر والأخذ عن العارفين والتقلب فى الصالحين ، تبددت حجب
الغفلة ، وظلمات الهوى ، فانفتحت عين البصيرة فقرأ المؤمن بها فى
صفحات الخلود قوله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله
بقلب سليم) فاهتدى الى طريق الصواب فآثر الله تعالى على هواه وعلى
كل ما سواه ، وهذا هو الملك الحقيقى وليس ملك العروش الزائلة ، وفى

ذلك يقول استاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى اشراقاته
الملهمة :

عرش كسرى تغنى عنه كسره
ما وقى الملك من الموت أجل
ليس من ورث عرشا ملكا
أو على الملك تمنى واتكل
انما الملك الذى حد الهوى
وعن اللهو تنسأى وعدل
وحياة قد خلا سلطانها
من تقى الله قصاراها الفشل
ليس عندى أى مال انما
كل مالى فيه علم وعمل
ان عيلى يوم القاء فما
لى عيد غير وجه الله جل
شهدت روحى حياه وقد
لاح لى نور المحيا واتصل
ايه يا دنيا افعل ما شئت
ان شمس الحشر أدنى من زحل
عن مغنايك بشبر اكفى
وعن البحر اجتزاء بالوشل

ولا يستطيع المؤمن أن يزيد ايمانه الا بمعاشرة أهل اليقين ، ولذلك
جاء فى الحديث الشريف « تعلموا اليقين » أى جالسوا أهل اليقين وقد
نصحنى استاذى فقال لى فى رسالة أخرى •
وكن مع أهل الحقيقة وابحث عنهم بحث الباحث عن حق يرجع اليه
لنفسه فقط •

ولا عجب فان أهل الحقيقة جاهدوا فى الله حق جهاده حتى فنوا عن
أنفسهم بربهم فحيوا وأحيوا غيرهم اذ استخلفهم الله فى الأرض فصاروا
أطباء النفوس بما آتاهم من فضله ورحمته فداو نفسك يا أخى بدوائهم
وغذها بغذائهم تصح كما صحوا (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم
مهتمون) ويرحم الله أمير الشعراء شوقي اذ يقول :

أساة جسمك شتى حين تطلبهم
فمن لروحك بالنفس المداوينا

ولله در الامام البوصيرى حين يوجنها الى ضرورة العناية بالنفس
فى قوله :

والنفس كالطفل ان تهمله شب على
حب الرضاع وان تنطمه ينطم
فراعها وهى فى الأعمال سائلة
وان هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة

من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
ويبدى استاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل انه انما عاين
آيات اليقين بعد أن قتل هوى نفسه فيقول فى الهامه الممتع :

قتلت هوى نفسى فمشت بلا نفس
وجافيت انسى فاحدرت الى الانس
ولم أبد أمرى للعباد فطالما
بكمت الذى القى عن الجن والانس

وأدركت بالوجدان سر أحبتي
وعاينت آيات اليقين بلا لبس
وعشت زمانى لست أخفل بالورى
وكيف وقلبي هام فى مشهد القدس

تعشقت نور الله وهو بصيرتى
وقد وضح البرهان من آية الكرسي
وما اتخذت روحى سوى الله غاية
فتم الهدى للروح والقلب والحس
وان شرب الناس الطلا وتصببوا
فسنة خير الخلق فى شربها كأسى
وعلمت غيرى ما أفدت من الهدى
فلم يبق ذو فهم لدى على طمس
ولم أعشق الدنيا فتلك مجازة
تهىء للأخرى وفى فوتها عرسى

وأترك لأخى القارىء الكريم ، أن يذوق حلاوة هذا الالهام المتدفق،
مذاق المؤمن الذى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، (قل هل يستوى
الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب) •

ويتعرض السادة الصوفية فى جهاد أنفسهم لسخرية الناس الذين
لا يعقلون ، ولكنهم لا يعبأون بسخرية الناس أو ملامتهم ، وقد تعرض
لها الأنبياء والمرسلون من قبلهم فلم يحفلوا بها ، ذلك بأن محب لله لا ينشئ
عن حبه ، مهما لا قى فى سبيل الحب ، وأى حب هو ، انه حب الله ، الذى
ليس كمثله شئ ، ولا شئ قبله ، ولا شئ بعده ، ومبدؤنا منه ومنتهاها
اليه سبحانه •

ولهذا يقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى
الهاماته :

انا مجبوه آثرنا الحياة له
فلا نلام على احياء تقواه
ان كان حبي جنونا بنسما زعموا
يارب زدنى جنونا أنت منحاه

قالوا اتخذ لك جاها تستعين به
قلت اتخذت فكفوا حسبى الله

ويقول أيضا رضى الله عنه :

لا تحارب بالعدل قلب محب
عالج الشوق عمره ولهانا

وتلطف به فقد حكم الشوق
عليه فلن يفيق جنانا

اعذرونى أو اعتلونى قانى
لست أختشى الملام من حيث كافا

انما اللوم فى المحبة عندى
لا يزيد المحب الا افتنانا

جرب الحب مثلما جرب العاشق
تلق الملام يذكى هوانا

قد رضينا بالله لا بسواه
ما القينا لما رطيناه هوانا

قد تناءيت عن سواه بكلى
وتلقيت سره احسانا

وقريب من كلام استاذى قول الشهيد الحلاج رضى الله عنه :

يالائى فى هواه كم تلوم فلو
عاينت منه الذى عاينت لم تلم

ويبدو لى - فى غير تعصب - ان كلام أستاذى فى دفع الملامة
أفوى من كلام الشهيد الحلاج رضى الله عنه ، وان كان الشهيد الحلاج
رضى الله عنه يقول بعد ذلك فى روعة صوفية ظاهرة :

للناس حج ولى حج الى سكنى
تهدى الاضاحى وأهدى مهجتي ودمى

يطوف بالبيت قوم لا بجارحة
بالله طافوا فأغناهم عن الحرم

وإذا كان أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل لا يحفل
باللائمين وانما يدعوهم للتجربة ليشهدوا بانفسهم أن الملامة تذكى الهوى
وتلهبه فليس عجيبا أن يصف حاله فى حب الله بقوله :

وقفت على نجوى الاله جوانحى
لذلك قلبى منزل كله ذكر

وأخلت قلبى من مناجاة غيره
فأصبح طودا لا يزلله الغير

أسارع مشتاقا وأسكت هائما
وأطلق أجلا لا وما عاقنى سير

فنى صبحوتى شوق وفى غفوتى هوى
وفى مشيتى علم وفى وقتى سر

ألا رحم الله الصالحين من السلف والخلف ، ورزقنا تقواه وهداه ،
وجمل قلوبنا بالحكمة لتكون ممن قال تعالى فيهم :

(يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا
وما يذكر الا أولو الاباب) •

الذكر - الشكر - الرضا - العلم بالله

— ٣ —

« وتقلب في الذاكرين ، وكن معهم ذاكرا شاكرا ، ولا يملك أمر الدنيا ، فان السعة هي الرضا ، وقل رب زدني علما » .

وهذه حكمة أخرى من الحكم التي كتب بها الى من الهامه أستاذي العارف بالله سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني طيب الله ثراه وهي تتناول في التربية الصوفية أربعة أسس : الذكر ، والشكر ، والرضا ، والعلم .

أما عن ذكر الله ، فانه اذا أطلق على عمومه ، شمل كل قول أو فعل أريد به وجه الله تعالى فيدخل في ذكر الله أداء العبادات المفروضة على وجهها الصحيح ، وتلاوة القرآن الكريم ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتحصيل العلوم اللازمة لذلك ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وافتاء الناس في الحلال والموارث ، والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله ، والتسبيح ، والتلهيل ، والتكبير ، والتلبية .. الخ .

أما ذكر الله على التخصيص ، فيقصد به ذكره تعالى باسمائه الحسنی جماعة أو فرادی ، باللسان والقلب ، وهو من فضائل الأعمال ، وثمراته دائية ، دلت عليها التجربة العملية ، ورواد التجربة صوفية كل عصر ، والتقلب فيهم يكسب المؤمن محبة الله تعالى محبة خاصة ، يؤثر بها ربه عما سواه ، كما آثره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سجل الله تعالى لهم ايثارهم في أروع صورة في مثل قوله الكريم (لا تجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) وقوله تعالى : (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو

والأصاال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء
الزكاة (.

ويبين أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه
آثار ذكر الله فى تربية الروح فى أقوال كثيرة ، فمن الهامه فى هذا المجال
قوله :

رضينا بما يرضيك . أنت منا
وان نطلب اللقا فانت علانا
وكل فؤاد غافل عنك صخرة
ولكنه ان ذاق ذكرك لانا
ونفس هوت فى الفى من بدء أمرها
أذا ذكرت يوما تال أمانا
وبالذكر كافت أرض تسر لأهلها
وبالذكر تكسى عزة وحنا
ومن يذكر الرحمن بالقلب صادقا
علا فوق أعناق الملوك مكانا
ورب فتى فى الناس رث ثيابه
ولكنه ساد الضحى لمنا
إذا كنت تهوى الله نلت مكانة
وان كنت تهوى الناس قلت هوانا
وروحى تستغنى عن الناس باسمه
وقلبى تدانى بالهوى وتقانى
وتحن قلوب طهر الله أصلها
ورب السما بالمكرمات كسانا
ولم تتكلم انما فاض حينا
شهودا فأرسلنا المعلوم بيانا
الا أيها اللاحى تجرع كؤوسنا
لتصبح منا ان سقيت سقانا

وتعرف عنا ودنا وگرامنا
وتدرك منا علمنا وهوانا
تجلت لنا الأنوار من عالم البقا
فهمت بها أرواحنا ونهانا
فينا بها حبا فطابت حياتنا
رأينا بها عند الفناء بقانا
وهكذا كشف لنا سيدي الأستاذ عن منازل الذاكرين وأحوالهم
ومقاماتهم ، ويتوجها جميعا مقام الفناء في الله ، وهو عين البقاء والخلود ،
ويعبر عنه الشهيد الحلاج رضى عنه بأنه الحياة في قوله :
اقتلونى يا ثقاتى
ان فى قتلى حياتى
وحياتى فى مماتى
ومماتى فى حياتى
أنا عندى محو ذاتى
من أجل المكرامات
وبقائى فى صفاتى
من قبيح السيئات
ويعبر عنه القطب الكبير سيدي ابراهيم الدسوقي بقوله فى مناجاة
ربه : وخذنى اليك منى ، وارزقنى الفناء عنى ، ولا تجعلنى مفتونا بنفسى ،
محبوبا بحسى ، واكشف لى عن كل سر مكتوم ، يا حى يا قيوم •
ولا يتسع هذا المقال لتفصيل أكثر عن ذكر الله وأثره فى جمع القلوب
على الله ، وقد تغنى الإشارة عن العبارة ، فقد قال العارفون بحق :
الذكر منشور الولاية ، وسلم الهداية ، وصلاح المريدين ، ورأس
مال كل عارف ، وشجرة المعارف •
وكفى شرفا للذاكرين قول الله تعالى : ؟ فاذكرونى أذكركم » وقوله
تعالى فى الحديث القدسى : « أنا جليس من ذكرنى » وقد كان مولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر الله تعالى •

أما شكر الله فهو من دعائم الإيمان القوية كما أنه مظهر من مظاهر حبه سبحانه ويكون شكره باللسان ، والأركان ، والجنان •

أما شكر اللسان فالتحدث بالنعمة بنية الشكر وإظهار الفضل •
« وأما بنعمة ربك فحدث » فلا يتحدث المؤمن افتخارا ولا تزكية لنفسه •

والشكر بالأركان يكون بإداء العبادات المفروضة « اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور » •

أما الشكر بالجنان فهو أن يعتقد المؤمن ويحس بقلبه أن النعم التي يتقلب فيها ظاهرة وباطنة من احسانه تعالى ومحض جوده سبحانه لا الزام عليه فيها (وما بكم من نعمة فمن الله) •

ومن الهام أستاذي العارف بالله سيدي الشيخ علي عقل في رد الفضل لله تعالى قوله :

وزماني يقول لي
لا تفتخر بقوة
كل من عاش ذاهب
أي فخر لیت
وحیثی يقول لی
سر لبابی بخشية
وفؤای يقول لی
احفظ أصول المودة
یا فؤادی اذا بدا
فضل مولاك فاثبت
ذكر مولای مقصدي
عز مولای منعتی
حكمة الله ملجئی
وتقى الله رفعتی

أنا صاف مهذب
ذائق كل رحمة
بالمهدى صائى وقد
بعت نفسى برغبتى
بين عز وحكمة
أكمل الله نعمتى

ومن الهامه كذلك :

سألت قوفانى رجوت فزادنى
وان كريم الكف ما خاب سائله
أحن على ذل وأهوى على هدى
وأسرى على علم بقلبى أوأصله
وهل يدرك الآيات الا رجالها
وهل يعرف الوجدان الا مزاوله
وذوه الوجد لا يغضى عن الحب لحظة
به عاش حتى لو أصيبت مقاتله
فقل للذى لم يشهد الحق لاتحد

عن الحق ان الحق قد خاب جاهله

أما الرضا فيقول عنه سيدى الشيخ « ولا يهلك أمر الدنيا فان
السعة هى الرضا » والرضا هو السعة كما جربنا ، فغير الرضا
يضيق الفسيح فى الدنيا ، وكم كبير مات وكأنت الدنيا تضيق عن نفسه ،
فأضحى تسعه حفرة من رسمه ، وما أكثر العبر وأقل الاعتبار .

عبر كلها الحياة ولكن

أين من يفتح الكتاب ويقرا

أما الصادقون فقد ابتلوا فى الدنيا بأنواع البلاء ، فانزاحت عنهم
مرارة البلاء بحلاوة الرضاء ، فعاشوا دقياقهم برضاهم سعاداء ، وكانوا بعد
موتهم فى جوار ربهم أسعد ، (فرحين بما آتاهم الله من فضله) .

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرى نعم الله عليه فى البلاء فيقول ما من بلاء يصيبنى الا وأرى الله على فيه أربع نعم :
النعمة الأولى أن البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى ، الثانية انه لم يقع أكبر مما وقع ، الثالثة أن الله دفع جزعى منه بالايمان ، الرابعة أنه ادخر لى ثواب الصبر عليه ، وهذا من قوة يقين أمير المؤمنين وتأمله فى حكمة القضاء .

وما أبدع الهام أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فى تهوين الألم والرضا بمواقع المقدور اذ يقول رضى الله عنه :

لولا التألم فى الحياة لما بدا
نور التأمل لامرئ قوام
لولا وقود النار فيما ينبغى
ما كان ينضج بعد أى طعام
وكذلك قوله :

انما هذه الحياة قضاء
وقضايا لها البرية تجهل
ليس يدرك القضاء الا الذى
قدره وهو فى الحقيقة أول
ان من ذاق للمحبة طعما
فهو عند الأحداث لا يتملل

ويقول أيضا رضى الله عنه :

كل شئ يهون عندى سوى الله
فما للحياة أعطى اتبهاها
ليس تفكيرى فى غد كيف يأتى
ما مضى اليوم عفتها أشباها

أما العلم فهو نور يمحو ظلمات الجهالة ، وأشرف ما يعلمه الانسان توحيد ربه والايمان برسله وباليوم الآخر ، فاذا وحد الانسان ربه، أمكنه أن

يزداد بالتربية الدينية ايمانا ، فيتصل بالله اتصال الخواص ، الذين آثروا ربهم عما سواه وكيف لا يتفانى المؤمن في حب الله وقد أحاطت به نعمته ،
نعمة الایجاد ، ونعمة الامداد ، ولولاه ما كان شيئا مذكورا •

غير أن المؤمن لا يستطيع الاتصال بالله تعالى الا من الباب الذى دله الله عليه ، وهو مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) وصدق سيدى البكرى اذ يقول فى مناجاته صلى الله عليه وسلم:

وأنت باب الله أى امرئ

أتاه من غيرك لا يدخل

وقد شرف الله بالعلم أبا البشر آدم عليه السلام ، فعلمه الأسماء كلها ، قبل أن تعلمها الملائكة ، ومن الله على سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم الموهوب فقال تعالى : (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وأساس علمه صلى الله عليه وسلم (فاعلم انه لا اله الا الله) وهبة العلم جاءته فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وفى قوله تعالى « فأوحى الى عبده ما أوحى » وكان على الدوام فى زيادة علمية ، كيف لا وقد اختار له ربه دعوة بالزيادة فى العلم (وقل رب زدنى علما) وهو صلى الله عليه وسلم خير السائلين والله تعالى أقرب المجيبين وفى الخير (برى عرفت كل شئ) •

ولأن معرفة الله تعالى هى أول فرض فرضه على عباده حين خاطبهم فى عالم الذر (ألت بربكم قالوا بلى) صارت العلوم الشرعية أطهر العلوم وأصفها ، وأشرفها وأزكاها لأنها تهيم القلوب لتذوق العبادات وتلقى الواردات الرحمانية ، والنفحات الربانية التى لا تنفد ، وما يلقاها الا أولياؤه المتقون ، فحدث عنها ما شئت ، فانها من الهام الله وكلماته •

ويذكر أستاذي العارف بالله سيدي الشيخ على عقل فضل ربه عليه
في الهامه رضى الله عنه فيقول :

آنس . الله مهجتي معلوم

مزجتي بها فكنت وعاما

طاف بي النور فالعارف بحري

تلفظ الدر وهي لا تتأهي

وارتقاء الأرواح في مورد العلم

يصفى الأرواح من دنياها

وانعدام الأهواء والحس منها

هو معنى السمو في مسراها

يا سروري بقوله يا عبادي

أنا في سمعها أنال رضاها

الا جزى الله عنى وعن اخواني المؤمنين أساتذتي خيرا وجعلني أهلا

لبنوتهم وهدانا بهداهم •

الصوفي جسمه بيت الخلق يسرى وقلبه في الملكوت يرتفع

— ٤ —

« وكن مع أهل الحقيقة وابحث عنهم بحث الباحث عن حق يرجع إليه لنفسه فقط » .

وتلك حكمة من الحكم الغالية التي كتب لي بها استاذي العارف بالله سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني رضى الله عنه ، وقد رجوته حينئذ أن يفسرها لي فقال دعها حتى يفسرها الزمن ، فالتزمت أمره ، ودار الزمن دورته ، وتقدمت بي السن ، وتقلب في التجارب ، وفي حلول الحياة ومرها ، ورأيت تفاوت الناس في معادتهم ومشاربهم ، فما أبكى عيني ولا أحزن قلبي ، مثل فراق والدي وشيخي وبعض اخوان لي في الله ، رحم الله من مضى ، وبارك من بقي ، فقد قدرت لهم وأكبرت فيهم صلاحهم ومعاونتي في طاعة الله والشفغ به تعالى وإثاره على ما سواه .

ولم أخرج من تجاربي بخير مما أوصاني به سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني ، وقد كان ينظر بنور الله فيما أوصاني به ، فقد وجدت أن أهل الحقيقة هم أصفى المجتمع ، لأنهم يطلبون ربا لا يفنى ، ويتلهم غيرهم بغمرات الدنيا التي تزول ولا تبقى ، والأولون يظنهم الناس حمقى وهم العقلاء ، والآخرون يراهم الناس عقلاء ، وهم حمقى غافلون .

ولا أود أن يفهم اخواني القراء الأعزاء ، أني أرمي أهل الحقيقة بالسلبية في الحياة وترك السعى فيها ، لا ، انما أقول انهم يسعون في الدنيا كما يسعى الناس ، ولكنهم مع سعيهم في دنياهم يجعلون سعيهم هذا في خدمة أخراهم ، إثارا للأخرة على الدنيا ، لأنهم خلقوا للأخرة ، وهي مقرهم ، وهم يمرون بالدنيا في طريقهم إليها ، فلا يشغلهم ممرهم عن مقرهم .

وخصوصية أهل الحقيقة ، محلها البواطن ، وقد كان شيخنا الأكبر سيدي محمد أبو خليل ، رضى الله عنه يقول : « خلوتنا بالقلب » لذلك عرف الصوفى بأنه المؤمن الذى صفا قلبه من الكدر ، وامتلا من الفكر ، وانقطع الى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر .

وانقطاع الصوفى من البشر ، انما هو انقطاع بالقلب لا بالحس ، فتراه بين الخلق يسمى وقلبه فى الملكوت يرعى ، وقد تعلق ساداتنا الأئبياء والمرسلون عليهم صلوات الله بين الناس بأجسادهم ، وبأينهم بمواجيدهم والذين لم يعرفوهم بخصوصيتهم الباطنة ظلوا على كفرهم ، فقد قالوا مثلا فى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » وأضلت الظواهر أبا لهب حين نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه يتيم أبى طالب قلم ير أنه السراج المنير الهادى الى سواء السبيل ، وهذا من عمى القلب والعياذ بالله .

وقد قال سيدي أبو سعيد الخراز رضى الله عنه : ليس الكامل من صدرت منه أنواع الكرامات ، وانما الكامل الذى يقعد بين الخلق يبيع ويشترى معهم ويتزوج ويختلط بالناس ولا يغفل عن الله لحظة واحدة ، ويؤيده فى كلامه هذا قوله تعالى « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وابتاء الزكاة .. الآية » .

وتفصح السيدة رابعة العدوية عن خلوة القلب بالله ، مع تعلق الأجسام فى الناس ، فتقول رضى الله عنها مناجية ربها :

ولقد جعلتك فى القواد مجدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبىب قلبى فى القواد أنيسى

ويقول أستاذى العارف بالله سيدي الشيخ على عقل رضى الله عنه :
ليس التصوف بالظواهر انما هو للبواطن حلة وشعار
كم ضاحك لكنه فى محنة كم خائف لكنه مختار
والقلب روض واليقين ثماره فاذا اعتززت به تطيب ثمار

وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أئمة الأمة عامة وأهل الصدق خاصة ، وأهل الحقيقة يحاكونهم فى أخذ الدين بقوة العزائم ،

وقد أدى الصحابة رضوان الله عليهم دورهم فى المجتمع أحسن تأدية ،
فقد تاجروا وكسبوا عيشتهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله
وفتحوا الأمصار لاعلاء كلمة الله وقتلوا أهل الزينج كسيلمه ، وأهل الردة
والخوارج ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وبلغوا الخلف أحكام
الشريعة وآداب القلوب .

وقد التبس على الناس بما فيهم بعض علماء الشريعة ، معنى الحقيقة ،
وعجبوا أن يعرف الصوفية وأهل العناية بالدين بأنهم أهل الحقيقة ،
واعترضوا على ذلك بأن الناس مكلفون بالشريعة ، فلا معنى لأن تذكر الى
جنبها الحقيقة ، وقد أجاب الصوفية على هذه الشبهة فقالوا ان الشريعة
عبادة ، والحقيقة عبودية كما قالوا الشريعة تعلق ، والطريقة تخلق والحقيقة
تحقق ، أو الشريعة باب والطريقة آداب والحقيقة لباب ، فاذا أدى المسلم
المبادأة على وجهها الصحيح وذكر الله كثيرا وأحبه من كل قلبه ، ذاق طعم
الايمان ، فاستشعر بهذا المذاق عبوديته ، فتقانى فى حب سيده فغمرت
الأنوار وزكته الاسرار ، وآثره تعالى عما سواه وصارت أقواله وأفعاله
وأحواله لله وبالله وفى الله ، أما العبادة الشكلية فهى عبادة آلية ، لا تنزكى
فيها الروح بدرجة الخواص المراعين أنفاسهم مع الله .

وزاد السادة الصوفية الأمر وضوحا فقالوا ان الشريعة هى القيام
بالأوامر ، والحقيقة هى محبة الأمر ، فالدين واحد يجمع حدود الأوامر
ومحبة الأمر جل جلاله ، كما قالوا ان فاتحة الكتاب جاء فيها ، اياك نعبد،
وهى شريعة ، واياك نستعين ، وهى حقيقة ، فالعون منه سبحانه ، ولا
يعرف ذلك الا من استشعر العبودية لله وحده ، وقالوا فى معنى لا اله الا
الله ، أنه لا نافع ولا دافع الا الله ، فيجب أن تكون السيادة له وحده
سبحانه .

والنتيجة أن العبادة هى شكل العبادات ، والعبودية هى روح تلك
العبادات ، ولهذا تختلف مثلا درجة المصلين وان تساوا فى شكل الصلاة
وعدد الركعات ، فمنهم من ينصرف من صلاته وما كتب له الا نصفها ثلثها
ربعا خمسا سدسها سبعها ثمنها كما جاء فى الحديث الشريف .

ويكسب المؤمن روح الدين وقوة اليقين ، بالأخذ عن العارفين من العلماء الربانيين ، وهم أهل الحقيقة ، وهم من فضل الله موجودون في كل جيل ، وهم عباد الرحمن ، الذين جاءت أوصافهم في آيات القرآن الكريم ، ومن دعائهم المستجاب « واجعلنا الممتقين اماما » .

والاحكام الشرعية ربما يحصلها المجتهد من الاطلاع على تأليفها ويستغنى في تحصيلها عن الاستاذ المعلم ، أما آداب القلوب في سلوكها إلى الله تعالى ، فلا بد فيها من الشيخ العارف الذي يربى تلميذه بالحال والمقال ويرشده إلى ذكر الله ذكرا كثيرا حتى يستغرق الذاكر بالذكر القلبي فيحيا به حياة الخواص المراعين أنفاسهم مع الله ، وقد قال العارفون : حياة الروح بالذكر وحياة الذكر بالذاكر وحياة الذاكر بالمذكور .

وهذه سنة السلف منذ صدر الاسلام ، فقد قيل للامام الحسن البصري رضى الله عنه وهو أفضل التابعين ، يا أبا سعيد نراك تتكلم بكلام لم نسمعه من غيرك ، فمن تعلمت هذا العلم ، قال : أخذته عن حذيفة بن اليمان « الصحابي الجليل » .

ويحدث حذيفة بن اليمان ، رضى الله عنه ، عن نفسه فيقول : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ، مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقني ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا وكنت أقول يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا ، فلما رأيته مقبلا على هذا العلم خصني به .

وبفضل هذا العلم الذي حرص حذيفة رضى الله عنه على أخذه من منهل النور الأصفي صلى الله عليه وسلم ، خص حذيفة بعلم المنافقين ، حتى أن مولانا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان لا يصلى على أحد مات إلا إذا رأى حذيفة يصلى عليه . وقد وصف الله المنافقين في القرآن الكريم فقال تعالى « ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » .

ولأن أهل الحقيقة يعنون بأحوال القلوب وآدابها ، فانه لا بد للسالك مسلكهم أن يدقق فى اختيار شيخه الذى يأخذ عنه تلك الآداب الروحية .

وقد قالوا ينبغى أن يكون الشيخ صوفيا منتها ، وعرفه ابن الجوزى فقال « هو ذلك الذى يربيه الحق من صغره ، فتراه فى الطفولة معتزلا عن الصبيان ، كأنه فى الصبا شيخ ، ينبو عن الرذائل ، ويفزع من النقائص ثم لا تزال شجرة همته تعلو ، حتى يرى ثمرها متهدلا على أغصان الشباب فهو حريص على العلم ، منكش على العمل ، ساع فى طلب الفضائل خائف من النقائص ، فلو تصورت التوفيق والالهام الربانى ، كيف يأخذ بيده ان عثر ، ويمنعه من الخطأ ان هم ، ويستخدمه فى الفضائل ، ويستتر عمله حتى لا يراه منه ، فلو تصورت النبوة تكتسب لدخلت فى كسبه .

وأنت ترى أيها الأخ الكريم من ذلك أن الشيخ يجب أن يتوافر له فى الارشاد علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة .

وقد قالوا ان من العلامات الدالة عليه ، السخاء ، وحسن الخلق ، والشفقة على خلق الله ، وعدم الانكباب على جمع الدنيا ، وعدم المبالاة باقبال الناس عليه أو ادبارهم عنه ، وعدم الشكوى من ضيق العيش ، ومجانبة الدعوى ، وليس من لازمه الكرامات أو الاخبار بالغيب .

وقد لمست فى شيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه تلك الصفات التى ذكروها ، وذلك من فضل الله علينا وعلى اخواننا فى الله ، وقد تعرض لفضله فى مناسبة ذكرى مولده المبارك تلميذه العارف الموهوب سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فقال الهاما :

قد جنينا ثمره	هذا اجتماع فى المباح
رف قوى التبصره	نحى به ذكرى لما
حيث أجرى أنهره	من فضله روى القلوب
ل أهل الآخره	علمنا تصوف الرجا
ر والأيدى الخيره	الحلوانى ذى الوقا
بالحق تسرى نيره	حتى غدت قلوبنا

ومن معاني الذكر كم
وجوهنا من ذكره
وما علينا في هوى
من عاش يدعو ربه
فانه في حشره
ان كنت ترجو عفو
نجاه رب القلب لا
كالنبت ان رويته
من قال يارب السما

تلقى الوجوه مسفرة
ضاحكة مستبشرة
رب العباد من تراه
ونفسه مطهرة
يحمد حسن المغفرة
فاعمل وخذ ما امره
يورق قلب هجره
أفئانه مزدهره
في علمنا ما أظهره

ويشير رضى الله عنه الى أن الصادقين من أهل الحقيقة قلة، والمدعون
كثير ، فيقول رضى الله عنه :

لم أبالغ اذا حلفت يمينا
زمن فيه للتدين ناس
ان رأوا في الطريق أى فقير
وتراهم ان قيل بيبك وباشا
يحسنون المديح فى لؤم طبع
عامل الناس بالوداعة والحكمة
وترفق اذا نصحت ولا تغل
كن مع الناس فى صفاء ودين
ان عفوا عن الضعيف مقام
احفظوا عهدكم مع الله صدقا
كيف يرضى الجحود من جاءه الحق

ان فى عصرنا يعم البلاء
زعموه وهم له أعداء
نهروه والسادة الاغنياء
احنوا الرأس فى النفوس رياء
تتأذى بسمعه الاذكياء
تمحى من صدرها البغضاء
ففى الرفق للنفوس دواء
واعف عنهم من الذى لا يساء
والتغاضى عن اللئيم غباء
واتبعوا ما دعت به الانبياء
وبالخير قد حبتة السماء

ويقول أيضا طيب الله ثراه :

شراب الحب يعرف بالمذاق
دعاة الحب أكثر ما تلاقى
وليس بعاشق من لا تراه

وما كل السقاة له بساق
وقل الصادقون فما تلاقى
عن الشهوات طهر والنفاق

إذا ما عشت لا أنسى الهى
أحب الله عن أدب وصدق
تركت جميع خلق الله دونى
يعز على ترك الحب عندى
أطوف على الرحاب بكل ذل
ومن عرف المحبة عن يقين
به أسمو من الأخرى المراقى
ولا أرضى سوى التقوى خلاقى
شغلت عن الخلائق باشتياقى
ولو بلغت بى الروح التراقى
مريدا واليقين به انسياقى
حرام أن يميل الى فراق

وها هو ذا يصف أحوال أهل الحقيقة ومواجيدهم ، فيقول رضى
الله عنه :

أرواحنا فوق السماء
وقلوبنا مثل البدر
ونفوسنا أُنْقَاسُهَا
ولساننا بيت المعارف
وكنسورنا فى قلبنا
أعضاؤنا طربت بحبك
والروح من وجد عن الـ
فنت به عن غيره
شرفت به وتلذذت
ان كان جسمى بالفناء
فالروح بعد فائه
مسح الكواكب سارية
بكل ليل زاهية
كالطيب امت زاكية
والعلوم الراقية
فيها المعانى غالية
وهى تذكر صافية
أغيار عاشت نائية
فاستمسكت بالباقية
بشهوده فى عافية
سقفه متداعية
فى الخلد شمس سامية

اللهم ارزقنا حبك ، وحب من يحبك ، لنكون من القوم الذين قلت
قيم « يحبهم ويحبونه » أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى
سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .

القرب من الله قرب مكانة لا قرب مكان الصوفية ينفوت الحلول والاتحاد

— ٥ —

« ان باء بنعمة الاخلاص اليك انسان ، فقد يكون هذا الضعيف ،
الذى يضرع الى الخالق البارئ ، أن يهبنا الاخلاص الكامل ، والقرب
الشامل » *

وهكذا ترى فى كلام سيدى الاستاذ العارف بالله الشيخ عبدالسلام
الحلوانى ، تواضع الأئمة الأتقياء ، فهو يكتب لتلميذه الناشئ بلغة
التواضع والتراحم ، ويعلمه أن السعى فى الله تعالى باخلاص كامل ،
يوصل الى القرب الشامل ، وهو قرب مكانة لا قرب مكان ، فانه تعالى
كما يقول السادة الصوفية :

« يتقدس عن الحدود والأقطار ، والنهاية والمقدار ، ما اتصل به
مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت الصمديّة عن قبول
الوصل والفصل ، فقرب هو فى نعتة محال ، وهو تدانى الذوات ، وقرب
هو واجب فى نعتة ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز فى وصفه
يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل باللفظ » *

وقرب الفضل باللفظ هذا هو مقام فى التصوف يتصل المؤمن فيه
بربه ، بالروح لا بالبدن ، ولا تتسع العبارات للتعبير عنه ، وقد قال عنه
الامام الغزالى « يضيق نطاق النطق عنه وكل ما أقوله لكم عنه :
فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر
ويزيدنا شيئا من الافصاح عنه أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ
على فيقول :

قد شربنا من حبه فسكرنا	وعرفنا من أين تأتى الجوارا
ودخلنا دار الكرامة نروى	بيقين الهدى وكنا حيارى

اعذرونا اذا نهيم فانا
وتراثنا من حيث نشرب في الكأس
تتحلى بالعلم في كل ناد
فقلوب مثل الكواكب فينا
في ديار الهوى خلقنا اسارى
سكاري ولم نكن بسكاري
ولرى بالتقى علينا ازارا
تظهر النور فهو لا يتواري

ولسيدي محيي الدين بن عربي (الذي يرميه الحاقدون بأنه من
أهل الحلول والاتحاد) ، قدس الله سره ، كلام نفيس في ذلك المقام يقول
فيه : ومن أعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم
أن نعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء ، وأن الشمس
ما انتقلت اليه بذاتها ، وإنما كان القمر مجلاها ، فكذلك العبد ليس فيه
شيء من خالقه ولا حل فيه (باب ٢٥٢ من الفتوحات المكية) ، وكذلك
جاء في شعره ما ينفي الحلول والاتحاد الذي ينسب اليه أعداؤه فيقول
رضي الله عنه :

ودع مقالة قوم قال عالمهم
الاتحاد محال لا يقول به
وعن حقيقته وعن شريعته
بأنه بالاله الواحد اتحدا
الاجهول به عن عقله شردا
فاعبد الهك لا تشرك به احدا

وكان سيدي على وفا - رضي الله عنه - يقول :

المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم فناء مراد العبد في مراد
الحق ، كما يقال اتحد فلان وفلان اذا عمل كل منهما بمراد صاحبه ثم
أنشد :

وعلمك أن كل الأمر أمرى هو المعنى المسمى بالاتحاد
وكان سيدي على البيومي - رضي الله عنه - يقول :
كل له ورد يكون وسيلة لمعاشه ومعاده
وجملت وردي في الخروج عن الورى وأكون مع مولاي تحت مراده

أما الاخلاص فهو السر الذي يودعه الله قلب من أحب ما عباده
الذين قال فيهم « يحبهم ويحبونه » و يترقى المؤمن في صلته بربه ، على

قدر ما وهب من ذلك الاخلاص الذى أودعه الله فيه وقسمه له ، « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » •

والصدق هو سلم الترقى الذى يستند الى الاخلاص ، وقد قال تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » ، كما قال تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » • وقد جاء الحض عليهما فى الكتاب والسنة ، ويشير الى ذلك أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل — رضى الله عنه — فيقول الهاما :

ماكل من دخل الطريق أخوهدى	أو كل من صب المدامة ساق
كم عالم فى نفسه مرض العلا	لم ينتفع بمكارم الاخلاق
الصدق والاخلاص أسباب الهدى	يا مدعى التقوى بلا استحقاق
احفظ مقام الناس واترك عرضهم	حتى تنال مواهب الخلاق
انا لى من القرآن خير معلم	ومن الحديث منابعى ومذاقى

وأنت ترى من البيت الأخير أن التصوف يجب أن يقوم على الكتاب والسنة ، ولذلك قال السادة الصوفية اذا رأيتم الرجل يرتقى فى الهواء فلا تغفروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة •• وقال الامام الجنيـد — رضى الله عنه — علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة •

ويطلب — رضى الله عنه — المون من ربه ، وهو يجاهد فى سبيله ، ويتشرف بالانتساب اليه تعالى فيقول فى الهامه :

أسمى لخلقى واقصد وجهه	وعن المسير اليه لن اتخلفا
يا مالكا روحى ومانحها الهدى	انظر الى فأنت أكرم من عفا
ان قيل من قلت امرؤ فى ربه	ساع وهذا فى انتسابى قدكفى
لا والذى غمر العباد بفضله	انى بغير الله لن اتشرفا

أما اخلاص الاستاذ المربى لتلميذه الناشئ ، فهو من حنان الأبوة الذى يلقاه الأبناء من آبائهم ، وقد كان شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى دائم العطف على ، والاحسان الى ، وكان يسره ما يسرنى ، ويؤلمه ما يؤلمنى ، ومن عنايته بى وجهنى الى أخذ حذرى من نفسى التى

بين جنبى ، وأسر لى فيما بينى وبينه ، حكمة مأثورة عن السادة الصوفية يقولون فيها « لا يدخل حضرة القدوس أحد من أرباب النفوس » .

وكأنما نقشها — رضى الله عنه — على قلبى ، فهى لا تبأرحنى ، وكلما همت نفسى أن تخادعنى أذكرها بتلك الحكمة الغالية ، فأكسر نخوتها ، وأدعو لسيدى الشيخ بالرضا والرضوان ، ورضوان الله عن سيدى الشيخ على اذ يقول فى الهامه :

آفة النفس أن تظن بها الخير ولا تعطى للمعلم حقه
درجات الرجال لا يقتنيها غير من ذل وهو ينكر سبقه

ويقول كذلك فى ضبط النفس وانكسار القلوب لله تعالى :

يا مريدا للنفس معنى علاها احفظ النفس بالتقى من أذاها
واقصد الله وحده وتواضع ان فضل الاله لا يتباهى
أحزم الناس من اذا نال رزقا عاش بالذل وهو لا يتباهى
قد صدقنا الرحمن سرا وجهرا وثقينا الأمثال والأشباها

ويقول أيضا :

نحن فى عالم اليقين رجال قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم انما نحن فوق ذاك شربنا
أجد الذل أقرب الباب الى الله لهذا عن العباد افترقنا
ان قلبا يعيش بالذل للناس س يعيش الحيلة منهم معنى
أيها المستجير بالله طهر قلبك العمر من سوى الله تغنى
انما الحب رغبة فاتباع قفنا من البقاء فيه معنى

وما يشير اليه — رضى الله عنه — بقوله : « انما نحن فوق ذاك شربنا » هو السر المكنون بينهم وبين بارئهم وواهبهم — جل جلاله — ويقول القطب الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى فى مقام هؤلاء الخواص « أما طريق الخاصة فطريق سلوك تضمحل العقول فى أقل القليل من وصفه » وقد جاء فى وصف سيدنا الخضر — عليه السلام — « فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » .

وهى آية من كتاب الله تشهد بالعلم الوهبي للخواص من عباد الله ،
وحرص سيدنا موسى - عليه السلام - على الاتقاع من هذا العلم
الباطنى فيه دليل شرعى على وجوب طلب علم التصوف من أهله الذين
خصهم الله برحمته •

ويقول كذلك فى سعيهم اليه تعالى على صراط الشرع الشريف :

أطوف وأسمى بالعبادة صادقاً	وانى بغير الشرع لا أتعبد
وان أنا بالأرض اتخذت مساجدى	فقلبى لنور الله بيت ومسجد
وان يعبدوا خوفاً عبدتك رغبة	ولى لذة فى رغبتى تتجدد
واسبغ ثوب الذل فوقى لعلى	أرى يوم ألقى الله ما أنا أقصد
فقلبك أدبه عن الناس كلهم	ولا تعترض عبداً مسالكه دد
فكم مذنب قد صادفته عناية	فعاد وقورا بالمثابة يسجد
وكم طامع قد غره سهد ليله	فظن العلا فى نفسه وهو مبعد
ومن لم يعلم نفسه قبل غيره	فليس له نصح يراد ويحمد

وهذا البيت الأخير عبر عن معناه السادة الصوفية الأقدمون بقولهم:
من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز •

وهذه حقيقة لا شبهة فيها ، فان نجاح شيخ فى التربية لا يكون
الا بعد تهذيب نفسه ، فيعطى من تهذيبه لتلاميذه الدروس العملية قبل
الدروس الكلامية ، فاذا صار التصوف رسماً بلا عمل ، بقيت القلوب
على آفات النفس فلا تغنى أصحابها شيئاً فى كسب آداب الخصوص
حتى لو سلمت أجسادهم من العلل الصحية ، والتصوف يقوم على تربية
القلوب والوجدان بهمة لا تعرف الملل ، وبجد يضعف الركبتين ويحزن
القلب ويدمع العين ، ولهذا يقول سيدى الشيخ على رضى الله عنه :

وما التصوف قول قد نزعرفه	بل التصوف قلب قد وهبناه
أمسى على أرق اشتاق فى حرق	بالدمع فى غرق قصدى محياه

ويقول في وصف الصوفية :

رجال وليكن علا قدرهم	تبارك من لهمو قد خلق
لهم همم كالجبال الرواسي	وهم عند ربك نور العسق
ونارهمو في النعيم المقيم	فيا عجباً جنة في حرق

ويرى السادة الصوفية أن الانسان انما يكون انسانا بنفسه المهدبة العابدة الذاكرة الشاكرة الراكعة الساجدة المتصلة بربها الذي خلقها لعبادته فاذا لم يكن على صلة عامرة بربه ورابطة طاهرة ييقينه فيه — سبحانه — فلا يعتد به وان كان جسده في صورة انسان ، ويقول بعض صوفية الفرس فيما ترجمه الى العربية صديقي فضيلة الشيخ الصاوي شعلان :

اذا الورود خلت من طيب قهحتها	فلا تراحم بها في الأرض هستانا
اذا الوجوه خلت من نور سجدتها	لم تستحق غداة الموت اكهاانا
اذا القلوب خلت من ذكر خالقها	فهي الصخور التي تحتل ابلهاانا
اذا خلا المرء من فهم ومعرفة	ظلمت نفسك لو تدعوه انسانا

وأبلغ مما قاله القائلون جميعا في وصفهم ما سجله الحق تشريفا لعباده الصالحين في آخر سورة الفرقان .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » الى قوله تعالى « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . »

الصلة الروحية بين التلميذ وشيخه عند الصوفية

— ٦ —

« ان قلت أنا مشتاق ، والشوق شديد فليس هذا معنى ما تقاسيه الروح من ألم ذلك الشوق ، انما أترك الأرواح تتناجى ولها الله سبحانه وتعالى وهو الذى يعلم السر وأخفى » •

لم تقف هذه العبارة التى كتب لى بها أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، عند بث الشوق لتلميذه ، بل تعدت هذا الأفق الى آفاق أبعد وأعمق ، ذلك بأنها دلت على تجاذب الأرواح ، الذى يكون بين الشيخ وتلميذه ، ويكون للشيخ فيه سلطان الأبوة ، وللتلميذ تلقى الأبناء فى الله وهو سلطان قوى ، لا تدرك آفاقه الا بالتجربة العملية ، ويقرب لنا وصفه ، سيدى القطب ابن عطاء الله السكندرى فى قوله رضى الله عنه :

« وليس شيخك من سمعت منه ، انما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته ، انما شيخك من سرت فيك اشارته ، وشيخك هو الذى يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك حتى وصلت اليه ، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك فى نور الحضرة ، وقال لك : ها أنت وربك » •

فالشيخ اذن هو النائب عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تهذيب الروح وصقلها ، ببث الآداب النبوية ظاهرها وباطنها فى قرارة النفس ، حتى يعرج المريد « التلميذ » فى معارج الخواص ، المراعين أنفاسهم مع الله سبحانه وتعالى ، فيكون ممن ينطبق عليهم قوله تعالى :
« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » •

وقوله تعالى :

« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأقاموا الى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

والأخذ عن شيخ عارف بالله ، أمر ضرورى فى التصوف لكسب اليقين ، وقد جاء فى الحديث الشريف « تعلموا اليقين » أى جالسوا أهل اليقين ، وكل بيعة حصلت بعد النبى صلى الله عليه وسلم هى تجديد لبيعته صلى الله عليه وسلم ، والعارفون بالله نواب عنه صلى الله عليه وسلم فى تعليم الناس آداب الدين الظاهرة والباطنة ، والآداب الباطنة أصعب من الآداب الظاهرة ، لأنها تحتاج لمعتك خفى بين المرء وهوى نفسه وشيطانه ، وغرور الدنيا الخداعة ، وآفاته القلبية من الحقد والحسد والعجب والرياء والنفاق .. الخ ومن طلب طريق القوم بغير امام عارف بالله ، تاه فى أول قدم ، وكفى شرفا لطريقهم النورانى ، ان سيدنا موسى عليه السلام وهو من المرسلين أولى العزم ، طلبه من الخضر عليه السلام وقال له :

« هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » .

وهذا أقوى دليل على وجوب طلب التصوف « وهو علم آداب القلوب » من أهله .

ويشير الى ذلك أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فيقول :

إذا لم يكن للنفس شيخ له هدى	يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه	سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها	على موجة التيار مانورها يسرى

وقد كنت أجالس شيخى رضى الله عنه فلا يكلمنى لسانه ، وانما يناجىنى حاله ، فكنت أحس باحساسه فى بعض الأحيان ، ومن أعجب ما وقع لى من ذلك انى جلست اليه مرة ، فأحسست برعب شديد كاد أن ينخلع له قلبى ، والشيخ صامت ، وهو جالس على مقعد فى مقابلتى ،

وخيل الى أن الدقائق صارت أياما ، كما خيل الى أن رضوى على كفى ، وما شعرت حتى اضطربت أعصابى ، وارتجت أركانى ، ولا أدري من سر ذلك شيئا ، وبعد نحو ربع ساعة نطق الشيخ مخاطبا لى ، ولم يكن معنا أحد ، وقال لى : أتدرى فى ماذا كنت أفكر ، وكأنما نفس غنى كرتى فى التحدث الى ، ققلت : لا يا سيدى فقال : كنت أفكر فى أهوال يوم القيامة ، وأتصور النار فى شهيقتها وزفيرها ، وأراها كالركان يرمى بالبقذائف ذات اللحم ، فيقشعر جلدى ، وتكاد من خوفى تزهر روحى ، ققلت رحمنا الله وإياك من شرها ياسيدى ، والله لقد كشفت عن سر ما كنت أنا فيه من الهلع ، فقد أحسست باضطراب هدى كياتى ، وعرفت الآن السر الذى خفى على ، فانت كنت فى مقام الخوف ، وتعداك الى تلميذك ، وما عهدتك فى ذلك المقام قبل اليوم ، بل كنت أرى فى مجالستك أنسا وسرورا ينسينى أهلى وأعمالى ، ثم سكت وسكت ، ومن السكوت أحيانا خطاب وبيان .

وكذلك وقع لى من مثل هذا معه ، انى دعوته ليتناول عدى طعام الغداء مع بعض اخواننا ، فتفضل وأجاب الدعوة ، وكنت معتادا أن أدعوه معه شخصا بعينه كان يلزمه كثيرا ، فوجدتنى منصرفا عمدا عن دعوته معه هذه المرة ، بسبب خفى غنى ، واستغربت انصرافى هذا ، فكاشفت شيخى رضى الله عنه بما وقع لى ، فقال « عملت طيبا ان فلانا هذا يظن الآن انى بغيره لا أستطيع أن أتحرك » ققلت لا حول ولا قوة الا بالله ، ورأيت من التجربة العجيبة التى كان سرها خافيا على حتى كشف غطاءه شيخى رضى الله عنه — مصداق قوله تعالى فى أوليائه « لهم ما يشاءون عند ربهم » . فقد صرفنى الله بدافع قلبى لا أدريه عن دعوة من لا يود شيخى أن يكون معه فى الدعوة ، ومن مثل تلك الوقائع فهمت معنى ما يقوله السادة الصوفية : حال واحد فى ألف خير من كلام ألف فى واحد

ذلك جانب تناجى الأرواح بين الشيخ والمريد ، بقى جانب آخر ، تضمنه عجز العبارة وهو الذى قال فيه رضى الله عنه : « ولها الله الذى يعلم السر وأخفى » وهو توجيه صوفى ، يقوم عليه التصوف كله ، فرقابة

الله ، تقتضى أن يخشى المرید ربه فى سره كما يخشاه فى علانيته وزيادة ،
لأن الخشية فى العلانية ، قد يكون مراعىا فيها جانب الناس ، من الحكام
وغيرهم ، أما السر ، فيكون بينه وبين ربه الذى لا يخفى عليه خافية •

وقد قالوا من رجع عن المخالفات خوفا من عذاب الله فهو تائب ، ومن
رجع حياء من نظر الله فهو منيب ، ومن رجع تعظيما لجلال الله فهو أواب •

ويعجبني فى هذا المقام قول المرحوم السيد اسماعيل صبرى ، وهو
الهام صوفى جميل :

يا رب أهلى لفضلك واكفى	شطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى	غضب الحليم ورحمة الخبار
يا عالم الأسرار حسبى محنة	علمى بأنك عالم الأسرار

وها هو ذا شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل يرينا كيف
يطهر المرید قلبه ، ويصحح باطنه ، ليكون مهبط أسرار الله تعالى فيقول
رضى الله عنه :

يا أيها السارى لخلق السما	وقفت جاهد فى فؤادك واحتف
واذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى	حافظ على آياته بتلطف
وانهض بروحك نهضة قدسية	ولسنة المختار فى السير اقتف
وأحب ما فى هذه الدنيا التقى	من حاد عنه ليس بالمتعفف
ان المحب اذا صفت أخلاقه	مع ربه لمنامه لم يألّف
لا تذكر البارى لقصد ولاية	أو أن تكون على السما لاتنطفى
اذكر لوجه الله جل جلاله	من رام غير جنباه لم يشرف
من كان نور الله ملء فؤاده	عييب عليه النوم بعد تعرف
يا قلب كن مع ربك البارى على	ثقة وإيمان وحسن تصرف

كما يقول أيضا فى العشق الخفى ، الذى يراه الله ولا يراه الناس :

ليس بالماشق من فى	قومه بالعشق يفخر
انما العاشق من فى قلبه	للعشق أضمر

لا نريد الناس يوما حبنا الله يسؤثر
قد وزنا كل شيء بقلوب تذكر
فتركنا الخلق لله ورب الخلق أكبر

ويصف لنا رضى الله عنه باطنه الذى يركن فيه الى الله وحده فى
الشدة وانرخاء فيقول :

فتشت كل الخلق عن علم فلم
فتركت كل العالمين وجئته
يا رب قلبى قد غسلت من الورى
ان مر بى عصف الزمان وقصفه
أأجبه وأخاف سطوة غيره
روض المحبة قد شهدت جلاله
يا نفس انى لا أمالىء غيره
ان الذى فهم المحبة قلبه
سلم لربك أمره واترك له
وذر العباد وشأنهم وفعالهم

أر لى سوى رب السما من وال
وجعلت ذكرى ذاته منوالى
اذ ليس غيرك ما ذكرت ببالى
— والله — لست بما شهدت أبالى
هذا وحقق لا تعيه خصالى
وجماله فثبت فى أحوالى
قوى الى حوض الكريم تعالى
لم يتجه يوما لآل زوال
أقداره واحذر من الأقوال
ان كنت مرتادا بلوغ كمال

ويقول مذكرا بأمر الآخرة ، وتحصيل الطاعات فى الدنيا قبل الرحيل
منها ، ويحذر من اهمال جانب الآخرة ، بمظاهر الدنيا الفانية ، مبينا أن
المال الذى يحصله المرء فى الدنيا لخدمة الدنيا ذاهب لغيره لا محالة ، وما
يحصله من مال فى الدنيا لىخدم آخرته ، يبقى له أنيسا فى قبره :

خل عنك الدنيا ان من خدموها
عبدوها بانها خير جاء
وتنادى العباد فى كل يوم
تترك المال للورث ولكن
ان من يفقه الحقيقة يدري
ذاكرا شاكرا مقدم بر
مستدرا فيض الاله عليه

خدعتهم والذنب للخدمات
بئس جاء نما على السيئات
احذرونى وجانبوا غدراتى
تؤنس القبر تركة الصالحات
انما كان كاسب الاوقات
سأهرا جانحا عن الشهوات
مستقيما ملازم الحسنات

قائمًا في عبادة الله يقظان قوى النُّوَاد أهل الثبات
ذلك الحي في الرجال عليه يوم أن مات أعظم الرحمات
وما أروع التجاءه إلى الله في غفران ذنوبه مع خوفه الباطني منه
سبحاته :

لم يفتني تذكر الذنب يوما ان ذنبي يطيل من حسراتي
أنا والله لا أخاف سواه كل من في الوجود عبد الذات
لم أر العصمة التي زعموها انما الذنب مظهرى وسماتي
دون ذنب ما كنت أدرك عفوا ان عفوا الاله أزكى صلاتي
رب هبني رضاك سرا وجهرا واعف عنا يا غافر الزلات

اللهم ارض عن مشايخنا في الله ، وألحقنا بهم فضلا وكرما ، فاتنا
مؤمنون بك وقد قلت وقولك الحق « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم
بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء » .. آمين •

الخوف والرجاء عند الصوفية

— ٧ —

كنت قد كتبت لسيدى العارف بالله الشيخ عبد السلام الطواني
رضى الله عنه أن يرده أصابنى فى سفر فكتب لى — أعلى الله قدره فى
الأولياء — يهول :

وقد آلمنى ألمك الذى رافقتك من سفرك — شفاك الله وعافاك —
واحترس أخى من هواء الخريف لأنه لطيف ولا يخاف الا من اللطيف كما
قال بعض الحكماء :

احذر أخى هوا الخريف فانه

مستعذب مستلطف خطاف

يجرى من الأجسام جرى عروقا

بلطفافة ومن اللطيف يخاف

وأنت تراه قد تألم لما تألمت منه ، ودعا لتلميذه بالشفاء والعافية ، ثم
لم يفوت الفرصة فى توجيهى لما ينفعنى فى دينى ودنياى ، فحذرني أولا
من هواء الخريف ، بأسلوب رقيق كما ترى ، وزاد على ذلك نصيحة
صوفية رقيقة ودقيقة ، جاءت فى عبارته ، ولا يخاف الا من اللطيف ،
وأيدها بحكمة شعرية قديمة .

ولنفهم أولا معنى اسمه تعالى « لطيف » ولقد تفضل رضى الله عنه
فشرحه لى ذات مرة فى مناسبة من المناسبات وقال لى أن معناه « مصور
الشيء فى قالب ضده » فرجوته أن يزيدنى شرحا وتوضيحا فقال لى :
يخرج الطفل من بطن أمه فترى له جمالا فى الخلقة ولو أنك تفكرت فى
سبب الخلقة لوجدته ماء مهينا ، خرج من بين الصلب والترائب ، فتحول
هذا الماء المهيمن فى أطوار متعددة الى أن صار بقدرة الله بشرا سويا ، ذا
تقويم حسن وشكل جميل ، رأيت كيف حول الله الماء القبيح فى بدايته

الى طفل وسيم فى النهاية ، فتطور بقدرة الله من القبح الى الجمال وذلك يدل على أنه تعالى لطيف ، وكذلك سجن سيدنا يوسف عليه السلام بفرية افتريت عليه ، وكان السجن مهانة وشدة صبر عليهما بضع سنين، وقد أثر عليه السلام السجن فرارا من معصية الله ، حين ناجى ربه قائلا « رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » فلما أراد الله له الفرج خرج من السجن حاكما لمصر ، وجاء بأهله من البدو ، وجمع شمل الأسرة بعد الفارقة ، فتذكر فضل الله عليه فى كل هذا ثم قال عليه السلام (ان ربي لطيف لما يشاء) فجعل الله له من المحن منحا ، وذلك من لطفه سبحانه .

ومقام الخوف عند السادة الصوفية من مقامات اليقين الأساسية ، لكنهم يقرنونه بالرجاء ، حتى لا ييأس المرید من رحمة ربه ، فيكون فى سيره الى الله ، بين الخوف والرجاء ، أشبه بالطائر الذى يطير بجناحيه معا .

ويقول فى ذلك العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

فاليائسون كفره	لا تيأسوا من روحه
فالآمنون فجره	أو تأمنوا من مسكره
تعبد نفس حذره	بين خوف ورجا

ويقول أيضا :

لم تخف منى خافية	يسارب أنت علمتى
آيات عفوك شافية	سقمى يزيد وانما
أنا ما نسيت حساية	أنا مذنب واحسرتى
وما أمنت عذابي	بل خائف يأتى الحساب
بين الورى أوفى يية	كف الميمن دائمنا
راج جيزيل ثوابه	مهما فعلت فانتى

ويتشبه رضى الله عنه برحمة الله ، ولا يستند الى عمل من أعماله فيقول :
فتشت أعمالى الحسنى فوا أسفى لم ألق من حسن يدنى لعقباه
هجرت كل مرام غير رحمته (فانها حسناتى يوم القاه)
وها هو ذا سيدى العالم العارف بالله ، الشيخ أحمد الحلوانى والد
شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما
يجمع بين الخوف والرجاء فى قصيدته المسماة المستغفرة فى قوله :

يا ويلتنا من ذنوب	فجورها مفجور
ومن خطاى اللواتى	الى الخطا تستطير
وأه من كل اثم	عليه يطوى الضمير
ومن مقاصد سوء	جبرى بها التعبير
ومن خطيئات خطى	وما حوى التسطير
ومن ومن لست أدرى	فذاك شئ كثير
قبائح كنت فيها	أسرى وطورا أسير
سررت منها زمانا	وغمها مذخور
نسيتها ووعاها	كتابى المسطور
ماذا أقسول لربى	إذا بدا التحير
يا رب أنت رحيم	وبالسمح جدير
يا رب أنت عفوف	وأنت رب قدير
يا رب أنت كريم	والعبد عبد فقير
يا رب انى حقيق	جدا وأنت الكبير
وشأن من جل يغضى	إذا أساء الحقير
وأين تهرب خسيس	من ربه يامجير
وما أريد اجتجاجا	عليك بل أستجير
أجر عبيدك يا من	سواه ليس يجير
مالى سواك أغنى	وهل سواك نصير
ولى اليك شفيع	بدر الظلام المنير
غوث الأنام المرجى	إذا السوءاء تمور

به توسلت فاجبر كسرى غافى كسير
واسكب عليه التحايا ما غاض منه النيبور

وكلامه رضى الله عنه يشع بنوره الفياض ، كيف لا وهو من الهام
عالم عارف بالله ، قد امتلا ، قلبه من محبة الله وهداه ، ويتعلق أستاذي
العارف بالله سيدى الشيخ على عقل بعفو الله فيقول رضى الله عنه :

من ظن أن عطاء الله عن بدل واستكثر العفو منه ضل مانعجا
زادت ذنوبى لكن ما استجرت به الا وجدت مقام العفو قد وضحا
ان نام قلبى من الزلات فى ظلم فانه بضياء العفو منه صحا
الذنب يحزنى والعفو بفرحنى فاعجب لكاسب ذنب ينتشى فرحا

وما أروع المقابلة فى كلامه المبارك فى الأبيات السابقة — ويقلب
رضى الله عنه الرجاء على الخوف فيقول فى الهامه البديع :

من ينادى الكريم عجزا وذلا قد أجاب الكريم فضلا نداء
ان علمتم أن الاله كريم أتراه يرد من ناداه
لو بأعمالنا نكافأ ضمنا انما عفوه وحسن عطاء
ان رجونا فالرجاء من العبد جميل اذا دعا مولاه
رب رفقا بمن أذاك ضعيفا حاملا ثقله كثيرا أذاه
ان ربي بما تقرر أولى لا يرد الضعيف ان ناجاه
أنا بك ولست يوما بشاك كيف أشكو والقلب حل حماه

ومع الرجاء فى الله يدعو رضى الله عنه الى الجهاد فى سبيل الله
فيقول :

أتجب أن تملو بغير مشقة لولا المشقة لا ينال علام
جاهد تملواصبرت فزوا صدق تسد واسهر تذق واعبد يهبك عطاء
يا أيها الاخوان هل من ذاكر عهدا مضى كنا ضياء سماه
كنا أولى أدب وفينا حكمة الفرد منا كوكب بسناه
كنا نقوم على رضا كنا نسير على تقى كل يحب أخاه

ما بالناس شيطاننا فى يومنا
فيقول لى أنت المحب وينشئ
عودوا بنا ليل نسير بالهدى
أنتام ليلا ثم ندعى سادة
لا تطمئنوا للحياة وصفوها
لا تركنوا للنوم فى أيامكم
سر يا مريد على المبادئ صادقاً

غلب الجميع وما يرد عنه
لسواى يمدح أنت كنز حماه
فالليل يكشف للمريد غطاه
هذا الضلال البحت وا أسفاه
فالفنوه قبل الموت ما أرداه
فالنوم للمشتاق بدء جفاه
للمنتهى حتى تنال لقاه

والخوف يبعث على تقوى الله اتقاء لغضبه وبالتقوى يتخذ المؤمن
ربه صاحباً ، ويدع الناس جانباً ، وإلى اخوانى القراء مثلاً من تفكير
السادة الصوفية ، فيما يقربهم إلى الله ، ويدعوهم إلى المجاهدة فى سبيله
والاعتماد عليه فى جميع أمورهم :

روى أن حاتماً الأصم كان تلميذاً لشقيق البلخى رضى الله عنه فقال
الشيخ لتلميذه منذ كم صحبتنى ؟ قل منذ ثلاث وثلاثين سنة قال فما
تعلمت منى فى هذه المدة ؟

قال ثمانى مسائل ، قال شقيق : انا لله واقفا اليه راجعون ذهب عمري
معلك ولم تتعلم الا ثمانى مسائل فما هى ؟ قال : الأولى .. نظرت الى هذا
الخلق ، فرأيت كل واحد يحب شيئاً فلا يزال محبوبه معه ، فاذا ذهب الى
قبره فارقه فجعلت الحسنات محبوبى ، قال أحسنت فما الثانية ؟ قال :
نظرت فى قول الله عز وجل « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن
الهوى فان الجنة هى المأوى » فعلمت ان قوله تعالى حق ، فأجهت نفسى
فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى .

الثالثة .. انى نظرت الى هذا الخلق قرأيت كل من له شيء له قيمة
وله عنده مقدار يحفظه ، ثم نظرت فى قول الله عز وجل (ما عندكم ينفد
وما عند الله باق) فكلما وقع لى شيء له قيمة ومقدار وجهته الى الله تعالى
ليبقى لى عنده .

الرابعة : نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع الى المال والحسب والشرف والنسب ، فنظرت فاذا هي لا شيء ، ثم نظرت الى قوله تعالى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » فعدت الى التقوى حتى أكون عند الله كريما .

الخامسة : نظرت الى هذا الخلق فوجدت بعضهم يظعن في بعض ويلعن بعضهم بعضا ، فعلمت أن أصل ذلك كله الحسد فنظرت الى قوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) فتركت الحسد وعداوة الخلق وعلمت أن الذي قسم لى كائن لا بد منه .

السادسة : نظرت الى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ويعادى بعضهم بعضا فنظرت الى عدوى في الحقيقة فاذا هو الشيطان وقد قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) فعاديته وأحببت الناس أجمعين .

السابعة : نظرت الى الخلق فوجدتهم يطلبون الكثرة ويذليون أنفسهم بسببها ، ثم نظرت الى قوله تعالى (وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها) فعلمت أنى من جملة المرزوقين فاشتغلت بالله عز وجل وتركت ما سواه .

الثامنة : نظرت الى هذا الخلق فرأيتهم يتوكل بعضهم على بعض ويتوكل هذا على تجارته ، وهذا على صنعته ، وهذا على صحة بدنه ، وكل مخلوق يتوكل على مخلوق ، فرجعت الى قوله عز وجل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فتوكلت على الله عز وجل فقال الشيخ لتلميذه ، وفقك الله يا حاتم فقد جمعت الأمور كلها .

اللهم انا نخافك ، وأنت الغفور الرحيم ، ونخافك وأنت القهار ذو البطش الشديد ، فاجعلنا يا الهى فى خوفنا من الراجين ، وفى رجائنا من الخائفين ، ليمتزج خوفنا ورجاؤنا فاتنا لا نخاف الا من نرجوه ، ولا نرجو الا نخاف ، وقد سبقت رحمتك وجودنا ، ومغفرتك ذنوبنا ، وان خوفتنا فمن رحمتك بنا ، وان أطمعنا فى رحمتك فمن احسانك الينا ، فعاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك فانك قلت وقولك الحق « ان ربك واسع المغفرة » .

فضل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدحه

— ٨ —

« وأنى أسأل الله لكم ولنا التوفيق والرضا وأن يجعل وجهتنا إليه ،
وأن يفتح لنا طريق الخير ، وأن يمدنا بنور من نور نبيه صلى الله عليه
وسلم حتى نسلك سبيله القويم ، وأن يجعل فرحنا به خير ما فلقاه به يوم
القيامة ، انه سميع الدعاء » .

ويرى أخى القارىء الكريم فى كلام شيخى العارف بالله سيدي
الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، مشرب السادة الصوفية
الأكابر ، فى التبرى من الحول والقوة ، والركون الى الله تعالى فيما
يحتاجه العبد للفلاح ، من التوفيق ، وعون الله ، والنور النبوى المبين
الذى يهدى الى الله سبحانه ، مصداقا لقوله تعالى (وان تطيعوه تهتدوا)
وقوله تعالى (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) ، فمن اطاعه صلى الله عليه
وسلم فقد أطاع الله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ومن بايعه صلى الله
عليه وسلم فقد بايع الله « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق
أيديهم » ويرى السادة الصوفية أن هذه الآية الأخيرة هى أمدح آية فى
القرآن لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت يده صلى الله
عليه وسلم ممثلة ليده تعالى بين العباد ، فصارت أيدي العباد فى الأرض
فى يد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار الله فى عليائه شهيدا
عليهم فى بيعتهم ، وراضيا عنهم فيما يبايعوه عليه ، فمن نكث فافما ينكث
على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما .

كل مؤمن مبايع بإيمانه لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل
ما بايع عليه أسلافه الأولون ، لذلك كان مولانا رسول الله صلى الله عليه

وسلم أبا للأرواح المؤمنة ، وله على المؤمنين حرمة الأبوة ، كما أن أزواجه الطاهرات — رضوان الله عليهن — لهن حرمة الأمومة ، فحرم الله فكاحهن من بعده ، تأكيداً لهذه الحرمة ، وذلك بنص صريح في القرآن كما هو معلوم ، ويوجب السادة الصوفية الاكثار من الصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعظم فضلها ، وكثرة نفعها للمصلي ، ورأيت في بعض مزاجهم ، أن أقل حد لها عندهم ، ثلثمائة مرة في اليوم ، ويقولون في تبرير الاكثار منها أنه تعالى أبرز فضلها في قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) وهي آية تدلنا على أنه سبحانه ينسب عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة يصلون عليه ، فأراد الله تعالى أن يصل على أهل الأرض ، كما يصل على أهل السماء (إن فضله كان عليك كبيراً) وكان هو صلى الله عليه وسلم يصل على نفسه امتثالاً لأمر الله تعالى ، ولتأسي به المؤمنون .

ويقول العارفون ليست الصلاة عليه شفاعاة منا له صلى الله عليه وسلم ، ولكنها مكافأة لمن أحسن اليانا ولأننا عاجزون عن مكافأته على إحسانه وجب علينا أن ندعو له فتكون صلاتنا عليه مكافأة بإحسانه ، ولا نعمة أفضل من نعمة الايمان التي جاءتنا على يديه صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان الحق سبحانه شره بالصلاة عليه مع ملائكته فما أخرجنا ان فرطنا فيها ، كأنه تعالى يقول لنا ان صليتم عليه كسبتم خيراً لأنفسكم لأنه غنى عن صلاتكم يصلاتي عليه وكفاة غنى بها .

وقد كان بعض السلف الصالح يتوددون اليه صلى الله عليه وسلم بقرينات أخرى الى جانب الصلاة عليه ، لعلمهم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ويثيب عليها ، ومن ذلك مثلاً ما رواه الامام أبو طالب المكنى رضي الله عنه في كتاب قوت القلوب من أن الامام علي بن الموفق رضي الله عنه حج حجات عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فراه صلى الله عليه وسلم يقول له يا ابن الموفق حججت غنى ؟ قال قلت نعم يا رسول الله ؟ قال ولييت غنى ؟ قال قلت نعم يا رسول الله ؟ قال له صلى

الله عليه وسلم : هذه يد لك عندى أكافئك بها يوم القيامة ، آخذ بيدك وأدخلك الجنة ، والخلاق فى كرب الحساب . قياقوز أهل المودة ، جعلنا الله منهم بفضلهم وكرمهم آمين .

وقى مناسبة قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) يعجبني ما يقوله السادة الصوفية فى التشبيهات ، فهم يقولون جاء فى كتاب الله تعالى (يد الله فوق أيديهم) وجاء (يلى يده ميسومتان) وجاء (والسما بنيتاها يأيده) ونحن نؤمن بها كلها على ما أراد الله منها — وهم للقلك لا يقولون اللعاني كما أولها بعض العلماء من الخلف .

ولما كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم آينا للأرواح اللومنة فهو الأسوة الحسنة لأبنائه ممن كائن يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، ولا يصل المؤمن الى ربه إلا بمن بابه ، يحسن التأسي به ، والعمل بأقواله وأفعاله وأحواله ، وصدق سيدنى محمد البكرى الكبير رضى الله عنه اذ يقول :

وأنت باب الله أى امرئ أناه من غيرك لا يدخل والشيخ العارفون بالله تعالى ، وقد بينا وصفهم فى المقالات السابقة نواب عنه صلى الله عليه وسلم فى الدعوة والارشاد والتهذيب الروحى ، وكل جيل مرزوق من فضل الله بآمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

ولأبوته صلى الله عليه وسلم ، أشفق على أمته شفقة الأب على أبنائه ، وحرص على ما ينفعهم وشق عليه ما يؤلمهم ، فكان فى شأنهم الرؤوف الرحيم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتهم حرص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) ..

وقد وقع لى مالم أكن أحب أن أبوح به ، لولا أنى قصدت بذلك وجه الله فى تشييت أفئدة اخوانى المؤمنين ، أقول وقع لى ما أكد عندى ، انه وهو فى قبره الشريف حى يلحظنا ويبرنا ، ويشمل بره ، المجد منا والمقصر ، فقد كنت وأنا المقصر متشرفا بزيارته صلى الله عليه وسلم ، وحين

حان موعد السفر زرنا زيارة الوداع ، وبينما أنا قاصد الى مكتب شركة الطيران ، سمعت صوته الشريف يرن في أذنى بهذه العبارة الرحيمة (شيعتكم السلامة) ولم أقرأ أو أسمع فى أية مناسبة مثلها ، فالشائع بيننا فى الاستعمال رافقتكم السلامة ، فجاشت نفسى متأثرة بعاطفته الكبيرة صلى الله عليه وسلم ؛ وذرفت عيناي الدموع ، وما كادت السيارة التى تقلنا الى المطار تنعطف فى الشارع الذى نرى منه جبل أحد حتى اشتد بكائى مع مغالبتى له ، وكان بكائى من رؤية جبل أحد ، مدفوعا بتضحيات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اقامة هذا الدين القيم ، وقلت ورثناه سهلا ، فلم نقدره قدره ، ولم نعمل له عمل السلف الأوائل ، الذين جاهدوا فى الله حق جهاده بالنفس والمال .

و كنت أظن أن تلك العبارة الرحيمة إنما هى توديع لزائر تشرف بالرحاب النبوى الشريف الكريم ، واذا بالأمر يتعدى التوديع ، الى أفق آخر لاتحسه الا الروح النبوية المشرقة ، ذلك بأن الطائفة ماكادت ترتفع فى الجو ، حتى تخلخلت فى المطبات الهوائية بعنف لم أره فى رحلاتى الجوية على كثرتها ، واذا بالقلوب تكاد تنخلع ، واذا بالقىء يشتد عند كثير من الركاب واذا بمساعد الطيار الأمريكى يخرج ليطمئن الناس ، ولما رآنى أتصعب عرقا قال لى بالانجليزية ابلع الهواء ، وظن أنى لم أفهمه ، فأخذ ييلع الهواء لأحاكىه ، ولكنى كنت مطمئنا على نفسى وعلى جميع الركاب ، بالعبارة النبوية الرحيمة التى كان سماعها فى ذلك اليوم الأغمر أحب الى مما طلعت عليه الشمس .

وابتهجت يومئذ من موقف سيدة مؤمنة انطلقت تقول والطيارة تعلو وتهبط فى عنف عنيف ، ودادا يارسول الله ، ودادا يارسول الله ودادا يا رسول الله ، وقصدت أن تتجنب عامدة كلمة وداع وهو ذوق يدركه المحبون والمحبات فلله درها من مؤمنة ، بدل الله خوفها أمنا .

وعلى قدر التأسى به صلى الله عليه وسلم ، يقوى الارتباط به روحيا ، فمن جد فى التأسى به ، جد به شوقه اليه ، واستمداده منه صلى الله عليه وسلم .

وفى ذلك الاستمداد يقول امام المادحين الامام البوصيرى رضى الله عنه :

النبى استعاره الفضلاء	كل فضل فى العالمين فمن فضل
يوم أبدت لنا القباب قباء	أى نور وأى نور شهدنا
الى طيبة لهم ضواء	فترى الركب صائرين من الشوق
الله من حيث يسمع الاقراء	وقرأنا السلام أكرم خلق
أذهل صبا من الجيب لقاء	وذهلنا عند اللقاء وكم
لا كلام منا ولا ايماء	ووجئنا من المهابة حتى
اليه وللجسوم اثناء	ورجعنا وللقلوب التفات
ذهلت عن أنبائها الرضاء	يا رحيمًا بالمؤمنين اذا ما
أشفق من خوف ذنبه البراء	يا شفيعا للمذنبين اذا
الذى استمسكت به الشفعاء	قد تمسكت من وداك بالجبل
ما لها عن ندى يدك انطواء	وانطوت فى الصدور حاجات نفس
العاصى ولكن تتكرى استحياء	جد لعاص وما سواى هو

الى أن قال رضى الله عنه وفى قوله نصيحة غالية لنا :

ففى حبه الرضا والحباء	وبحب النبى فابغ رضا الله
وله ذكرك الجيل جلاء	كيف يصدأ بالذنب قلب محب
ليس يخفى عليك فى القلب داء	هذه علتى وأنت طيبى

ومن جد به شوقه لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم استبد من حبه صلى الله عليه وسلم لربه وقد فاق فيه صلى الله عليه وسلم جميع المحبين لله تعالى ، حتى لقد قال العارفون إن الله تعالى عجل له صلى الله عليه وسلم الرؤية ، بلا كيف ، ليلة المراج ، لأنه تعالى رأى بعلمه أن القلب المحمدى هو أشد القلوب شوقا الى الله فكان ما قال تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) أما سائر المؤمنين فانهم يتمتعون بالرؤية بلا كيفية عند التجلى لهم فى الجنة مصداقا لقوله تعالى (وجوه يومئذ فاضرة الى ربها ناظرة) وتتشوف المحبة الولهانة العارفة بالله السيدة رابعة العدوية الى تلك الرؤية فتقول :

ليس قصدي من الجنان نعيماً غير أني أحبها لأراها
ولذلك التجلي الأقدس يشير سيدي الشيخ رضى الله عنه « وان
يجعل قرحنا به خير ما نلقاه به يوم القيامة » ويقول فيه بعض العارفين
شعرا :

وَالله أَفْرَاحَ الْمُحِبِّينَ عِنْدَمَا	يُخَاطِبُهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَسْلَمُ
وَالله أَبْصَارَ تَرَى اللهُ جَهْرَةً	فَلَا الْقَسِيمَ يَغْشَاهَا وَلَا هِيَ تَسَامُ
فِيَا قَطْرَةً أَهْدَتْ إِلَى الْوَجْهِ تَقْرَةً	غَدَا كُلَّ وَجْهِ بِالْجَمَالِ مَبْسَمِ
فَصَى عَلَى جَنَاتٍ عَدَنَ غَائِهَا	مَنَازِلُكَ الْأَوَّلَى وَفِيهَا الْمَخِيمِ
وَحَى عَلَى يَوْمِ الْمَزِيدِ الَّذِي بِهِ	زِيَارَةُ رَبِّ الْعَرْشِ فَالْيَوْمِ مَوْسَمِ

أما قول سيدي الشيخ « انه سميع الدعاء » فيفيد حسن الظن بالله
تعالى وهو سبحانه عند ظن عبده به « فان ظن خيرا وجد خيرا ، وان ظن
شرا وجد شرا - ألسنت تراه تعالى يقول للكافرين والعياذ بالله (وذلكم
ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) .

ويقول العارفون ان كل دعوة عن حسن ظن بالله تعالى مستجابة قطعا
لكن على الوجه الذي يريد الله ويرى بعلمه فيه الخير للداعي ، فقد
يجيبه الى طلبه ، وقد يصرفه عنه لحكمة يعلمها ويبدله خيرا منه ، وقد
يشبه الله تعالى بدعوته يوم القيامة ، لأن الدعاء عبادة بل هو مخ العبادة
كما جاء في الحديث الصحيح :

وله در سيدي العارف ابن عطاء الله السكندري رضى الله عنه اذ
يقول :

فَفِي افْتِقَارِي وَتَسَالَى وَمِدِيدِي	أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى أَنْ تَقْضَى الْأَرْبَا
لَوْ لَمْ تَرُدْنِي لِمَا أَرْجُو وَأَمَلُهُ	مَنْ فَيُضْ جُودُكَ مَا عِلْمَتِي الطَّلِبَا

ويكشف أستاذي العارف بالله سيدي الشيخ على عقل عن حسن
ظنه بالله وعن موالاته الله له في الدنيا والآخرة فيقول رضى الله عنه :

وَلَنَا مِنْ نُورِ حُضْرَتِهِ	أَمَلٌ فِي يَوْمِ رُؤْيَتِهِ
قَدْ رَجَوْا فَيُضْ رَحْمَتِهِ	وَتَلَاخُظْنَا بِسَاحَتِهِ

فلقيتينا أطيّب الأمل

ادخرنا ذكره علدا واتخذنا وده ملدا
ومددنا للعطاء يدا فأفاضت باليقين يدا

خالقى فالكل فى نمل

رائدى فى حبه سهرى وبهنا تم لى ظفري
يا فؤادى كن على حذر من حساب الله واعتبر

بالذى قد مر من دول

طول ليلى فى محبتكم أتحدى من جلالكم
قد غرقنا فى مودتكم وانتظنا فى حمايتكم

فى جلال صيب هطل

يا حبيبى أنت محتسبى وتوجهنا بذلتنا
أنت يارب السما أربى أنت يا خلاق متسبى

أنت لى يا ذا الجلال ولى

قد تماهدنا بمهجتنا وتجللنا برقتنا
وتأهينا بخشيتنا وتوجهنا بذلتنا

وعن الاعتاب لم نمل

ولنا من ربنا كرم وعلينا تسكب التعم
نحن بالإيمان نفتنم وبوجه الله تعصم

ولنا الاخلاص فى العمل

راحتى فى الحب وجهتكم مطلبى فى العمر رؤيتكم
مقصدى فى الموت رحمتكم قد دعيتى اليوم خشيتكم

لكموا والقلب وجل

لم تغب عنى مشاهدكم طالما روحى تماهدكم
وتزكىنى مقاصدكم وتجلينى مواردهم

فأرى من ضوئها أملى

أما نور مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي سأل الله شيخنا أن يمدنا به ، فهو نور الهدى الذي يمد به كل مؤمن من رُوحه الوضاعة صلى الله عليه وسلم ، لأنه السراج المنير الذي يهتدى به السالك الى ربه عز وجل (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) ويقول فيه تلميذه المبارك العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه .

<p>شفقتنى بنورها المتلالى وذئاب تختال فى اقبال تسامت أو كالحلى واللالى اتبغى البقاء فى جمع مال بعد رب العباد من آمال نهما باتباعكم صحالى وقد طابت منكمو آمالى كان للبدر منك فضل الجمال أنت من ساقه الى الاجلال على بعثة ختام الأوالى استوطنته درة تسود الغوالى أجرنى مما أرى من وبال ومعنى الرضا وباب الوصال من أنيسى وصاحبي وعيسالى لحماء الحياة أزجى رحالى</p>	<p>دع زمانا مضى وعدبى للأرض بين ييذاء روعت ووهاد وفجوم مثل الحباب على الكاس قيل ماذا تريد من هذه الأرض قلت والله غير أحمد مالى ياحبيبي رضاك دنيا ودين نفحتنى بنوركم نعمة الخير ياجميلا ما مثله من جنيل أنت للكون مبدأ واتهاء اول النور فى الحياة وان جئت انما الكون منك كالصدف أنت سر الحياة بل سيد الكون انما أنت مصدر النور من ربى مدح خير الورى أحب لنفسى بل ومنى ومن جميع البرايا</p>
--	---

وقد سئل رضى الله عنه أن يرتجل على البيت الآتى فجاء الهامه بالعجب العاجب ، الذى ألهم القلوب بالشوق لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك البيت هو :

المصطفى ما زال يعلو قدره حتى غدا فى الكون مسكا عاطرا

فكان مما ألهمه الله على الفور :

المصطفى مازال يعلو قدره	فسما الزمان أوائلًا وأواخرًا
طهر فؤادك من شوائب غيه	حتى تقابله فؤادا طاهرا
ياسيدى ولقد غدوت مناجيا	عمري وبت مع الجلال مسامرا
كم من صغير جاء حيك تائبًا	أضحى يسود من الرجال أكابرا
لم أنس أيام الطفولة حيشما	كنت المؤمل لى وكنت الظافرا
فاذا نهلت نهلت من نور الهدى	واذا سكرت سكرت علما زاخرا
واذا غفوت غفوت صبا مغرما	واذا أفقت رأيت لى ناظرا
أنا ان اكن جسما بعيدا انما	روحى من النجوى تفيض سرائرا
لم انس حبك ما حيت وان أمت	أجد الغرام على مد منابرا
أنا هائم ومن المحبة هائج	كالريح قد أزجي السحاب الماطرا
فأصب في الاحساس من مهج الورى	حكما ت قلبها القلوب مزاهرا
أنا كل شىء فى الحياة تركته	ووقفت نفسى للنبي مشابرا
والوقف لا يشرى وليس يباع فى	حال يدوم الى القيامة حاضرا
أنا باسمكم والى اسمكم ولوسمكم	فى رسمكم قلبى على الشعرى سرى

ولم يتمالك السامعون أعصابهم حين سمعوا هذا البيت الأخير فهبوا واقفين وهتفوا هتاف الإعجاب ونظرت الى وجه الشيخ فوجدته استدار كوجه القمر ، وكأنه كسى نورا من الأنوار النبوية التى وصفها سيدنا حسان ابن ثابت الانصارى رضى الله عنه (وهو شاعر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى قوله :

لما نظرت الى أنواره سطعت	وضعت من خيفتى كفى على بصرى
خوفا على بصرى من حسن صورته	فلست أنظره الا على قدر
روح من النور فى جسم من القمر	كحلية نسجت فى الانجم الزهر

اللهم اجعلنا يا مولانا ممن أحببتهم وأحبوك وجعلت علامة حبهم لك اتباع رسولك الأمين صلى الله عليه وسلم فى قولك الكريم (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) .

فصل السادة آل البيت الأكرام والتبرك: ٣٣

— ٩ —

« أما عن تخيركم الإقامة في حى السيدة زينب ، فانها نعمت الخيرة ، ونعمت الجيرة ، وهل تكون جيرة أحق من تلك الجيرة ، جيرة أهل البيت ولك حق الجوار : الرحمة والبركة واستدرار الخير من الرحمن الرحيم ، الذى يكرم آل البيت ، ويكرم من يجاورهم ومن جاور السعيد يسعد ، فنعم ما فعلت . »

هذه لفظة كريمة من شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه يرينى فيها ، على محبة سادتى آل البيت والتبرك بهم ، ويعلمنى أن التبرك بهم ليس من الاشرار بالله كما يفهم بعض المغالين بل هو استدرار الخير من الرحمن الرحيم ، الذى أكرم آل البيت ، بأن جعلهم فى الدنيا فروع الشجرة المحمدية النامية ، ذات الظل الظليل ، والثمر الناضج الأصيل وفى الآخرة ورثة الجنة والسلسيل ، فمن استظل بهم تمتع بعطاء الله لهم فهم القوم لا يشقى جليسهم ، وكيف يشقى بهم جليسهم وهم أمان لأهل الأرض يهدون من الضلال ، ويعصمون من الفتن ، وانعامهم على جيرانهم ، من انعام الله عليهم وقد قال تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « واذا تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله » ، والمنعم واحد سبحانه ، لكنه تعالى جعل الانعام بأسبابه ، فمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان سببا فى اسلام زيد ، وفى زواجه من السيدة زينب القرشية ، وفى عتقه من الرق ، فلاتنافى بين انعام مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين التوحيد ، بل هو التوحيد بعينه لأن العلم بأن الأسباب لا تغنى وحدها عن المسبب ، هو عين التوحيد ، فان علم الانسان منا بأن والديه هما سبب وجوده فى هذه الدنيا ليس معناه أنهما هما الخالقان ، بل الله وحده سبحانه هو الخالق ، وقد جاءت الشبهة

للمغاليين من ظنهم أن المؤمنين يخلطون بين الأسباب ومسبباتها خلط
الشرك ، وليس هذا صحيحا ، بل الصحيح أنهم بحب الله ورسوله أحبوا
آل البيت ، وباكرام الله لهم أكرمواهم ، وبركات الله التي تجرى عليهم من
ربهم ، تبركوا بهم ، الوحدانية لله وحده ، والعطاء عطاؤه ، والبركة منه
والوسائل بينه وبين عباده قامت بتدبيره تعالى وإرادته ، فخطب عباده على
أسنة الرسل عليهم صلوات الله ، وفرض صلاة الجنازة ، ليشفع البعض
فى البعض ، وجعل الملائكة مستغفرين للذين آمنوا ، ليكون استغفارهم
وسيلة لمغفرته تعالى ، وأمر الخضر عليه السلام أن يقيم الجدار ، ليحفظ
الصالح الذى مات فى ذريته الضعاف ، ولا شك أن مولانا رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، أولى بأن يحفظه الله فى ذريته بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى
من ذلك الرجل الصالح ، وكيف لا يتشدد آل البيت به صلى الله عليه وسلم
وقد صرف الله العذاب عن أعدائه بوجوده بينهم فقال تعالى « وما كان الله
ليعذبهم وأنت فيهم » ولا يخفى أن آل البيت جمعوا الى شرف النسب ،
شرف العمل ، فصاروا أئمة الهدى فى كل جيل ، والله يختص برحمته من
يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وانما حملنى على التمهيد المتقدم ما عمد اليه بعض المغالين من تكفير
زائرى السادة آل البيت أو الداعين ربهم فى رحابهم ، أو المتبركين بهم ،
وفى الزائرين علماء أجلاء وصالحون أتقياء ، وأئمة يقتدى بهم ، وينتفع
بصحبته .

وواجب على المسلمين أن يحموا عقيدة التوحيد من أى زيغ أو
شطط ، وكل مسلم بحمد الله يشهد فى كل تشهد ، بأن مولانا رسول الله
صلى الله عليه وسلم هو عبد الله ورسوله ، فاذا كانوا لم يشركوه صلى الله
عليه وسلم مع الله ، فكيف يقال أنهم أشركوا أولياء الله مع الله ، حاشا وكلا ،
فذلك ليس من الحقيقة فى شىء ، واذا كنا نسمع من الجاهلين كلمات
موهمة فلنعلمهم آداب الزيارة ولا نكفرهم ، والله مطلع على النيات ولا
يأخذ عباده بظواهر الألفاظ — أليست تراه تعالى يقول « لا يؤاخذكم الله
باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » .

وثعال معى أيها القارىء الكريم ، أسمعك كلمات ملييات طاهرات ،
شدا بها أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه اذيقول
فى سادتى آل البيت من درره وقد سئل أن يرتجل على البيت الآتى :
بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا وانهم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا
فقال الهاما على الفور من عطاء الله تعالى :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا بهم نلت الخير دنيائى والأخرى
لقد غرسونى من زهيسور رياضهم فطابت حياتى من مكارمهم زهرا
إذا قيل لى تهوامو قلت ملكهم ووقف يمين لا يباع ولا يشرى
ولو أن جود العالمين أقيسه على جودهم يوما لما مثل العشرا
تساموا على كل الأنام فضائلا وقد بين القرآن أوصافهم طهرا
جداول من بحر النبى محمد فما مثلها تلقى جداول أو بحرا
لقد شهدت روحى حماهم ومتعت بأنوارهم أنعم بها منة كبرى
إذا عشيت عيني فطى جوانحى عيون ترينى سر أنوارهم جهرا
وكم عاذل لى قال كيف تحبهم وكيف لهم تسعى وقد غيوا قبرا
وعينا من القرآن آية هل أتى صفا سعيهم لله واستوجب الشكرا
فان كان ذنبى أن قلبى يحبهم فان ذنوبى لن تلم بها حصرا
وعندى يقين أن لى باتباعهم حياة محب باسمهم كسب الأجر
وما أحسن الدنيا على صديق ودهم وما أحسن الأخرى لتابعهم ذخرا
وها أنا مشتاق اليهم وسائر على حبهم أفقت سعيى والعمر
إذا اتصلت روحى بهم فى مسيرها تفوز باكرام وتسعد بالبشرى
أحب وأستجدى وأهوى وأهتدى ولى لذة فى مدحهم تثلج الصدر
إذا نظرونى زال من قلبى الأسى وان منحونى عشت أغترف الخيرا
على بابهم أسمو سمو أولى النهى فان هم رضوانفسى فقد عظمت قدرا

واقرا أيها الأخ الكريم حسن تعليله فى ارتياد ديارهم لأنها ديار
التجلى على أصفاء عباده ، فيكسب المحب زيادة فى يقينه من عند أهل
التجلى — فيقول رضى الله عنه من كلام طويل :

دعوني أمجد آل بيت محمد
هو سندی الأسمى هو مدد العلى
دعوني فى حب الحسين وجده
أتعذلى فى الحب والحب نعمة
إذا كان حبي سبط أحمد بدعة
ولست بنساء عن هواهم لأننى
وقد طال بى وجدى ولذلى الجوى
فيأمانحى روح اليقين وموردى
تجلت لى الأفراح وهى شواهد

فانهو نورى وأصل تعبدى
هو قوة التقوى هو شمس موردى
أشاهد من عليائهم كل مشهد
إذا ذاقها المشتاق لم يتيسر
فانى بتلك البدعة العمر مقتدى
عرفت بهم ربى فهم أصل معمدى
فقلبى قلب العاشق المتوقد
ديار التجلى أنت لى خير مرشد
ودانت لى الأرواح والكل قد هدى

وفى الوقت ذاته يرشد الى التعلق بالله وتوحيده سبحانه فيقول :

أخى لا تغرنك الحياة وزيفها
ودونك أيام أمامك غيرها
وحاضرك اقرنه بماضيك عبرة
سريرتك احفظها لربك وحده
واقبل على مولاك يقبل بفضلله

فما هى حظ الناسك المتزهده
فان زال عنك الأمل فانظر الى الغد
ونفسك عودها الحساب لتتهدى
فان ثقاء القلب أصل التبعده
عليك ووجه نحوه القلب تحمد

وأنت ترى من ارشاده أن حب آل البيت لا ينافى توحيد الله وأن
حب آل البيت والاهتداء بمسلكهم لله ، والتشبه بهم فى ايثار الله تعالى
على ما سواه ، من وسائل تنقية السريرة لله سبحانه ، وتعليل ذلك ، انهم
رضوان الله عليهم اتبعوا جدهم المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وتأسوا
به عن صدق طوية ، وعلو همة ، فتخلقوا بأخلاقه ، وتحلوا بأحواله ،
واستثاروا بنوره ، وليس وراء نور النبوة نور يستضاء به على وجه
الأرض ، فالمتدى بهم انما يقتدى بنواب مولانا رسول الله صلى الله عليه
وسلم فى الدعوة الى الله فهو اقتداء به صلى الله عليه وسلم .

وقد قال تعالى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ويغفر
لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » وقد ورد فى الحديث الشريف (أحبوا الله

لما يفضوكم من نعمة وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي)
 ويعجبني ما يقوله سيدى محبى الدين بن عربى :
 أرى حب أهل البيت عندى فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربا
 فما اختار خير الخلق منا جزاءه على هديه الا المودة فى القربى
 وهو يشير الى قوله تعالى « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى
 القربى » .

واقراً يا أخى ، ومتع نفسك ، بما وصفهم به الامام على كرم الله وجهه
 حين قال فى سادتنا آل البيت بحق : « هم عيش العلم وموت الجهل ،
 يخبركم حلهم عن علمهم وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكم منطقهم ،
 لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، هم دعائم الاسلام ، ولوائج الاعتصام
 بهم عاد الحق الى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسافه عن
 منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، الا عقل سماع ورواية ، فان رواة
 العلم كثير ورعاه قليل » .

اللهم انا نحب سادتنا آل البيت بحبك لهم ، وعلامة حبك ألك اخترتهم
 على علم ، وأذهبت عنهم الرجس فخافوك وطهرتهم تطهيراً فأحبوك ،
 سبحانه لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، وقد أوردتهم فيما اخترت
 لهم ، وأنت الفعال لما تريد ، فانك القائل حقاً وصداقاً « انما يريد الله ليذهب
 عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ونسألك يا الهى أن تقبل
 توبتنا وتغسل حوبتنا ، وأن تحشرنا فى زمرة تحت لواء سيد المرسلين ،
 صلى الله عليه وسلم ، فيشملنا قولك الكريم •

« يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر
 عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى
 الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون
 ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا اناك على كل شىء قدير » •

اتخاذ الأسباب لا ينافي التفويض لله تعالى

— ١٠ —

أما هذه المسألة التي أخبرتموني بها فلها ظروفها ، والله هو المدبر ، فليس لنا من الأمر من شيء ، إنما هي آمال ولو اطلع أحدكم على الغيب لاختار الواقع ، واختار الله لنا خير مما نختاره ، إنما هي أسباب يدفع الله في قلوبنا طلب اتخاذها لينفذ أمره .

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المطالب وجهني شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه فى العبارة المتقدمة الى مبادئ أساسية فى التصوف هى :

١ - التفويض لله والرضا بالمقدور واتخاذ الأسباب المشروعة مع التفويض لله فى النتائج .

أما عن التفويض لله فهو من علامات تقوى المؤمن وإذا بلغ المؤمن مقام اليقين بالله أيقن أن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه ، وقد علمنا القرآن الكريم فيما علمنا « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » لذلك وجب التفويض للعليم الخبير الذى يضع الأمور مواضعها لعلمه بما كان وما يكون ، والغائب عنا بالحجاب ظاهر له سبحانه وتعالى ، اذ لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

وقد يجيبنا الله الى ما نسمى له ، وقد يفوته علينا ويأتينا بغيره ، ويجب على المؤمن الرضا فى الحالتين مع الصبر على ما فات فى الحالة الثانية .

أما الرضا بالمقدور فهو عند السادة الصوفية من مقامات اليقين ، حتى أنهم قالوا اذا خيرك الله فى شيء فإياك أن تختار ، وفر من اختيارك

الى اختياره فانك جاهل بالعواقب، والصبر على ما فات من علامات الرضا بالمقدور ، كما قالوا الرضا بالمقدور نعم الوسيلة الى درجات المعرفة .

ويروى السادة الصوفية فى هذا المجال أن سيدنا داود عليه السلام نصح ابنه سيدنا سليمان عليه السلام فقال له « يا بنى انما يستدل على تقوى الرجل بثلاث ، حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات » .

أما الأسباب عند السادة الصوفية فيرون اتخاذها ولا يرونها متنافية مع التفويض ، ومن أقوالهم فى التكسب والتوكل : الكسب سنة الرسول وهو عبادة ، والتوكل حال الرسول وهو عبودية ، فهما يتلازمان ولا يتنافيان وقد قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي حين سأله أيعقل ناقسه أو يتركها ويتوكل على الله ؟ « اعقلها وتوكل » .

وغاية الأمر عندهم أنهم يوجهون المؤمن الى الاعتماد على الله تعالى فى الرزق ، فلا يرون الأسباب الا وسيلة من وسائل عطاءه سبحانه ، وليست هى الرازقة ، والسلاح يعد لقتال الأعداء بأمر الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولا يتنافى ذلك مع اعتقاد أن النصر من عند الله .

وهم يفوضون كذلك فى نوع الأسباب ويرون أن الله تعالى هو المدير والموجه فيها والدافع اليها ليتم الأمر على ما أراد ومن ثم لا يحسدون أحدا على ما آتاه الله من فضله ففى الحسد سخط بالحال على المقدور ، واعتراض على تقدير العزيز العليم وان لم يتحرك اللسان بالمقال .

وقد وقع فى ذلك المقام حوار طريف بين الامام أبو القاسم الجنيد وتلاميذه حين قالوا له أين نطلب الرزق ؟ فقال : ان علمتم موضعه فاطلبوه قالوا : نسأل الله فيعطينا ، قال : ان علمتم أنه ينسأكم فذكروه . قالوا : ندخل البيت ونتوكل على الله ، قال : التجربة مع الله شك خطر . قالوا : ما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وهو لا يقصد بترك الحيلة ترك الأسباب انما يقصد به ترك آلام التفكير الطويل الحزين الذى ينتاب أكثر الناس قلقلًا على أرزاقهم وأرزاق

ذرائعهم ، ومن أروع ما قرأت لهم من الحكم قولهم : كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا غير مدبر ، مزوقا من حيث لا تحتسب ، أى انهم يقولون كيف يتكدر خاطرك من هم الرزق ، وقد رزقك وأنت جنين فى بطن أمك دون عناء فى تفكير أو تدبير ، فكيف يتخلى عنك بعد أن كبرت ، وكيف يتخلى عنك ولا رازق سواه ، وقد ضمن الرزق لعباده لئلا يشغلهم الرزق عن الرازق .

وإذا تكلم السادة الصوفية عن الزهد فانهم لا يقصدون به العزوف عن الطيبات التى أحلها الله تعالى ، انما يقصدون بالزهد معانى رفيعة تدل على صفاء مواجيدهم ، فهم يقولون : الزهد هو الرضا بالموجود والصبر على المفقود عملا بقوله تعالى « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

فكسب العيش محمود عندهم ، لكنهم يحذرون من الافتتان بسعة الرزق لأن الافتتان به غفلة عن الآخرة ، ولا يصح للعاقل أن يجتهد فى كسب الفانى ولا يجتهد فى كسب الباقي ويقول العارف بالله سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه « اجتهدك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة فيك » .

وفى هذا المقام أرانى مضطرا لأن أسجل رسالة للمربى الكبير وأستاذ الأستاذين السيد العميد محمد حمدي ، أول عمداء كلية التجارة وفخر التجاريين ، وقد تشرفت بالتخرج على يديه ، وان كانت قد تعرضت بالثناء على بحسن ظنه فى ، لكنها تضمنت معانى جلية فى مضمار التصوف والزهد .

وقد جاءتنبى رسالته تلك بعد أن تفضل بالاطلاع على بعض محاضرات لى فى التصوف ، ولست أركى الرسالة فى بلاغتها ، لأنه مد الله فى عمره وبارك له فى عمله كفانى أمر التزكية بما عهد فيه من رسوخ فى العلم ورقى فى أسلوب الكتابة والخطابة ، باللغة العربية والأجنبية .

وها هي ذى رسالته :

مصر الجديدة فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٦٥ ..

عزيزى الحسن الكامل التقى النقى بوركت تالله انى لسعيد سعيد
فى الدنيا والآخرة لأنك بهذا الصفاء الربانى ، صفاء السيرة والسريرة ،
كذلك وبهذا العزوف عن كروب الدنيا الدنية ، والاقبال على فيحات الآخرة
الرضية ، قد وصلت الى السماء الأعلى عند غاية المنتهى •

فيا عجبا كيف بدأت وثابرت حتى وصلت الى أن تمى بقلب طاهر
ونفس مطهرة ، كل ما تحاضرننا به من الآيات البينات ، والروحانيات
السمات ، فأنى لك هذا الملتقى ، وكيف يمكن أن تصل بى مما علمت
رشدا ، وأن تدخلنى مدخل صدق فى هذا النور الالهى الذى تتعشقه
والذى لا أكاد أدركه من محاضراتك ملففا فى كلام وأقوال وأحاديث
وآيات لا أستطيع أن شق اليه طريقى على بصيرة •

لقد أصبحت أتمنى لو أراك رأى العين ، لأجتلى من محياك ذياك
النور الذى تحكيه ، أو أجد القبس الذى يهدينى سواء السبيل ، لأنى
وأنا فى هذه السن المتأخرة والمتطلعة ، وقد نيفت على الثمانين
— وبلغتها — لا يمكن لى أن أخلى نفسى من هموم الدنيا وأوضارها ،
لكى أفرغ وأنصب وأرغب ، الى ربى الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو
يطعمنى ويسقن ، واذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميئتنى ثم يحيين ،
والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين •

كيف أخلع وشاح الدنيا ، وأتسربل بسرابيل التقوى والصلاح ،
متجردا الى الله وحده •

سمع الناس براهب تضرب الأمثال بورعه وزهده ، فتاقت نفس الى
رؤياه ، فسعى جاهدا الى لقياء ، فلما وصل الى موطنه ، وجده يقطن قصرا
فخما ، تحفه حديقة فيحاء غناء فلما شق طريقه فى الدار بين أثاث ورى ،
وجده يقبع فى زاوية منكرة على كرسيه ، فى رداءه الخشن ، منتعلا حذاءه
النحيف فهبط الرجل باهتا لا ينبس ببنت شفة ، حتى ابسّم له الراهب
قائلا :

لا تعجب يا بنى ، فليس الزهد فى العدم ، وانما الزهد أن تجرد نفسك مما تملك ، أو صحيح هذا ؟ أهو ممكن ؟ جمعنا الله فى أسعد الأوقات .

اتتمت الرسالة الكريمة ، وقد ضمنت ردى على تلك الرسالة الكريمة ما قالت السادة الصوفية فى الزهد فى مذاق آخر : « ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك » ودلوا على صحته بموقف أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقد ملك المشارق والمغرب وكانوا فى زمانه يبحثون عن يستحق الزكاة فلا يجدونه ، حيث عم الرخاء ، ومع ذلك زهد فى عيشته ، ورضى منها البساطة حتى لقد روى أن الامام الحسن البصرى وقد ضيفا عليه فأخرج له خبزا واداما يسيرا وقال له : كل يا حسن فانا فى زمن لا يتسع الحلال فيه لأكثر من هذا .

وينهى السادة الصوفية عن المعجز والبطالة ، لأنهم يتمسكون بأداب الشرع الشريف ، وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وقد كان للسادة الصحابة وهم سادة الأتقياء ، تجارة أشير اليها فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة فى مثل قوله تعالى « علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقروا ما تيسر منه » فصار التجار قرناء للمقاتلين فى سبيل الله .

ومن طريف ما قرأته فى استبصار السادة الصوفية ، أن أحد ملوك الفرس سأل أحدهم : لماذا يرزق الأحمق ويحرم العاقل ، فأجاب الصوفى : دل الصانع بذلك على نفسه — ويقصد أن الرزق عن تقدير من الله العزيز الحكيم وليست الأسباب هى الجالبة له ، وانما هى تعرض لعطاء الله الذى تعبد بهم بها فى سبيل الله ، وعلينا أن ننبذ الأدعياء الذين يتريون بزي الصوفية كذبا ، لنوجههم الى ضرورة التكسب من الأبواب الشريفة ، فخير ما يأكل المرء من كسب يده ، والسعى على العيش عبادة من أجل العبادات

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة — كما كان يقول : كنت أرى الشاب فيعجبني منظره فإذا قيل لي لا حرفة له سقط من عيني .

والقول الفصل في موقف السادة الصوفية من الأسباب والتوكل ما يقوله سيدي ابن عطاء الله صاحب الحكم : انه لا بد لك من الأسباب وجوداً ولا بد لك من الغيبة عنها شهوداً ، فأثبتها من حيث أثبتتها بحكمته ولا تستند اليها لعلمك بأحدثته .

والتفويض والتوكل لا ينافيان حسن التدبير فيما كسب المؤمن من رزق ، فان الله تعالى أرشد في كتابه الكريم ، ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أرشد في سنته ، الى حسن التصرف في الأموال فجعل الله النفقة حصة بين سيئين ، كما عبر أمير المؤمنين الورع عمر بن عبد العزيز مشيراً الى قوله تعالى في وصف عباد الرحمن « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » ، فنهى الله عن سيئة السرف كما نهى عن سيئة التقثير وجعل الاعتدال فضيلة بين الإفراط والتفريط، وكذلك قال حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد » أى لا يتعرض لآلام الفقر من كان معتدلاً في نفقاته .

على أن السادة الصوفية لا يفهمون السرف والتقثير على الوجه الذى نعرفه ، فعندهم أن من أكثر النفقة فى مرضاة الله لا يعد مسرفاً ، ومن أنفق أقل المال فى معصيته تعالى يعد مسرفاً ، وتعليهم فى فهمهم هذا تعليل وجيه ، اذ يقولون أن جمع المال ليس غاية فى ذاته بل هو وسيلة للنفع فما أنفق منه فى وجوه البر ، بقى لصاحبه عند الله ، ألسنت تراه تعالى يقول « ما عندكم ينفذ وما عند الله باق » أما النفقة فى المعصية فتنتطوى على كفران نعمة الله ، فقد أعطى عبده المال ليطيعه فى انفاقه ، ويكون بذلك شاكراً لأنعم الله ، فإذا أنفق فى معصيته فقد بدل نعمة الله كفراناً وقد قال تعالى « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم ان عذابي لشديد » فالشكر عندهم ، كما يقول امامهم أبو القاسم الجنيد ، هو ألا تعصى الله بنعمه .

وكما انهم ينهاون عن انفاق المال فى معصية الله فانهم لا يقرون الغبن فى شراء ما يلزمهم ، والغبن فى نظرهم من السفه اذ يترتب عليه وضع المال فى غير موضعه ، وتروى فى هذه المناسبة رواية طريفة ، فقد قالوا ان الصحابي الجليل الورع عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يهب لبيت المال ما يعجبه من ماله من جياذ أو ابل — ولكنه كان يساوم فى السلعة اذا اشتراها ، فتعجب الناس لأمره وقالوا له ، نراك سخيا بمالك اذا كان لبيت المال ، ونراك تساوم فى دراهم عند الشراء ، فقال فى براعة وفطنة ، ذاك مالى جدت به ، وهذا علقى بخلت به .

ولا يتبرم فقراء الصوفية من ضيق الرزق بل يروونه عطاء من الله ويقولون فى هذا المضمار : اذا منعك لم يمنعك من بخل ، وانما يمنعك رحمة ، فمنع الله عطاء ولكن لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق .

والسادة الصوفية يطمئنون بالله فى كسب أرزاقهم ، وينفقونها فى مرضاته سبحانه ، ويرضون بما أقامهم فيه من بسطة العيش أو ضيقه ، فاذا وسع عليهم شكروا بكثرة العطاء ، واذا ضيق عليهم صبروا على البلاء .

ومن الهام أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل فى أمر الرزق قوله رضى الله عنه :

كفل الله للبسرية رزقا	وتولاهم ثم أسبغ سترا
حينما الدود أسكن الصخر بيتا	أبنت الله فى الصخور الزهرا
تصبح الطير فى الهواء جياعا	يشبع الله بعد ذاك الطيرا

وينهى رضى الله عنه عن سؤال الناس فيقول :

لا تمد اليدين للناس يوما	مدها للعباد بالشرك أخرى
وسؤال العباد شرك خفى	قد حفظنا حين ذقنا السرا
واذا ما اتجهت لله فسردا	نلت يا صاحبى من الله خيرا
حسب الناس مذ رأوني أناجى	فى جلال الرحمن أقرض شعرا
منشدا أبتغى من الناس شيئا	أو أخص المديح زيدا وعمرا
قلت كفوا فليست أقصد الا	وجه ربى وقد وهبت العمرا

فاذا عشت ستر ربي غطائي
ان تكن نشوة الضلوع بخمر
واذا مت لست أعدم قبراً
قد جعلنا هداه للروح خمر
انه ذكرنا وقد سكرنا بنروح
فسكارى ولم نذق بعد سكرنا

وأنت تراه في الآيات المتقدمة ، كاسب عيشه في عفة ، عازفاً عن
سؤال الناس ، ويرى في سؤالهم شركاً خفياً ، ثم هو مع كسب عيشه
الديني كاسب عيشه الأخرى ، ومأنوس بربه فيهما ، فحيا جسده بكسب
دنياه ، وحيت روحه بكسب الباقيات الصالحات التي يقدمها لأخراه ،
وكانت له بكسبها نشوة في الضلوع تشبه نشوة السكر ، ولكن سكره لم
يكن من خمر أهل الدنيا ، بل من خمر أهل الآخرة الذي يقول فيه طيب الله
ثراه :

ان كان سكر الناس من عنب ومن بلح فاني في المحبة أسكر
ويقول أيضاً :

سكرنا لا بخمر يد ولكن بعلم الله مولانا سققينا
ويقول مذكراً بنفع المال في أمر الآخرة ومحذراً الغافلين به عن الله
تعالى :

ألم يك في الدنيا الذي قد جمعه
وما السب إلا للذي زيف الهدى
فيا رائد الدنيا وصولاً لربه
ولا تمدح الدنيا اذا عز عيشها
ولا تجعل الدنيا مرادك وحدها
فان لم تكن بالذكر والفكر ساهرا
وان لم تكن من أهل هذا ولم تكن
فسيرك في الدنيا فجور وعلّة
علام اذن سب الحياة تزاوّل
ومنه على الدنيا ترامت رذائل
لتسعد في الأخرى مرادك كامل
فمادحا للعر في الناس غافل
فمن لم يجرها بالهدى فهو جاهل
وللدين والايمان قلبك ناهل
مع الله في سر وجهه تواصل
وعيشك في الدنيا مجون وباطل

وما أروع قوله رضى الله عنه :

ومهرق وجهه للناس مهما	رأى الاحسان ما عز انتسابا
تمسك بالاله تسد حياة	وتحمد من أياديه الشوابا
فان قالوا اتخذ لك أى جاه	فخذ تقواه جاهك والمآبا
وان قالوا اتخذ لك أى كأس	فخذ من كأس عزته الشرابا

وقوله رضى الله عنه :

قالوا اتخذ لك جاها قلت واعجبى	أغير ربي ايمان وتوحيد
أطوف بالحي صبا فى مكابره	يا رب صب رواء البر والجود
وانما أنا فان فى محبته	لكننى فى كتاب الحب موجود
سارع الى الله معتزا برحمته	فالكل عبد ورب الكل معبود

ألا رحم الله أسلافنا الصالحين ، ومشايخنا المرشدين ، الذين سعدنا
بارشادهم وان قصرت خطانا عن خطاهم ، ولئن اقتفينا آثارهم ، والتزمنا
طريقهم وصلنا الى ما وصلوا اليه من ايثاره تعالى على ماسواه ، فان فعلنا ،
دخلنا معهم فى حماه تحت قوله تعالى « ان عبادى ليس لك عليهم
سلطان » فخلص جهادنا فى سيرنا الى الله فاهتدينا بهداه مصداقا لقوله
الكريم « والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .

الحج والزيارة

— ١١ —

« ولك حجة من بعد عدد معلوم ، وقد يكون بعيدا وتراه قريبا ،
والبعيد قريب والله مجيب » •

لا أستطيع أن أصف فرحى بهذه العبارة التى جاءتنى فى أول رسالة
تلقيتها من شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، فقد كان
فرحا مضاعفا ، فقد فرحت أولا بعطفه على فى ارسال الرسالة بادئا
بالفضل ، وقبل أن أكتب اليه ، فرحت ثانيا بالبشرى التى كانت نفسى
تتحدث بها وأنا فى شرح الشباب ، حين كنت أتطلع للسفر الى الحجاز
للتشرف بالوقوف على قبر حبيبنا المصطفى — صلى الله عليه وسلم —
والتسليم عليه ، وكنت أتصور أن سعادتى لا تتم ، وأن أمورى لا تيسر
الا بتلك الوقفة ، لكنى كنت ناشئا لا أملك مالا كافيا من كسب يدى ،
يمكننى من تأدية فريضة الحج على نفقتى ، وكان والدى — رحمه الله —
على قيد الحياة ، ولم أكن أود أن أحج على نفقته ، فكان الحج من كسب
يدى بعيدا فى خيالى ، على الرغم من شوقى الشديد ، فماذا يجدى مرتبى
الناشئ وكان خمسة عشر جنيها لا تزيد ، وماذا أستطيع أن أدخره منه بعد
نفقاتى الضرورية ، وكان أبى — رضوان الله عليه — يعاوننى فى المعيشة
لقلة المرتب الذى كنت أتقاضاه يومئذ .

وما كدت أقرأ البشرى التى زفها الى الشيخ طيب الله ثراه . حتى
قرب البعيد ، وسهل فى نفسى العسير وقلت لله رجال يرون بالبصائر ما لا
فراه بالأبصار .

وسافرت فى أجازة عيد الفطر الى القرية ، لأقضى أيامها بين والدى وأهلى ، وبدا لى أن أحاضر قومى فى المسجد ، وكان شيخى أمرنى بالتدريس لهم ، فشرح الله صدرى أن أكلهم فى الحج ، الذى تبدأ أشهره من شوال ، وخرج كلامى ممزوجا بالشوق الخفى عندى ، وغلبنى الحماس ، فتأثر القوم ، وما كدت أنهى كلامى ، حتى أقبلوا على مهنئين بالحج ، فقلت لهم وما أدراكم أنى سأحج ، قالوا حماسك فى المحاضرة دلنا على عزمك فقلت فى نفسى :

يا ليتنى والأمانى ربما صدقت أحظى بمعتقد منه وملتزم
ثم ناجيت ربى ، مناجاة خفية ، يا رب أنت الكريم المنان ، وقد جعلت ضيافتك عند البيت الحرام ، فاجعل ضيافتك لى من مصر ، ويسر لى نفقات الحج والزيارة من كسبى ، وأنت تعلم سرى وعلايتى ، لاتخفى عليك من أمرى خافية ، ان كان بى شوق للسفر فأنت مصدره وان كان عبدك فقيرا فأنت ساتره ، والعباد يقترضون ليكرموا الأضياف ، ولست أنت محتاجا لأحد ، وخزائنك مملوءة لا ينقصها العطاء ، فدبر الأمر ويسر السفر ، وعلى الله قصد السبيل . وكان ان عزمت على تقديم الطلب معتمدا على فضله تعالى ، وواتقا به فى توكلى ، وصارحت بعض أهلى وأجابى بما عزمت عليه ، فرغبوا فى صحبتى ، وقدموا طلباتهم معى ، ولكنى لم أكشف لهم حقيقة حالى ، ولا السر الذى بينى وبين ربى .

وكان والدى — رحمه الله — قد سافر الى القاهرة ، فقلت ان اذن سيدى الوالد بسفرى فهى علامة التيسير ، وما كاد رحمه الله يعلم ، وهو بالقاهرة من عمى ، أنى قدمت طلبا للحج ، حتى بادر بالكتابة الى مهنئا بالحج ، وداعيا لى بالتوفيق ، فسررنى ذلك كل السرور .

ثم عدت بعد الأجازة لعملى بالقاهرة ، فأخبرت زميلا لى بعزمى على الحج ، وقلت له سأغيب شهرين ، وسأكتب لك توكيلا لتقبض عنى مرتبى ، وان شئت أخذت منك الآن مرتب الشهرين ، وقبضت أئت المبلغ لنفسك أداء لحقك ، قال سيان عندى ، وقدم لى ثلاثين جنيها على الفور ، وقبضت

شهرًا ثالثًا في صباح اليوم الثاني ، فصار معي خمسة وأربعون جنيها ،
وخيل الى عند ذلك أني حزت ملك سليمان عليه السلام ، حيث تحقق
أملى ، ودبر الله تعالى ويسر لي نفقات الرحلة .

وسافر معي الى السويس المغفور له والدي وأعمامى ، وقدموا لى
جريا على التقاليد ، معاونااتهم المالية ، فامتألت جيوبى ، واذا كانت نفقات
الحج والزيارة لا تزيد عن ثلاثين جنيها ، فقد بقى من مالى الخاص ما
يكفى نفقاتى الضرورية ، وما جاءنى من اعافات جعلته للهدايا والصدقات .

ولا يفوتنى أن أذكر ، انى كنت اطلعت بجريدة الأهرام فى كلمة
« حديث الصيام » على أبيات لشاعر قديم صدر بها مقاله المرحوم الشيخ
التفتازانى ، فحركت أشواقى وأشجاني ، ولعبت بعقلي وروحي ، حتى
كانها سحر ساحر ، ومن المفيد أن أذكر تلك الأبيات وهى :

قف بنا يا سعد نزل ها هنا	دأبيلات النقا موعدا
ان لمع البرق من خيف منى	جدد الوجد وهاج الحزنا
كلما طرز أثواب الدجى	وشيه أحرم عيني الوسنا
وديوار حول بطحا مكة	يأمن الخائف فيها ما جنى
من لعينى أن ترى كمبتها	أو تمس الركن منها الأيمن
آل ذاك البيت انى جاركم	لم يكن جاركمو ممتنها
زاركم صحبى وعنكم عاقنى زمنى	كم ذا ألوم الزمنى
أنا منكم واليكم وبكم	فاذكروا عهدا قديما بيننا

وأقلعت بنا الباخرة من السويس الى جدة ، وعند رابع سمعنا صفيها ،
ايذانا بالاحرام من الميقات ، فاغتسلنا ، وخلعنا المخيط ولبسنا المحيط ،
وعقدنا النية وكان من حالنا ما جاء فى رسالة لأستاذى العارف بالله سيدى
الشيخ عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، كان قد بعث بها لتلميذه
الصالح المبارك حبيب قلوبنا وأرواحنا السيد/ سالم عمر جبعة زاده الله
فضلا ، قال الشيخ لتلميذه فى الرسالة فيما قال له :

« .. وفى اصطلاح هؤلاء القوم قصد الحق مجردين من الشواغل ،
متطهرين من العلال ، مثل من يحج ، فاذا نوى الحج ، خلعت كل نية تكون
غير نيته الحج الى الله ، والوقوف بين يديه ، خاليا من كل الشوائب .
فاذا نزع لباسه تجرد من كل شيء ، فاذا تطهر زالت عنه كل علة ،
فاذا لبى سمع بقلبه جواب التلبية ، فتلذذ بالنداء ، فاذا دخل الحرم ترك
كل محرم ، فاذا أشرف على مكة ، أشرف عليه حال من الحق ، وعلامته
البكاء ، لأن الملائكة تحفه . »

« فاذا دخل المسجد دخل فى قرب من الله سبحانه وتعالى ، فخضع
وطاف ورمى هاربا من الدنيا ، ورجع وسكر ، فركع بعد أن صافح الحق
بمصافحة الحجر ، كما ورد فى الأثر ، فظهر عليه الأثر ، ومن ظهر عليه
الأثر نال الرضا ، واستشعر أنه تحت العجز عرف واعترف ، وترك أمره
لله ، وصفا له الحال ، واقتفر من الدنيا مالا وعلما وعملا واغتنى بالمآل ،
مآل الخادم عند مولاه ، يصيره كيف يشاء ، ويضعه فى مكانه كما شاء ،
ويجعله من خدامه والله رؤوف رحيم ، فمن عرف القوم وسار بسيرهم نجا ،
وكان من شدة الخوف كثير الرجا . »

واستشعار العبودية الذى يوجهنا اليه سيدى الشيخ فى كلامه
المتقدم ، يذكرنى بما وقع لى يوما عند الملزم حيث تعلقت بالبيت لاجئا
داعيا ، فتذكرت من الهام أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل قوله رضى
الله عنه :

انى على أعقابكم	لم أرض غير الحب مشرب
حررتى رق لكم	وهى المقام وذاك أقرب
وأدلتى أنى ضعیف	والضعيف عليك يحسب
قالوا بأنك لم تكن	فيمّا تقرره منسب
فأجبتهم أنا نسبتى	عبد على الأبواب أحسب

وكلامه رضى الله عنه فى ذلك المضمار معروف لأحبائه وما أبدع

قوله :

إذا رابنى ذنبى دعتى مجبى
فيارب ان زادت ذنوبى فانى
تركت الورى دونى وجئتكَ مفردا
وطهرت فى نجواك سر جوانى
رضاء الفتى بالله يشرح صدره
فما أنا فى نفسى أميل لغيره
صعاب الهوى كلقتها وحملتها
فان كان ذنبى مبعدى عنك لحظة
وان كان لى مما فعلت جريمة
وما لذتى الا التجائى لوجهكم
سهام الهوى لم تشنى عن رحابكم
وكيف أهاب الصعب أو أرهب السرى
وغفلة قلب المرء بعد وحسرة
لقد ذل فى يوم القيامة غافل
ودنياك أرض لو بذرت بها الهدى
ونحن أولو علم ولكن بوجدنا
فكنا بفيض الله خير أئمة
ولما تدانينا ولاحت دياره
هتفت بحبى دم لربك وحده

اليه وما تشنى الذنوب عن الحب
وثقت بأن الفضل أوسع من عيبى
فلم يك غير الله فى السمع والقلب
فخلصتها من عالم البعد والحجب
فلن يتأذى بالحوادث والخطب
أراقب ربى فى الشهادة والغيب
وكنت أنا المعروف بالواجد الصب
فانك غفار الذنوب بلا ريب
فحوضك لى طهرى وفضلك لى طبى
فوجهكمو دون العوالم لى قطبى
ولو أئنى منها على مركب صعب
ومن نام لا يرقى الى مشهد القرب
فما نال عقبى ربه غافل القلب
تأخر فى يوم الجهاد عن الركب
حمدت أوان الحصد سائلة الحب
شربنا من الأنوار ما ليس بالشرب
لنا نوره يهدى من الزينج والعجب
وقد جذبتنا نحوها أيما جذب
وأخرج جميع الكائنات من القلب

وبعد أن قضينا مناسك الحج ، شددنا الرحال للمدينة المنورة ، حيث
الكرم الشريف ، وقبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ووجدنا من
نفوسنا فى السير اليها لهفة الشوق ، ومواجد العشاق ، وما كدنا فحط
الرحال ، حتى اغتسلنا ولبسنا أفخر ثيابنا ، وقصدنا الحرم ، فأدينا تحية
المسجد وأدينا الزيارة التى تمت بها السعادة ، والحق انها كانت لحظة

خالدة ، تلك التى صدقت فيها أمنيته ، لوقتئى السعيدة بين يديه صلى الله عليه وسلم : بعد أن كانت روحى تحوم حول الحمى من بعيد كما يقول المرحوم الشاعر الكبير اسماعيل صبرى :

روحى على بعض دور الحى حائمة كظامىء الطير اذ يهفو على الماء
ما أسعدها من لحظة ، قال فيها على لسانى ، وفى زيارة لاحقة ، صديقى
الأديب اللامع الأستاذ محمد جاد الرب أكرمه الله :

لقد عدنا وكان العود أحمد سلاما يا مقرب يا مؤيد
سعيد من يحبك من بعيد ومن يسعى لبابك كان أسعد
فجد بالوصل للمشتاق فضلا فأنت من السحاب الجود أجود
وصل عليه يا ربى وسلم ووفق كل مشتاق ليشهد

أما صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان فقال لى ، مهنتا فى عودة
من زيارة أخرى :

بالله كيف شهدت أنوار الحمى تشفى برآها الحب المفرما
ودخلت من باب السلام على الذى صلى عليه ذو الجلال وسلاما
وسعدت يا حسن الرضا برحابه فبلغت تكريما وعدت مكرما
ووقفت بين الصاحبين تخشعا وكأنما القمران فيض منهما
فى باب جبريل ومهبط وحيه يجد الدعاء الى الاجابة سلما
ورأيت جنات البقيع فواضرا تختال أجداثا وتشرق أعظما
أصغيت فى أحد الى شهدائه قد كاد حمزة فيه أن يتكلما
جمعتهم الفردوس تحت ظلالها بالسفح أقمارا تضىء وأنجما

وفى هذه المناسبة أمتنع السادة القراء ، ببعض من كلام طويل ، جرى
به الهام السيدة عائشة الباعونية الدمشقية ، رحمها الله ، وهى تتشوق
لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكلام ينم عن جذب شديد .

حى عنى الحى من آل لوى
 صف لهم ما قد جرى من مقلتى
 فى سقام قد طوانى أى طى
 وأرى فوق ثراه شفتى
 جنة العشاق كلتا وجنتى
 ما لقلبي عن هيامى فيك لى
 خاطري والحال احدى حجتى
 يا حبيب الله يا ساقى الحمى
 وكفى ما قد جرى من محجرى
 يبلوغ السؤل من مرأى ورى
 وبلوغ القصص منه فى بنى
 لذوى القربى ومن أسدى الى
 مدنى فى مدحك ما قلت شى
 بسلام يملأ الأرجا شذى
 هيح الشوق بريق من كدى
 هى هيا للمليح الحى هى

سعد ان جئت ثنيات اللوى
 وأجر ذكرى فاذا اصغوا له
 وبشرح الحال فانشر ما انطوى
 من لعينى أن تشاهد حسنه
 وأعفر فى ثرى أعتابه
 يا رسول الله يا خير الورى
 ليس يخلو منك يا كل المنى
 يا حياة الروح يا رى الظما
 مسنى جذب وقد لظ الظما
 فتداركنى وكن لى شافعا
 وبتحقيق الرجا من فضله
 ووفى مغفرة شاملة
 قلت ما قلت ولو لا فيضكم
 عليك الله صلى متحفنا
 وعلى آل وضج كلمنا
 وشدا الحادى لصب قد صبا

وهكذا حقق الله لى البشرى ، التى زفها لى سيدى الشيخ ، رضى الله
 عنه ، وكنت أرى الحج بعيدا فرأيته قريبا كما قال فى الهامه ، الذى صدرت
 به المقال ، « وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب . »

هو عب النفس، وضرره

— ١٢ —

دخلت ذات يوم على العارف بالله شيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى ،
 قدس الله سره ، فوجدت بين يديه رقعتين ، كتبهما بيده المباركة ، احدهما
 عن النفس ، والأخرى عن الروح ، فلما قرأتها ، عجبت من المنازل التى
 عددها — رضى الله عنه — للنفس والروح ، وفهمت غوامض المنازل من
 شرح خطه قلمه على كل رقعة فى ايجاز مفيد ، فرجوته — رضى الله عنه —
 أن يسمح لى بأخذ الرقعتين ، فتفضل وأذن ، وهما محفوظتان عندى مع
 رسائله الكريمة .

قال — رضى الله عنه — فى منازل النفس .

« النفس اذا سبحت عميت ، فان عميت غفلت ، فاذا غفلت شردت ،
 فان شردت بدأت ، فان بدأت دأبت ، فان دأبت نأت ، فان نأت شربت ،
 فان شربت سكرت ، فان سكرت طربت ، فان طربت طارت ، فان طارت
 سارت ، فان سارت فاحت ، فان فاحت ناحت ، فان ناحت شكت ، فان
 شكت أوبقت ، فان أوبقت باءت ، فان باءت شطحت ، فان شطحت نطحت ،
 فان نطحت جرحت ، فان جرحت أدمت ، فان أدمت قتلت ، فان قتلت
 أجمت ، فان أجمت طغت ، فان طغت بغت ، فان بغت آثرت ، فان آثرت
 هزمت ، فان هزمت صاحت ، فان صاحت راحت ، فان راحت وقعت ، فان
 وقعت فطنت ، فان فطنت ندمت ، « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان
 الجحيم هى المأوى » .

أما تفسيره — رضى الله عنه — فقد قال فيه : النفس اذا سبحت
 فى الدنيا فقد عميت عن الآخرة ، فان عميت غفلت عن ذكر الله ، فان غفلت
 شردت عن الحق ، فان شردت بدأت فى الشر ، وطلب الدنيا ، فان بدأت

دأبت زادت في الطلب ، فان دأبت ثلثت عن الخير ، فان نأت شربت شراب
الهالكين ، فان شربت سكرت بحب الدنيا ، فان سكرت طربت باللهو ،
فان طربت طارت الى المهاوى ، فان طارت صارت الى حيث لا يعلم مصيرها ،
فان سارت فاحت أعمالها ، فان فاحت ناحت من الخسران ، فان ناحت شكت
مما حل بها ، فان شكت أوبقت غيرها ، فان أوبقت باءت بالخسران ، فان
باءت شطحت أى تخبطت ، فان تخبطت نطحت لعدم اعتدائها ، فان جرحت
أدمت النفوس ، فان أدمت قتلت غيرها ، فان قتلت أجمرت ، فان أجمرت
طغت ، فان طغت بغت ، وان بغت آثرت الحياة الدنيا ، فان آثرت بعدت
عنها العاقبة ، فان هزمت صاحت من خسران العاقبة ، فان صاحت راحت
تلقى حتفها ، فان راحت وقعت في الحساب ، فان وقعت فطنت النفس الى
ظلمها ، فان فطنت ندمت حيث لا ينفع الندم .

واقراً يا أخى بعد ذلك تحليل أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل
— رضى الله عنه — لمسلك النفس فى ركونها الى زخرف الدنيا وغفلتها
فيها ، وكان بعض الحاضرين قد طلب اليه أن يرتجل من الهامه الفورى على
قول القائل :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به دون الذى تعلو به فى ذاتها
فأجاب — رضى الله عنه — فوراً من عطاء الله والهامه :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به	كم عالم قد زل من نزعاتها
تنأى عن الاصلاح طول حياتها	وتواصل الاقبال فى شهواتها
تدعى لتأدية الصلاة وانما	شغلت بغير الله حين صلاتها
وقفت على الدينار حسن بلائها	فأمالها عن هديها وهداتها
قد رحبت بالسيئات مريضة	وتضج ان دعيت الى حسناتها
والنفس أعدى صاحب تأسى به	قد أدخلتنا النار من رغباتها
ان أنت تنصحها تضل طريقها	واذا تركت غرقت فى حسراتها
جهلت طريق الخير وادعت الهدى	كم تكثر الدعوى على قرباتها
ضحكت على جهالها فتوهموا	أن الملا والفوز فى نزواتها
ظنوا بنفسهم الكمال وانما	تتوافق الجهلاء فى غاياتها

فنحنا مسيلة النبوة وانتهى
والنفس ما برحت تضل وما بها
فازجر لنفسك فى الأمور لعلها
ترضى تسفلها لكل تقيصة

فرعون للتأليه من عثراتها
نور يزيل الظلم من ظلماتها
قد ترزق الأنوار فى سبحاتها
دون الذى تعلو به فى ذاتها

وينبه - رضى الله عنه - الى غفلة المسلمين فى زماننا ، ومسايرتهم
لهوى نفوسهم فى كسر حدود الله ، ونهش أعراض اخوانهم بالغيبة المضرة
التي نهى الله عنها ، فيقول الهاما وارتجالا لوقته :

رفعة النفس بالهداية لكن
اتنا لو فصاب يوما بشيء
واذا كانت الاصابة فى الدين
للرزايا نخاف اما المعاصي
عابد المال فى الرجال كثير
غيبة الناس خير ما فى النوادي
انشأوا النادي المدعم للعلم
يشرب الكأس أو يساجل فى
واذا ما قلت اتركوا الناس قالوا
فسقوا غيرهم لكى يستحلوا
ان سوق العصيان أروج شيء

قل من بالتقى الى الله عائد
حز فى صدورنا المصاب الواحد
فما ضرنا زوال المعابد
فلها دائما أقمنا الموائد
وقليل من كان لله عابد
أصبحت بينها أعز الفرائد
فأمسى وما به غير سامد
النرد وبالذس والوشاية قائد
ليس فى الفسق غيبة لا تعاند
عرض من خالفوا وبئس العوائد
حيث سوق الأخلاق والعلم كاسد

ثم ينصح - رضى الله عنه - المؤمن الصوفى فيقول فى ارشاد
بارع :

أيها الآخذ الطريق اذا ما
لا تخلها من السهولة بالقدر
كن على الحق ما حييت فان

سرت صوب الطريق فادأب وجالد
الذى أنت فيه سار ووارد
مت تناءت بالموت عنك الشدائد

ويعظ المؤمن الصوفى مرة أخرى فيقول - رضى الله عنه :

أخى لا تغرنك الحياة وزيفها
ودونك أيام أمانك غيرها

فما هى حظ الناسك المتزهّد
فان زال عنك الأمن فافطر الى الغد

وحاضر ك اقرنه بماضيك عبرة
سريرتك احفظها لربك وحفده
وأقبل على مولاك يقبل بفضلته
ونفسك عودها الحساب لتتهدى
فان نقاء القلب أصل التعبد
عليك ووجه نحوه القلب تحمد

ثم يبين لنا — رضى الله عنه — ان محبة الله ۞ وذكره تعالى ، والاناة
اليه ، هي الأدوية الناجعة من أمراض النفوس ، فيقول من الهامه :

لذة الحب فى لقاء الحبيب
واذا حلت المحبة قلبنا
أى شىء فى الحياة أحلى وأسمى
ان أكن مخطئاً فربى غفور
طالما أنت فى السريرة يا رباه
أفتدى سدة الحبيب بروحى
لم أخف غيره وان كان قلبى
ان قلبى دون البسرية سرى
ومن الحب لى أجل ثياب
أدب الذكر مهجتي وميولى
أنت يا روحى ان رجعت الى الله
وارجعى باسمه اليه وعيشى
نحن قوم لنا الطريق حياة
وشربنا من حوضها فطربنا
فاحفظونى من العباد فانى
يشرب الناس من عصير ولكن

والتلقى للسقم خير طبيب
سترى كل ما به من عيوب
من تلقى الحبيب بالمحبوب
أو أكن بالضعيف فهو مجيب
لم أخش من وجود الرقيب
قد بدا بالفداء كشف الغيوب
طاول الطود فى تلقى الخطوب
لست أفشى سرى لأى قريب
دق فى وصفه عن التقلب
أدب الذكر أفضل التأديب
ففى حصنه المنع توبى
فى حمائه وبالمحبة ذوبى
قد كتبنا فى روضها المرغوب
وغسلنا بمائها كل حوب
قد رأيت العباد أهل ذنوب
قوة العلم والهدى مشروبو

وقد سئل — رضى الله عنه — أن يرتجل على وزن البيت الآتى :

ستبأشر الغبراء خدك
وسيفحك الباقون بمدك

فجاء الهامه بالمعطات البالغات ومنها :

« ستبأشر الغبراء خدك »
مهما بلغت من العسلا
والى الذبول سقيت وردك
لا تملكن العسر سعدك

فاجعلهُ بين الناس عهدك	المسوت جيق واجب
ونخل ذكر الله وردك	واسلك سبيل الأقدمين
بناب الاله فلن يردك	يا قلب انك ان تـرد
وجعلت حبي فيك وحدك	أنا قد خلوت عن الوري
وتبعت بالايمن جندك	وأخذت ذكرك غايتي
ورفعت بين الناس حبك	وسهرت ليلى بالهدى
وأعلم الأضحاب قصدك	ومشيت أنصح في الملا
بعد الممات يعيد ذكرك	يا قلب مالك غـبيره
كرما وفضلا لن يصدك	أقبل عليه فانه
وانظر لما خللت بعدك	ودع الحيلة اذا دعت
تلقى على الأيام خلدك	مهما أقمت بها فلن
وسيضحك الباقون بعدك	ستزول عنك بصفوها

ويشبه صوفية الفرس الأقدمون نفس الانسان بالذئب ، فان تركها صاحبها في هواها استأسدت فقتلته ، كما يستأسد الذئب الذي يفعل مربية عن شره ، فيتعرض لضربه ، وفي ذلك يقول سعد الشيرازي ، فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية ، صديق العلامة الشيخ الصاوي شعلان :

سمعت بأن امرأ صاد ذئبا	فأولاه عظفا وأصفاه حبا
فلما نما الذئب واستأسدا	بأنسابه مزق السيدا
وقيل لذلك الجريح المصاب	حليف الردي من يربي الذئبا
وتفسك ذئب فحاذر هواها	فان المنايا سرت في منهاها

ويقول امامنا على - كرم الله وجهه - : « ما أنا ونفسي الا كراعي غنم مع غنمه كلما ضمها من جانب شردت من جانب » •

ويقول السادة الصوفية في نصائحهم : ولتحتذر النفس فانها مهلكة
مهلكة ، ومملكة مملكة ، غادرة غير عاذرة ، شاردة للحتوف ، مبادرة ساعية
في تلف الروح ، داعية الى سد باب الفتوح ، فانهج مناهج أهل المجاهدة ،
لتدرج مدارج أهل المشاهدة ، وصاحب بصدق التوجه الروح ، فان معها
الراحة ، وجانب هذه الدابة الجموح فانها تسلب الصفا من الراحة .

ويقول سيدي العارف بالله مصطفى البكري — رضى الله عنه :

شمر ذبول التعامى عنك تشميرا	وعمر القلب بالأذكار تعميرا
واحذر لقرية نفس منك تقريها	فتلك دمرها المحبوب تدميرا
واقرب الى أهل بيت زال رجسهمو	والحب طهرهم من ذاك تطهيرا
قوم لقد عرفوا بالقرب أنفسهم	فصار نافرهم بالله أكسيرا
اذا رأوا ذكر المولى برؤيتهم	اذ نورهم يورث الأحشاء تنويرا

اللهم انا نعوذ بك من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، فخذ بأيدينا
اليك ، ولا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين ، ولا أقل منها ، فانك قلت وقولك
الحق « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » .

الروح في اتصالها بالله تعالى

— ١٣ —

تناول مقالى السابق كلام شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى فى منازل النفس ، والى القراء الاعزاء ما قاله رضى الله عنه فى منازل الروح حتى تصل الى رضوان الله تعالى :

الروح اذا سبحت نظرت ، فان نظرت ذكرت ، فاذا ذكرت بدأت ، فاذا بدأت دأبت ، فان دأبت عرفت ، فان عرفت شربت ، فان شربت شكرت ، فان شكرت سكرت ، فان سكرت طربت ، فان طربت طارت ، فان طارت سارت ، فان سارت باحت ، فان باحت فاحت ، فان فاحت ناحت ، فان ناحت راحت ، فان راحت فاعت ، فان فاعت باعت ، فان باعت تابت ، فان تابت طابت ، فان طابت غابت ، فان غابت فطنت ، فان فطنت عادت ، فان عادت طلبت ، فان طلبت درست ، فان درست علمت ، فان علمت وقفت ، فان وقفت شخصت ، فان شخصت خافت ، فان خافت اطمأنت ، فان اطمأنت لامت ، فان لامت رجعت ، فان رجعت رضيت ، فان رضيت فازت ، فان فازت دخلت ، فان دخلت درجت ، فان درجت عبت ، فان عبت استقرت ، والجنة هى المأوى ، (ولمن خاف مقام ربه جنتان) •

وقد فسر بنفسه رضى الله عنه كلامه فقال : الروح اذا سبحت أى تفكرت نظرت من قول الله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات) فان نظرت ذكرت الصانع ، فاذا ذكرت أسماءه بدأت فى ذكرها ، فاذا بدأت دأبت على الذكر ، فان دأبت عرفت حلاوة الذكر ، فان عرفت شربت شراب الذاكرين ، فان شربت شكرت مولاهما على الهداية ، فان شكرت سكرت من لذة الذكر ، فان سكرت طربت من لذة الاحوال ، فان طربت طارت وجدانا ، فان طارت سارت فى السبيل السوى ، فان سارت باحت بما

يعتريها ، فان باحت فاحت من رائحتها ، فان فاحت فاحت على ما فرط عنها ، فان ناحت راحت تتخبط ، فان راحت فاحت لا تدري ، فان فاحت باحت الى امر الله ، فان باحت ثابت بنعمة الله ، فان ثابت طابت من الذنوب ، فان طابت غابت في سبيل الاستقامة ، فان غابت فطنت لا تميل لغير الله ، فان فطنت عادت لمعرفة الصواب ، فان عادت طلبت من الله المعونة ، فان طلبت درست العلم ، فان درست علمت حتى تصدر عن حق ، فان علمت وقفت على الحدود ، فان وقفت شخصت الى الله بحق ، فان شخصت خافت منه سبحانه وتعالى ، فان خافت اطمأنت « يا أيها النفس المطمئنة » فان اطمأنت لامت نفسها على الماضي وخافت الرجوع اليه ، فان لامت رجعت الى ربها بثبات وصدق ، فان رجعت رضيت برّبها ، فان رضيت فازت مرضية ، فان فازت دخلت في عباد الله ، فان دخلت درجت في العباد ، فان درجت عبت عبادة حقة ، فان عبت استقرت الروح في الجنة والجنة هي المآوى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

وخوف الله عند السادة الصوفية مقام جليل من مقامات العارفين ، وهم يستندون في الاشادة بمقام الخوف الى قوله تعالى (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) أى أشدكم له خشية كما أنه تعالى نسب العلم بالله لأهل الخشية فقال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) ويروى السادة الصوفية أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل في معنى قوله تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله) هم الذين يعصون ويخافون المعصية ؟ فقال لا بل الرجل يصوم ويتصدق ، ويخاف الا يقبل منه .

وهم يقولون ان المؤمن لا يكون خائفا حتى ينهى نفسه عن هواها ، ويستندون الى قوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المآوى) ويروون قوله صلى الله عليه وسلم « ما من قطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله ، أو قطرة دم اريق في سبيل الله » .

وقد قيل للامام الحسن البصرى (أفضل التابعين) رضى الله عنه :
يا أبا سعيد كيف نصنع بمجالسة أقوام من أصحابك ، يخوفوننا حتى تكاد
قلوبنا تطير فقال : انك والله لأن تصحب قوما يخوفونك حتى تدرك الامن
خير لك من أن تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف •

والسادة الصوفية مع خوفهم من مقام ربهم ، لا يسقطون الرجاء
فيه سبحانه ، بل هم يقابلون الخوف بالرجاء حتى لا يقنطوا من رحمة الله،
وفى مقام الرجاء هم يفرحون مستندين الى قول الله تعالى (ان الذين يتلون
كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة
لن تبور) وهم يروون أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على
رجل من أصحابه ، وهو يجود بنفسه فقال كيف تجددك قال أجدنى أخاف
ذنوبى وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم : « ما اجتماعا فى قلب
عبد فى هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجاه وأمنه مما خافه » •

وجاء فى وصف امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه للمؤمن
التقى : يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذرا ، ويصبح
فرحا ، حذرا لما حذر من الغفلة ، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة •
تراه قريبا أمله ، قليلا زلله ، خاشعا قلبه ، قانعة نفسه ، سهلا أمره ،
حريزا دينه ، ميتة شهوته ، مكظوما غيظه •

الخير منه بأمول ، والشر منه مأمون ، ان كان فى الغافلين كتب فى
الذاكرين ، وان كان فى الذاكرين لم يكتب من الغافلين •

يعفو عن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويضل من قطعه ، بعيدا فحشه ،
لينا قوله ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره •

فى الزلازل وقور ، وفى المكارء صبور ، وفى الرخاء شكور ،
لا يحيف على من ييغض ، ولا يائثم فىمن يحب •

نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته
وأراح الناس من نفسه •

فانظر رعاك الله ، صورة المؤمن التقى النقى ، كما أبرزها أئمة السلف والخلف ، وليقس كل منا نفسه بمقياسها ، ليرى مدى تخلفنا عن تلك الصورة المحموده فى الأولى والآخرة ، فنحنى باصلاح نفوسنا فيما بقى من أعمارنا والله ولى التوفيق •

ويتعرض أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه ، لبعض تلك المنازل فيقول فى الهامه المشرق :

تفنن غيرى فى الملاهى وشرها	ولكن بحب الله نلت فنونى
وانى اذا ما الناس بالمال حصنوا	جعلت هدى الرحمن كل حصونى
وان سجنوا فى النفس والمال والهوى	ففى مشهد الايمان أصل سجونى
تسح جفونى خشية ومهابة	اذا أهل ودى بالرضا نظرونى
أسير أسير الحب فى كل موقف	وما بسوى الاحسان قد أسرونى
وقالوا لى اصبر قلت هل فيه منعة	فقالوا نعم قلت اشهدوا وخذونى
ولم أدر طعم الحب من بدء نشأتى	ولكنهم بالذكر قد شغفونى
أطوف بوجدانى على كل عاشق	فألقى احتراماً ان هم أشهدونى
فيا مانحى حسن المحبة باسمه	غسلت فؤادى من جميع فتونى
لقاؤك ايمانى وذكرك حجتى	وحبك روحى واليقين وتينى
بحزم علمت الحب بالعلم خضته	ففى شدتى ألقى نذاك ولينى

ويقول رضى الله عنه شارحاً حاله مع ربه سبحانه وتعالى :

حب من أهوى بلحمى ودمى	أملى فى الوصل يشفى ألى
ليتنى أفنى على أعتابه	وأرانى فيه ضمن الخدم
ان دمعى كاد أن يفرقنى	بينما قلبى ثوى فى ضم
لعب الحب بروحى دوره	ألهب الحس وأزكى شيمى
انما رحمته مغرقتى	وبهذا كان معنى عدمى
ان أكن أفقد عينى فما	كان قلبى فى هدى الله عمى
انما ينظر قلبى عن هدى	أعين القلب منار الحكم
ان قلبى يا دجى فى وله	ذائع الاشجان بل لم ينم
ليس فى الحب منام لفتى	ذاق أقسى وجده فى كرم

انما الوجد حين قاتل
وأحاديث الهوى تطربنى
ومذاق الوجد فوق الكلم
فالهوى روى وعقلى ودمى

ويقول رضى الله عنه فى فضل التقوى ومحبة الله تعالى :

الحب فيه حارت العقلاء
وله على الأرواح أكبر عصمة
خاذا عشقت الله عشقا صادقا
الحب ان ملك النفوس أعزها
فاذا اتقينا الله جل جلاله
ان المريد اذا صفت اخلاقه
واذا هو اتخذ المهيمن جاهه
والأصل فى الدنيا المحبة والهدى
هو قوة للمرتجى وضياء
وهو الامان وللنفوس وقاء
كن بعد ذلك صاح كيف تشاء
والعاشقون يربهم علماء
قضيت حوائجنا وسال الماء
لم يبق فيه من الصفاء رياء
فمقامه بين الرجال سماء
لولا الهدى لم تخلق الاشياء

وفى التعلق بالله تعالى واستدراار فضله سبحانه ، وهو فضل لايتناهى
يقول رضى الله عنه :

ان ذات الحبيب قد غمرتني
عزتي عزة الكواكب لكن
فوق نجم السماء وطدت رأسى
ان أمنيتى فنائى بحبى
لا أبالى بالكون فى أى أمر
كل روح تفرغت لرضاه
وشراب الرجال كان من الماء
ان روحا خافت من الله حقا
قبلتى فى الصلاة ساعة وقت
انما قبلتى جميع حياتى
مسائى مع اليقين نهار
ودرست الغرام من معناها
زدت بالعقل والهدى من علاها
وتلاشيت عندها من سناها
وهو نعم البقاء فى معناها
انما الكون كان من مقتضاها
سعدت بالقبول من مسعاها
ولكن شربنا من سبناها
واستغاثت به رأته رجاها
كم بمصل بعد الصلاة تلاهى
هى ذات الاله لن أنساها
ونهارى سعادة برضاها

هذا ، وليعلم السادة القراء ، أن روح المؤمن لا تنزكى فى جنب الله ،
وتشرقى فى مراقى اليقين ، الا بالتربية الصحيحة ، على يد عارف بالله ،

يصفى النفس من كدوراتها البشرية ، التى تعكر صفوها النوراني ، ولهذا فرض الله على فريق من العلماء الربانيين الدعوة الى الله تعالى فى قوله الكريم (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ، وكما ان صحة الاشرار تورث الشر فان صحة الاخيار تورث الخير ، فقد روى الامام البخارى فى صحيحه قوله صلى الله عليه وسلم « مثل الجليس الصالح كصاحب المسك ، امان يحذيك أو تبتاع منه أو تجد ريحا طيبة » يحذيك أى يعطيك ، وتبتاع منه أى تشتري ، وحقا ما يقوله بعض الحكماء :

والروح كالريح ان مرت على عطر

طابت وتخبث ان مرت على الجيف

وقد تتواجد الأرواح من أثر مذاقاتها النورانية فتقهز الأجساد على حركات لا ارادية ، فيتمايل الجسد ، أو تبسكى العين ، أو يئن المؤمن ، أو يتأوه ، فيعيب الناس على المتواجدين مثل هذه الظواهر ، وهم معذورون فيها ، ومتهدرون عليها من غير تكلف ولا تعمل بل هو من خضوع الاجساد لسلطان الارواح اذا قويت .

والمطلع على كتب السنة ، يرى انه وقع من بعض السادة الصحابة التواجد ، ولم ينكره عليهم صلى الله عليه وسلم ، واليكم بشلا ما رواه الامام أحمد فى مسنده عن الامام على كرم الله وجهه قال : أتيت النبی صلى الله عليه وسلم أنا وجعفر وزيد ، فقال صلى الله عليه وسلم لزيد ، أنت مولای فحجل (أى خطا على رجل واجدة) فقال لجعفر ، اشبهت خلقى وخلقى ، فحجل ، ثم قال لى ، انت منى ، فحجلت .

والقرآن الكريم أثبت وقوع المواجهيد فى مثل قوله تعالى (وخر موسى صعقا) وقوله تعالى (ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من

من الحق (وقوله تعالى (خروا سجدا وبكيا) وقوله تعالى (فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) •

على أن التواجد يكون غالبا مع أهل البدايات ، فاذا كمل المؤمن في تربيته ثبت وصارت له قوة على احتمال المنازلات ، وقد قيل للامام أبى القاسم الجنيد : مالك لا تتواجد بينما يتواجد أصحابك فقال (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) •

وينصحن الامام أبو مدين التلمسانى رضى الله عنه الا نعيب التواجد لأن المتواجدين معذورون فيه ، ويقول فى تعليقه :

فقل للذى ينهى عن الوجد أهله اذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا
اذا اهتزت الارواح بشوقا الى اللقا ترقصت الاشباح يا جاهل المعنى
اما تنظر الطير المقفص يا فتى اذا ذكر الاوطان حن الى المعنى
يفرج بالتفريد ما بفؤاده فتضطرب الاعضاء فى الحس والمعنى
ويرقص فى الاقصا شوقا الى اللقا ويطرب ارباب العقول اذا غنى
كذلك ارواح المجنين يا فتى تهزها الاشواق للعالم الاسنى
أنلزمها بالصبر وهى مشوقة وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى
فيا حادى العشاق قم واحد قائما ودندن لنا باسم الحبيب وروحنا
وصن سرنا فى سكرنا عن حسودنا وان انكرت عيناك شيئا فسامحنا
فانا اذا طبنا وطابت قلوبنا وخامرنا خمر الغرام تهتكنا
فلا تلم السكران فى حال سكره فقد رفع التكليف فى سكرنا عنا
وسلم لنا فيما ادعينا اننا اذا غلبت اشواقنا ربما يحنا
شربنا طربنا ثم ههنا صياغة فبالله يا خالى الله لا تعنفنا

أما سيدى العارف بالله الشيخ العز بن عبد السلام ، شيخ الاسلام فى زمانه فيقول رضى الله عنه فى تحليل التواجد :

ما فى التواجد ان حققت من حرج ولا التمايل ان اخلصت من باس
راح وأكؤسها الارواح فهمى على قدراكؤوس تريك الصفوفى الكاس
حاد يذكرك العهد القديم وان تقادم العهد ما المشتاق كالناسى
فليس عار اذا غنى له طربا يئن بالباس لا يخشى من الناس

ويفسر بعض العارفين ما جام فى البيتين الاخيرين فيقول : سبب
ضطراب الانسان بالصوت الحسن ، ان الروح تتذكر لذيذ خطاب يوم
(ألت بربكم) حين أخرجت من صلب آدم وخوطبت بذلك فتحن لما
تتذكر من لذيذ الخطاب •

اللهم اجعلنا بفضلك من عبادك الصالحين الذين تختصهم برحمتك من
بين عبادك المؤمنين وتنوه بقدرهم عندك فى قولك الكريم (من المؤمنين
رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نجه ، ومنهم من ينتظر
وما بدلوا تبديلا) •

مكارم الأخلاق عند الصوفية

— ١٤ —

« يا حسن ، أنت حسن وحسن ، وقد روى بسند حسن ، عن الحسن البصرى ، عن الحسن السبط ، عن أبى الحسن على بن أبى طالب ، أن أحسن الحسن الخلق الحسن ، ويكفيك فى خلقك أنك أحسن الحسن ، فكن مسرورا دائما ، وإن لم تجده فأخلقه فى نفسك لتفوز » •

جاءتني هذه العبارة فى احدى رسائل شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى نور الله ضريحه ، وقد داخلنى حرج كبير فى نشرها ، لأنها تضمنت حسن ظن شيخى فى شخصى الضعيف ، وقد كنت حين تلقيتها منه فى شرح شبابى ، ولكنى قصدت بنشرها وجه الله فى الدعوة الى الخلق الكريم ، الذى يعمل السادة الصوفية الصادقون على بثه فى نفوس تلاميذهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وقد بلغ من عنايتهم بمكارم الأخلاق أنهم عرفوا التصوف فقالوا انه هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى •

وسندهم فى ذلك التعريف سند قوى ، لان الصوفى الصادق يتأسى بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله ، وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت كلمتها الجامعة : كان خلقه القرآن •

ومعلوم أن القرآن الكريم دعا الى كل خلق سنى ونهى عن كل خلق دنى ، وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مستوى خلقه الغاية التى أثنى عليها رب العزة فى قوله الكريم (وانك لعلى خلق عظيم) وفى صيغة الآية من التأكيد ما فيها ، ومن أصدق من الله قولا •

ولا عجب أن يبلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكارم الاخلاق تلك الغاية لان الله تولى تربيته ، وهياًه ليكون أسوة حسنة للناس لذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ويقول « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . كما يقول صلوات الله عليه وعلى آله « انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسمعوهم بأخلاقكم » ويقول المغفور له العلامة رفاعه رافع الطهطاوى فى كتابه مناهج الألباب :

« اتفقت الأخلاق ، والعوائد ، والشرائع ، والأحكام ، على أن مكارم الأخلاق منحصرة فى قوله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه) وأن هذا الحديث قاعدة عظيمة فى الدين ، لأن الرجل الصالح المستقيم الحال ، لا يقتصر على الكف عن فعل الشر ، بل يرى أن الحقوق الواجبة عليه فعل الخير والمعروف ، فمن لم يضع المعروف فى موضعه مع التمكن منه لا يعد صالحاً فالاستقامة تنهى عن الشر ، والصلاح يأمر بالخير .

ثم أورد سيادته لبعض الحكماء قوله :

كل الامور تريد عنك وتنقضى الا الثناء فانه لك باق
لو اتى خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الاخلاق
وأورد لآخر قوله :

ليس ديناً الا بدين وليس الدين الا مكارم الاخلاق
انما المكر والخديعة فى الناس هما من خصال أهل النفاق
وقد قال الامام زروق - رضى الله عنه - وهو من أئمة الصوفية :
« أصول الخير ثلاثة - التواضع - وحسن الخلق - والنصيحة »
فالتواضع تتبعه ثلاث : الانصاف من نفسك ، وترك الاتصاف لها ،
وخدمة المؤمنين .

« وحسن الخلق تتبعه ثلاث : العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الرضا والغضب ، والخشية فى السر والعلن » .

« والنصيحة تتبعها ثلاث : العمل الصالح ، ولعلم الصحيح ، واتباع الحق في كل حال » .

وانك أيها القارىء العزيز ، لتجد فيما قاله سيدنا جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة ، أثر الاسلام في تهذيب الاخلاق واضحا بينا ، فقد قال له فيما قال :

« أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف » .

« فكننا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخضع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان » .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء » .

« ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة » .

« وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام (وعدد عليه أمور الاسلام) فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه ، على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا » .

« فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك » .

وهي صورة تريك النقيض ، حسن الخلق وسوء الخلق ، فليس من حسن الخلق أن يحسن المرء معاملة الناس ويغفل عن معاملة الله ، والله أولى

له وأقرب اليه ، وحسن صلته بالله يؤدي به الى حسن خلقه مع الناس ولا عكس .

وقد سألتني يوماً ، الصديق الصالح كريم الخلق السيد / سالم جمعة ، عن العلة فيما نشاهده من حسن معاملة الأجانب ، وسوء معاملة أكثر المسلمين ، فتحيرت في اجابته مدة طويلة ، حتى عثرت على العلة ، وأنا أطلع الأحاديث النبوية الصحاح في كتاب تيسير الوصول ، فقد وقفت فيها على حديث يقول فيه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الشيطان آيس أن يعبد في بلدكم هذا ، ولكن ستيكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم وسيرضى به » ، ويؤخذ من ذلك الحديث الشريف أن الشيطان لا يستطيع التسلط على المسلمين في عقيدة التوحيد ، ولكنه يتسلط عليهم في أخلاقهم ، فيتخلقون باخلاقه السيئة من الحسد والغفل والكبر ، والغش ، والنفاق ، والرياء ، واتباع الباطل ، ومجانبة الحق الخ . فيسيئون للناس ويحسبونهم هينا وهو عند الله عظيم ، وفاتهم أن الدين المعاملة ، أما غير المسلمين فقد رضى منهم الشيطان فساد العقيدة فتركهم وشأنهم في معاملة الناس ، فأحسنوا المعاملة كسبا للدنيا ، وقد وصفهم الله تعالى فقال (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) .

وقد قال سيدي القطب الامام أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : يا على طهر ثيابك من الدنس ، تحظ بمدد الله في كل نفس ، فقلت يارسول الله ، وما ثيابي ، فقال ، اعلم أن الله تعالى كساك حلة الايمان وحلة المعرفة ، وحلة التوحيد ، وحلة المحبة ، قال ففهمت حينئذ قوله تعالى : وثيابك فطهر ، فمن عرف الله صغر لديه كل شيء ، ومن أحب الله هان عليه كل شيء ، ومن وحد الله لم يشرك به شيئا ، ومن آمن بالله أمن من كل شيء ومن أسلم لله قلما يعصيه ، ومن عصاه اعتذر اليه ، وان اعتذر اليه قبل عذره .

وقد قدم البصرة أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، فدخل جامعها ، فوجد القصاص يقصون ، فأخرجهم ، وكان يقول ، هذا بدعة ، هذا منكر ،

حتى جاء الى الحسن البصرى فقال : يا فتى انى سائلك عن شيء ، فان
أجبت عنه أبقيتكَ ، والا أخرجتك كما أخرجت أصحابك ، وكان قد رأى
عليه سمنا وهديا ، فقال سل عما شئت يا أمير المؤمنين فقال كرم الله وجهه ،
ما صلاح الدين ، وما فساد ، فقال الحسن ، صلاحه الورع ، وفساده
الطمع ، قال اجلس ، فمثلك يصلح أن يتكلم مع الناس •

وأنت ترى من اجابة الامام الحسن البصرى أن الورع يورث صاحبه
حسن الخلق مع الله ومع الناس ، وأن الطمع يجر صاحبه الى سوء الخلق
الذى نهى الله عنه •

والدين عقيدة ، وأحكام ، وتطبيق ، والتطبيق شكل وموضوع ، وقد
يتم تطبيق العبادات شكلا بالعادة ، فلا يثمر فى قلب العابد ثمرة العبادة ،
ومن هنا وجب أن تقوم التربية الروحية بين المسلمين ، ليأخذ المسلم دينه
علما وعملا وحالا ، من ورثة الاخلاق النبوية ، وهم الذين اصطلح على
تسميتهم السادة الصوفية ، وهم الذين نالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها
معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الدراسة
وقد قال فيهم امامنا على كرم الله وجهه : عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ،
لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ورعاته قليل •

واذا أردت أيها القارئ العزيز ، مزيدا من شرح حالهم ، فى تربية
أتباعهم ، فاستمع الى ما قاله أمير المؤمنين على كرم الله وجهه عند تلاوته
(يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر
الله) فقد قال فابعد كما هو شأنه فى كل ما قال :

ان الله سبحانه وتعالى ، جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد
الوقرة ، وتبصر به بعد العشوة ، وتنقاد به بعد المعاندة ، وما يرح الله
— عزت آلاؤه — فى البرهة بعد البرهة ، وفى أزمان الفترات ، عباد
ناجاهم (أى ألهمهم) ، وكلمهم فى ذات عقولهم ، فاستصحبوا بنور يقظة
فى الاسماع والأبصار والأفئدة ، يذكرون بأيام الله ، ويخوفون مقامه ،
بمنزلة الأدلة فى الفلوات ، من أخذ القصد حمدوا اليه طريقه ، وبشروه

بالنجاة ، ومن أخذ يميننا وشمالا ذموا اليه الطريق وحذروه من الهلكة ،
وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات ، وأدلة تلك الشبهات •

وان للذكر لأهلا ، أخذوه من الدنيا بدلا ، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع
عنه ، يقطعون به أيام الحياة ، ويهتفون بالزواج عن محارم الله ، في أسمع
الغافلين ، ويأمرون بالقسط ويأثمرون به ، وينهون عن المنكر ويتناهون
عنه ، فكأنهم قطعوا الدنيا الى الآخرة وهم فيها ، فشاهدوا ما وراء ذلك ،
فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الاقامة فيه ، وحقت القيامة
عليهم عداتها ، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا ، حتى كأنهم يرون ما لا يرى
الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون •

فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحموده ، ومجالسهم المشهوده ، وقد
نشروا دواوين أعمالهم ، وفرغوا لمحاسنة أنفسهم في كل صغيرة وكبيرة ،
أمروا بها فقصروا عنها ، أو نهوا عنها ففرطوا فيها ، وحملوا ثقل أوزارهم
ظهورهم ، فضعفوا عن الاستقلال بها ، فنشجوا نشيجا ، وتجاوبوا نجيبا ،
يمعجون الى ربهم من مقام ندم واعتراف - لرأيت أعلام هدى ، ومصابيح
دجى ، قد حفت بهم الملائكة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وفتحت لهم أبواب
السماء ، وأعدت لهم مقاعد الكرامات ، في مقعد اطلع الله عليهم فيه ، فرضى
سعيهم ، وحمد مقامهم •

يتنسمون بدعائه روح التجاوز ، رهائن فاقة الى فضله ، وأسارى
ذلة لعظمته ، جرح طول الأسى قلوبهم ، وطول البكاء عيونهم •
لكل باب رغبة الى الله منهم يد قارعة ، يسألون من لا تضيق لديه
المنادح (المواضع الواسعة) ولا يخيب عليه الراغبون •

فحاسب نفسك لنفسك ، فان غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك •
وهذا الوصف ينخلع قلب القارىء له مرة واحدة ، فكيف بالملازم
لأحد هؤلاء الأئمة يسمع منه ، ويأخذ عنه ، لا شك أنه يتحول من الظلمات
الى النور ، فتخلص نفسه من السيئات والشرور ، ويتحلى بمكارم الأخلاق
وقد تلحظه عناية ربه فيصير اماما من أئمة الهدى ، وما ذلك على الله

بعزيز •

وحين كان أسلافنا متحلين بمكارم الأخلاق ، كان للاسلام بهم أكبر
دعاية عملية ، فدخل الأعاجم في الاسلام عن اعجاب به ، وبرز من هؤلاء
الاعاجم أجلاء في علوم الدين والتربية الروحية ، كما هو معلوم .

لذلك نحن في حاجة لبث الاسلام الصحيح في نفوس أهله ، قبل
أن ندعو اليه غيرهم ، فإن رأى غيرهم منا مسلكا مشرفا ، أغنانا الحال
عن المقال ، وحال واحد في ألف خير من كلام ألف في واحد .

ونحن مأمورون من الله ان نكون شهداء لله ولو على أنفسنا ، ولاشبهة
اننا انحرفنا في زماننا هذا عن خلق المسلمين الأوائل ، فتعاديونا ، وتحتسبنا
وبخلنا ، وفرطنا في واجباتنا الخاصة والعامة ، واعتدى بعضنا على بعض ،
ففتشت فينا الغيبة والنميمة ، ولو كانت عبادتنا حقة لاثرت في قرارة نفوسنا
وأصلحتها ، والعبادات ليست مقصودة لذاتها ، وانما هي وسيلة لتهديب
النفوس ، وإصلاح القلوب ، وعلاج النقائص ، والدين منذ قام لم تتغير
أحكامه ، انما تغيرت نفوسنا ، لاننا لم نأخذه بقوة وصدق ، بل أخذناه
شكلا لا روحا ، وفاتنا أن الله غنى عنا وعن طاعتنا ، ولكن تعبدنا بالطاعات
لصلاح المجتمع ، وليسعد الناس فيما بينهم على أساس الاخوة والتعاون ،
فلا يقوم بينهم التنافر أو التخاذل في أفرادهم أو طوائفهم .

وقد زرت الريف ، بعد غيبة طويلة عنه ، فأحزنني ما رأيت ، من
الشقاق والخلاف والاختلاف ، بين الأخوة ، وأبناء العمومة والجيران ،
ولم أعهد مثل هذا من قبل ، ولم أجد بعد البحث من علة ، الا أن أهل
الإصلاح بين الناس قلوا فاشتدت الخصومات لأسباب تافهة ، وقد أسعدني
التقاطع والمخاصمة ، وقيام الخلافات يضعف التربية الروحية ، وقد أسعدني
أنى في أيام معدودات أزلت الخلافات بالنصيحة الأمانة ، فاستجاب القوم
لى عن فطرة سليمة ، وتصافى المتخاصمون ، وتزاور المتقاطعون ، فلو أن
أهل الخير تتبّعوا هذه الخلافات في نشأتها ، وأرادوا إصلاحا من قلوب
خالصة ، بعيدة عن الهوى والغرض ، لعاش القوم فى صفاء ووفاء وأخذ
الخلف عن السلف حسن الخلق ، والخلاف شر ومفسدة فى المجتمع والصلح

خير ومرحمة ولهذا حض الله على الاصلاح بين الناس (لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) •

وقد تعرض لآفاتنا الخلقية ، أستاذى العارف بالله ، الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه فى ارتجاله الهاما ، وكنت قد صحبت معى الى حفل صوفى ، ابن شقيقتي ، الشاب التقى ، الأستاذ عبد الحميد أحمد الملطوى ، وكان عندئذ طالبا فى كلية التجارة ، وهو الآن مراقب عام الايرادات بالميزانية ، فسأل الشيخ أن يرتجل على قول القائل :

مررت على المروءة وهى تبكى
فقلت علام تتحب الفتاة
فقلت كيف لا أبكى وأهلى
جميعا دون خلق الله ماتوا
وكان مما قاله الشيخ رضى الله عنه فى كلام طويل من الهامه الفورى :

مررت على المروءة وهى تبكى
اذا فقد المروءة أى قوم
وان مروءة من غير دين
تركنا حد مولانا وراء
وقلدنا سوانا عن ضلال
اذا وعظ الورى الوعاظ يوما
وكم رمضان نحياه بلهو
نخج البيت روادا ولكن
وكم ذا ندعى نعطي زكاة
نبيع ونشترى لكن حراما
وكم يفشو الربا فينا جهارا
محاكنا قد امتلأت نساء
وأخلاق تمزق كل يوم
وكم داع الى التقوى افتخارا
طباع الناس أمست كالافاعي
وأهل المال فى جهل تساموا
اذا زمن فقدنا الدين فيه
فقلت علام تتحب الفتاة
فقلت كيف لا أبكى وأهلى
جميعا دون خلق الله ماتوا
فقد قلت من الدنيا الهداة
فليس لهم من الدنيا حياة
ضلال لا تقول به الثقة
تنازعنا بذاك النازعات
وقد لعبت بأكثرنا الغواة
فتسخر بالكلام الناشئات
لياليه باثم ساهرات
قلوب بعد ذلك مخربات
وليس لنا مع المولى زكاة
وأبواب الحلال معطلات
وتعجبنا الفتاوى الفاسدات
وهل ترضى بكثرتها القضاء
ثياب بالضلال مرقعات
وليس له من التقوى صلات
فألينها ملامس لاذعات
وأهل العلم ليس لهم حياة
فأيام السعادة ذاهبات

وقد عجب الاستاذ عبد الحميد والسامعون عن تدفق الشيخ ارتجالا،
فقلت لهم لا تعجبوا فانه من عطاء الله لأوليائه ، وقد قال تعالى : (يوتى
الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) •

ويعلل السيد محمد اقبال فيلسوف الباكستان العظيم ، رحمه الله ،
تغيير أحوال المسلمين ، وضعف قوتهم الروحية ، بأشتغالهم بالملاهي التي
انتشرت بينهم فوقفوا أكثر أوقاتهم عليها ، وتلهوا بها عن التفكير في أمور
الآخرة ، فيقول فيما ترجمه عنه الى العربية صديقي العلامة الشيخ
الصاوي شعلان ، جزاه الله خيرا :

هي المدينة الحمقاء ألفت

بهم بين المذاهب حائرينا

نقد صنعت لهم صنم الملاهي

لتحجب عنهم الحرم الأميننا

والسيد اقبال لا يعارض المدنية النافعة انما يعارض المدنية الضارة
التي تنسى الناس آخرتهم ، التي خلقوا لها ، وسيردون اليها فينبئهم الله
بما عملوا •

ويعلل السيد اقبال عدم استجابة الله لدعوات المسلمين في زماننا ،
بانهم غير صادقين بقلوبهم وأرواحهم مع الله ، ولو صدقوا الله لكان خيرا
لهم ، لأنه تعالى انما يتقبل من المتقين ، فيقول طيب الله ثراه على لسان
الحق جل شأنه :

عطايانا سحائب مرسلات

ولكن ما وجدنا السائلينا

ولو صدقوا وما في الأرض نهر

لأجرينا السماء لهم عيونا

ولا عذر اليوم ، لمتخلفه عن ربه ، فان العلم يدخل علينا مساكننا من
وراء الجدر ، والوعظ مستمر في آذاننا ليل نهار ، وما علينا الا أن نفتح
له قلوبنا التي صدئت بكسب السيئات ، وباب التوبة مفتوح الى يوم

القيامة ، فلننتب عما مضى ، ولنبدأ حياة جديدة فى صلتنا بربنا ، ليغفر لنا خطايانا ، ويبدل سيئاتنا حسنات ، فانه تعالى القائل (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) واذا أراد الانسان أن يعرف قدره عند ربه فلينظر الى مقام ربه عنده ، فان خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى كما وعد الله تعالى ، وان طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ونعوذ بالله منها •

وانى أدعو بما كان يدعو به شيخنا الأكبر القطب سيدى الشيخ محمد أبو خليل ساكن ضريحه بالزقازيق رضى الله عنه :

اللهم بجاه نبيك المصطفى ، وحببيك المجتبى ، ووليک المرتضى ، وأمينك على وحى السما ، سيدنا ومولانا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، نسألك أن تغفر ذنوبنا ، وتستر عيوبنا ، وتكتب لنا عندك براءة وعتقا من النار ، وأمنا من العذاب ، وجوازا على الصراط ، وطريقا الى الجنة وعاقبة الى الخير ، اللهم توفنا يا الهى بكرمك مسلمين مؤمنين موحدين وألحقنا بالصالحين ، آمين •

وقد دخل فرقد ومجهر بن واسع على رجل يعودانه ، فجرى ذكر العنف والرفق ، فروى فرقد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قيل له : على من حرمت النار يارسول الله ، قال « على الهين اللين السهل القريب » فلم يجد محمد بن واسع بيضا يكتب ذلك فيه ، فكتب على ساقه وأخيرا وليس آخرا لا تنس ان الله تعالى وصف حبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال مانحا له الشرف كله (وانك لعلى خلق عظيم) •

الامتنثال لامر الله تعالى والاستسلام لقهره

— ١٥ —

« ولكن ربك رب الكون الذى خلقه ودبره ، وقام بأسبابه من غير سبب ولا الزام ، فإذا فزت وقرت عيناك ، فاشكر الله ، والصبر أولى ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فانك انما تنتظر نفاذ القضاء ، وما قضاء لك خير كبير ، ورزق كثير ، ونعمة وافية ، وقلب راض .. والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

وهكذا يوجهنى شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى — رضى الله عنه — الى ما يقول به السادة الصوفية ، من أن المؤمن لا يحصل له حقيقة الايمان بربه الا بامرين : الامتنثال لامره ، والاستسلام لقهره .

والامتنثال لامره سبحانه ، يقتضى من المؤمن اداء ماتعبده الله به ، وفى اداء العبادات يلقي المؤمن بعض المشقات التى تستعصياها النفس فى البداية ، حتى اذا استقرت عليها ، تعودتها واستحلتها فى مذاقها ، فساعدت حلالة المذاق على استباق الخيرات فاستنارت البصيرة ، وأدركت بنورها ما حجب عن عوام المؤمنين .

وتلك الأنوار التى تضىء بصائر الخواص ، تعينهم على احتمال ما يتعرضون له من المكاراه التى قدر الله تعالى أن تصيبهم ، لحكمة يعلمها سبحانه ، وتكون خافية عن عباده .

وفى هذا يقول القطب سيدى ابن عطاء الله السكندرى — رضى الله عنه — : « انما يعينهم على حمل الاقدار ورود الأنوار ، وذلك أن الأنوار اذا وردت كشفت للعبد عن قرب الحق سبحانه وتعالى منه ، وان هذه الاحكام لم تكن الا عنه ، فكان علمه بان الاحكام من سيده سلوة له ، وسبب لوجود صبره ، ألم تسمع لما قال الله سبحانه وتعالى لنبيه — صلى الله عليه وسلم — :

« واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » .. أى ليس هو حكم غيره
فيشق عليك ، بل هو حكم سيدك القائم بأوصانه اليك ، ولنا فى هذا
المعنى :

وخفف عني ما ألقى من العنا
بانك انت المتبلى والمقدر
وما لامرئ عما قضى الله معدل
وليس له منه الذى يتخير

ثم قال سيدى ابن عطاء الله : « ومثال ذلك لو ان انسانا فى بيت
مظلم ، فضرب بشيء ، ولا يدرى من الضارب له ، فلما أدخل عليه مصباح ،
نظر فاذا هو شيخه أو أبوه أو أميره فان علمه بذلك مما يوجب صبره على
ما هنالك .. »

وقد وقع لى مرة أنى كنت مرشحا للدرجة الرابعة ، فلم أظفر بالترقية
اليها ، فضاقت صدرى بفواتها ، ورأيت أن أزور سيدى الشيخ عبد السلام
الحلوانى — نور الله ضريحه — وكان على قيد الحياة ، لاخفف برؤيته
الالهم عن نفسى ، فركبت الترام قاصدا لقاءه فاشتد ضيق صدرى فى الطريق
وما كدت أصل الى منتصف الطريق ، حتى وعظنى واعظ الله فى قلبى ،
واذا بهاتف يهتف بى : ده ده انت هاتعمل زى اللى يقول فيهم ربنا
« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان
أصابته فتنة اقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران
المبين » .

فتنبهت من غفلتى وبانت لى زلتى ، فاستغفرت ربى وسألته التوبة ،
فذهب الحرج عن صدرى ولما وصلت الى سيدى الشيخ سلمت عليه
وقصصت عليه ما جرى فابتسم — رضى الله عنه — وقال لى : « خواطر
القرآن عظيمة جدا » أى الزم ما وعظك به ربك فى كتابه الكريم .

وقد قال همام ، وكان رجلا عابدا ، لمولانا الامام على بن أبى طالب
— كرم الله وجهه — يا أمير المؤمنين صف المتقين حتى أنظر اليهم فتناقل
الامام عن اجابته ، ولكن ألح عليه .. فقال له فيما قال — كرم الله
وجهه — :

« نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء ، ولولا الأجل
الذى كتب لهم ، لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا الى
الثواب وخوفا من العقاب » •

« عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن
قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها ، فهم معذبون ،
قلوبهم محزونة وشروهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة ،
وأ أنفسهم غفيفة ، صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة
يسرها لهم ربهم ، ارادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها »

« فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وعلمنا
فى حلم ، وقصدا فى غنى ، وخشوعا فى عبادة وتجيلا فى فاقة وصبرا فى
شدة ، وطلبا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا عن طمع » •

وقد زرت سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — رضى الله عنه —
فى مرضه الأخير ، فدلنى مظهره على شدة مرضه فاشتد ألى ، وأحسن
الشيخ بنور بصيرته ، انى متألم لما يجعد ، فأراد أن يسرى عنى .. وأن
يعلمنى الرضا بالمقدور فى كل حال ، فقال — رضى الله عنه — فى صوت
خافت من الاعياء ، له الملك وله الحمد ، عطف سبحانه الحمد على الملك ،
والملك يشمل الخير والشر ، اشارة منه سبحانه ، الى انه يجب أن يحمد
فى الخير والشر على السواء •

وهذا الذى وجهنى اليه شيخى بمذاقه العالى ، ييسر لنا فهم ما قال
به امامنا على — كرم الله وجهه — نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى
نزلت فى الرخاء •

وقد حدثنى أحد أصدقائى الصالحين ، ان شيخنا الأكبر وصاحب طريقتنا قطب عصره ، سيدى الحاج محمد أبو خليل ، الحسينى نسباً ، وساكن ضريحه الأنور بالزقازيق « انتقل الى رضوان الله فى يونية ١٩٢٠ » أصابه مرض فى ساقيه ، فتألم المريدون لمرضه ، فقال لهم مسلماً ومعلماً : ان ساقى حملتاني ثمانين عاماً ، ولم تشكوا منى مرة ، فكيف أشكو اذا مرضتاً أياماً قصيرة •

وتذكرنى فلسفة شيخنا الأكبر هذه بفلسفة صوفى من الاقدمين ، عاد تلميذاً له كان مريضاً فقال التلميذ لشيخه شاكياً : انى ملازم فراشى منذ مائة وعشرين يوماً ، مستطيلاً بذلك مدة المرض ، فقال له شيخه معلماً : أحصيت أيام البلاء فهل أحصيت أيام الرخاء •

أقول وما أكثر من يحصى منا على ربه أيام المرض ، وينسى لربه أعوام الصحة ، واذا أعطى المؤمن العدل من نفسه ، فيجب أن يشكر لربه فى الرخاء وأن يصبر لحكمه فى البلاء •

وفى قول سيدى الشيخ عبد السلام : ولكن ربك رب الكون الذى خلقه ودبره ، وقام بأسبابه من غير سبب ولا الزام ، تعليم باللجوء اليه سبحانه — فى كل أمورنا لأننا عبيد احسانه ، أوجدنا فضلاً من العدم ، ورزقنا كرماً من غير حول منا ولا قوة ، وجاد علينا من جوده ، فحبب اليانا الايمان وزينه فى قلوبنا وكره اليانا الكفر والفسوق والعصيان •• واذا نحن تعرضنا للبلاء فى هذه الحياة الدنيا ، فانما ذلك لخيرنا واسعادنا ، وقد قال تعالى « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » • ونحن لا ندرك حلاوة العاقبة الا ان ذقنا مرارة البلاء •

واذا جاءنا البلاء تضرعنا اليه — سبحانه — بالدعاء ، مفتقرين اليه ، ومظهرين العبودية بين يديه ، ومقرين بضعفنا له ، ومعترفين بسلطانة علينا •• ونراه سبحانه عند البلاء أقرب اليانا من كل قريب ، وأحب اليانا من كل حبيب ، وأيجع فى كشف ضرنا من كل طبيب ، فاذا كشف الضر عنا شكرناه تعالى فى السراء التى أعقبت الضراء •• فبان بالضدين فضله ، وبرز

بالنقيضين لطفه ، فتقوى يقين العبد فيه واعتماده عليه ، واتجاهه اليه ، وهى درجات لا ينالها المؤمن بالعبادات الخالية من المذاق ، فسبحان اللطيف الخبير الرؤوف الرحيم •

تعرف سبحانه الى عباده بالرحمة فى قوله الكريم « بسم الله الرحمن الرحيم » لئلا ييأس مذنّب من مغفرته ، ولا مبتل من شفائه ولا فقير من سعته ، ولا جاهل من تعليمه ، ولا مكروب من تفريجه، وعلمنا — سبحانه — أن ندعوه ليستجيب ، والدعاء مخ العبادة كما جاء فى الحديث الصحيح • ويفرق سيدى ابن عطاء الله ، بين عوام المؤمنين وخواصهم فى صلتهم بربهم فيقول : « لا يزال اضطرار الولي لربه ، لتحقيقه بقره ولا يكون مع غير الله قراره ، لاستيحاشه مما سواه ، فهو مستأنس بقره ، طلق اللسان بذكره ، بخلاف العامة فان اضطرارهم بمشيرات الاسباب فاذا زالت زال اضطرارهم وذلك لعلبة دائرة الحس على مشهدهم •• »

قد سمع سيدى ذو النون المصرى — رضى الله عنه — برجل صالح فى جبل المقطم فذهب اليه زائرا ، وأقام معه بعض الوقت ، فلما أراد الانصراف سأل ذلك الصالح دعوة فقال الصالح : آتسك الله بقره ، فقال سيدى ذو النون : زدنى ، قال : من آتسه الله بقره أعطاه أربعاً بغير أربع : علماً بغير طلب ، وغنى بغير مال ، وعزا بغير عشيرة ، وأنساً بغير جماعة •

ومقام الرضا بقضاء الله ، مقام شريف ، وهو من مقامات اليقين الكبرى ، ودون الوصول اليه ، جهاد كبير ، وصبر جميل ، وذكر كثير وسهر طويل ، ولا تبدو آيات الله مكشوفة ، الا لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويصفهم فى الهامه المشرق ، أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل فيقول — رضى الله عنه — :

هم الجواهر طبعاً لا يغيرهم مر الزمان وهم من أهله الدرر ان يشبعوا حمدوا أو أفقروا صبروا أو يحزنوا كتموا أو يوهبوا شكروا لهم سمات مع الأملاك سائرة وفوق هام سماء المجد قد نظروا ملائكة الله ترعاهم وتتبعهم والفضل يحضر فيهم أينما حضروا

من أهمهم كان فضل الله غامره وحيث منزلهم يستنزل المطر
أزكى القلوب وأسماءها وأشرفها من بالهداية والايمان يأنزر
ان النفوس اذا زادت محبتها فى ربها واستنار القلب والبصر
صارت ملائكة تصفو من كدورتها حتى ترى كل شىء ما به كدر
والعاشقون لهم فى الحب ان صبروا روض من العز لم يذبل له ثمر
مياحه الذكر والتقوى ينابعه والعلم والدين والآيات والصبر
خل المعارف للعشاق تقطفها ان كنت منهم فسر واسهر كما سهروا

وأنت ترى مما تقدم ، ان السادة الصوفية يتعلقون بالله وحده ،
ويركنون اليه فى جميع أمورهم ، مع التفويض اليه سبحانه فيما يختار
لهم ، والرضا بالمقدور فى كل حال وهم لذلك يرفعون همتهم عن الخلق ،
ولذلك قال سيدى القطب الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلى — رضى الله
عنه — انى أيسر من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا أياس من نفع غيرى
لنفسى ، ورجوت الله لغيرى ، فكيف لا أرجوه لنفسى •

وكذلك قال — رضى الله عنه — : نظرت الى الخلق ، فوجدتهم على
قسمين : أعداء وأحباء فنظرت الى الاعداء فعلمت أنهم لا يستطيعون أن
يشوكونى بشوكة لم يرد الله بها ، فقطعت نظرى عنهم ، ثم تعلقت بالأحباء
فرأيتهم لا يستطيعون أن ينفعونى بشىء لم يرد الله به فقطعت إياسى منهم ،
وتعلقت بالله تعالى ، فقيل لى انك لن تصل الى حقيقة هذا الأمر حتى
لا تشك فىنا ، وتياس من غيرنا ، ان يعطيك غير ما قسمناه لك •

وقال مرة أخرى لما سئل — رضى الله عنه — عن الكيمياء ، فقال :
أخرج الطمع من قلبك ، واقطع يأسك من ربك أن يعطيك غير ما قسمه
لك ، وليس يدل على شعار العبد ، كثرة عمله ، ولا مداومته على ورده ،
وانما يدل على نوره غناه بربه ، وانحباسه اليه بقلبه وتحرره من رق الطمع ،
وتحليه بحلية الورع وبذلك تحسن الأعمال ، وتزكو الاحوال ، قال تعالى:

« انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .
 فحسن الأعمال انما هو بالفهم عن الله تعالى والفهم هو ما ذكرناه من
 الاغتناء بالله .. والاكتفاء به ، والاعتماد عليه ، ورفع الحوائج اليه ، والدوام
 بين يديه ، وكل ذلك من ثمرة الفهم عن الله تعالى .

وقد قال لنا شيخنا العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى — رضى
 الله عنه — انه وقع له ضيق مالى يوما ، فمد يده الى ورقة أخرجها من
 جيبه . وكتب فيها : من كان رزقه على الله فلا يحزن ، وطوى الورقة ،
 وما هو الا وقت قصير ، حتى جاءه شخص وسلم عليه ، وقدم لسيدى
 الشيخ مبلغا كان ديننا عليه للشيخ ، ولم يكن فى بال الشيخ واعتذر المدين
 من تأخره فى الاداء ، وهكذا فرج الله ضيق الشيخ من مال كان له عند
 بعض الناس فجاء به المدين عند احتياج الشيخ اليه ، ولم يسأل الناس
 شيئا .

اللهم ارزقنا من حبك ، ما يتناسب مع احسانك الينا ، فان نعمك علينا
 لا تعد ولا تحصى ، فوجب أن يكون حبنا لك شديد القوى ، بعيد المدى ،
 فلا ينتهى أفقه الا بالسكون مع المحبوب الاعلى .. واجعلنا يا الهى من
 الشاكرين عند الرخاء والصابرين عند البلاء ، فتشهد قلوبنا العطاء فى البلاء ،
 كما تشهد فى الرخاء ، والطف بنا فيما يجرى به القضاء فيكون اللطف
 مظهرا لرحمتك فانك رحيم ودود على الدوام وقد قلت جل شأنك «ما يفعل
 الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما» .

التواضع لله تعالى

- ١٦ -

« فان أنا أبصرت فلا أبصر الا من ضوء روحك الطاهرة الطيبة التى
ينعكس نورها على قلبى الكشيف ، فيرى قلبك النقى السليم ، فيحمد الله
سبحانه وتعالى على ذلك الاخلاص ، الذى يدين به قلبى . فيدعو الله أن
يديم عليكم نعمته ، وأن يرزقكم الحسنى وزيادة ، وأن يجعلنا جميعا من
عباده المخلصين الذين لا يرون سواه » .

وبأسلوبه الحكيم هذا ، كان شيخى العارف بالله ، سيدى عبدالسلام
الحلوانى - رضى الله عنه - يرينى فى جنب الله ، فهو يمتدح الصفات
التى رجا أن أكون متصفا بها ، ومحافظا عليها ، ويعلمنى فى قالب التشجيع
السعى اليها . ويرشدنى بحاله وماله الى التواضع لله ، والافتقار اليه
سبحانه ، مهما بلغ المؤمن فى طاعته ، ويود شيخى أن يكملنى فلا أرى
لنفسى عملا، بل أرى المنة لله تعالى وحده (وما بكم من نعمة فمن الله) وعندئذ
لا أركى نفسى ، أو أفاخر غيرى « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى »
وانما يتحدث المؤمن بنعمة الله عليه « فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولا
تكفرون » ، وما أبدع ما يقول سيدى العارف بالله ابن عطاء الله السكندرى:
إذا أراد أن يظهر فضله عليك ، خلق فيك ونسب اليك » .

ثم ان شيخى طيب الله ثراه ، ينسب لنفسه كثافة القلب ، مع ما بلغه
من ولاية بفضل الله عليه . وذلك بشهادة شيخه القطب الاكبر . سلطان
وقته . ومجدد قرنه . . سيدى الغوث الحاج محمد أبو خليل ، ساكن
ضريحه الأنور بالزقازيق ، فانه كان اذا قدم عليه سيدى عبد السلام ،
يرحب به فى شوق واعزاز ، ويقول له على مسمع المريدين ، أهلا بالولى
الكامل ، كما يقول له : والله العظيم والله العظيم ، أنت قطب . . أنت قطب .

والتواضع لله تعالى ، من شأن كلمة الرجال ، فان شيخنا الأكبر القطب سيدى أبو خليل — رضى الله عنه — ورث تلاميذه العظام ذلك التواضع ، وكان أمياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن آتاه الله ولاية كبرى وعلمه ما لم يكن يعلم من علم الوراثة الوهبي .. الذى فتح الله بابه بتعليم أبى البشر آدم — عليه السلام — وجعله به معلماً للملائكة الأطهار ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون •

وما لى أذهب الى سيدنا آدم — عليه السلام — ونبينا الاكرم — صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه — أقرب الينا عهداً وهو الأمى ، الذى بعث فى الأميين ، وغرف العلماء من بحر علمه .. ما ارتوت منه الأجيال المتعاقبة ، ولا زالوا يرتوون ، وما خفى عنهم من علمه ، اضعاف ما ظهر لهم ، وسبحان الله الفعال لما يشاء ، ويرحم الله أمير الشعراء شوقى اذ يقول مخاطباً له — صلى الله عليه وآله — :

• يا أيها الأمى حسبك رتبة

فى العلم ان دانت بك العلماء

كما يقول سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شبخى — رضى الله عنه —) :

تلك المعارف والعوارف فيهمو

من بحر منتك العميمة سيب يم

وتواضع مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أشهر من أن يذكر ، وقد قال صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان ، فى ذكرى مولده — عليه الصلاة والسلام — وهو يشير الى تواضعه ، ركب البراق وسائر الملائكة ، وعرج به الى السموات العلا وما فوقها ومع ذلك جلس على الحصى وكلم الفقير •

والأولياء ، وهم خواص المؤمنين ، يتأسون به — صلوات الله وسلامه عليه — فى أقواله وأفعاله وأحواله ، لذلك يكونون فى اقتدار دائم الى الله تعالى فى كل حال ، وهذا ما يجعلهم فى ترق متزايد من عطاء الله الذى لا ينفد ، أما عوام المؤمنين فلا يظهرون الافتقار اليه سبحانه الا عند

الاضطرار فاذا انفرج كربهم ، غفلوا عن افتقارهم بزوال الضرورة التي ألجأتهم اليه جل جلاله •

والسادة الصوفية يهتمون أنفسهم على الدوام ، ويرونها مقصرة في جنب الله ، مهما علوا في سلوكهم اليه تعالى ، لان كل مقام أعلى يصلون اليه يرون به المقام الأدنى الذي تركوه فيجاهدون أنفسهم جهادا مريرا •• ويحاسبونها محاسبة الشريك لشريكه ، فان سولت لهم أنفسهم أن لهم عملا صالحا ، رأوا ذلك ذنبا يستغفرون الله منه ، لذلك قالوا في حكمهم : شتان بين تأئب يتوب من الزلات وتأئب يتوب من الغفلات ، وتأئب يتوب من رؤية الحسنات •

وهم في جهادهم المبرر يذلون أنفسهم لله ، ويترفعون عن غيره ، والذلة لله من صفات العبودية ، والعزة من صفات الربوبية ، فمن تجلى عليه الحق — سبحانه — برضاه اتصف بالعزة ، كما قال تعالى « والله العزة ورسوله وللمؤمنين » •

لذلك يقول بعض العارفين :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل
إذا رضى المحبوب صح لك الوصل
تذلل له تحظى برؤيا جماله
تقدم والا فالغرام له أهل

وإذا لم يشهد العارف ربه بعين يقينه ، استنجد بالله من ذل الحجاب ، لذلك قال بعضهم في مناجاته : الهى مهما عذبتنى بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب •

ولا يستطيع المؤمن أن يشهد ربه بعين يقينه ، الا بعد مجاهدات كبيرة ، يقطع بها العقبات التي تعوقه في صلته بربه • ويعبر عنها السادة الصوفية بالعلائق والعوائق ، لان النفس البشرية تميل الى الشهوات بطبيعتها وهي أمارة بالسوء بجبلتها ، وهي مأمورة شرعا بالكف عن الشهوات ، وفي ذلك ابتلاؤها واختبارها ، ويتميز المؤمنون بعضهم من

بعض على قدر الهمة فى جهاد النفس بالكف عن الشهوات والجسد فى الطاعات ، حتى تصفو من كدوراتها ، وتتطهر من رعوناتها ، فتزول عنها ظلمة الشهوات وتتحدى بأنوار الطاعات فتذوق من مقامات اليقين ، ما شاء الله لها أن تذوق ، وتنزع بمذاقها هذا الى عالم الملكوت الذى منه هبطت بسر الهى وقدرة علىة •

وشاء الله — جلت حكمته — أن ينتفع القلب من فعل الجوارح ، كما تنتفع الجوارح من أنوار القلب ، ويعمل الامام الغزالى ذلك بسر العلاقة التى بين عالم الشهادة وعالم الملكوت • فان ظاهر البدن من عالم الشهادة والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته وانما هبطه الى عالم الشهادة كالغريب ، وكما تحدر من معارف القلب أنوار وآثار الى الجوارح فكذلك قد يرتفع من أفعال الجوارح أنوار الى القلب •

ولدقة خفايا اليقين ، ولقوة النفس البشرية فى امرتها لا بد من الاستعانة فى التربية الروحية بشيخ عارف بالله ممن سلكوا سبيل التصوف حتى نضجوا ، وصاروا أهلا للارشاد فاذا وجد المريد شيئا مقيدا بالشرعية ومؤيدا بالحقيقة ، تتلمذ عليه واستعان به فى مقاومة حظوظه وهواه ، وكسب الأنوار الروحية وهى مهمة شاقة على الشيخ ، ولكنه ميسر لما خلق له •

فاذا كان الشيخ ناضجا وعارفا من العارفين بالله ولم ينتفع المريد بصحبته فليس ذلك بقادح فى الشيخ انما يقدح فى استعداد المريد ، أما المريد المطيع والمجد فى ظاهره وباطنه •• فانه يتقدم فى دينه لا محالة لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

وقد قال مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : سلمان منا آل البيت ، وسلمان — رضى الله عنه — كان فارسيا ولكن حسن صحبته ، وقوة حجته وشدة ورعه كانت سببا فى نواله هذا الشرف الذى خلده فى الدنيا والآخرة ، وقد كان أبو جهل من صميم قريش لكنه على قربه من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينتفع بشيء فى الدين وذلك نتيجة لسوء مسلكه ، وشدة عناده وقسوة معاداته وقوة حسده ، ونعوذ بالله من أخلاق الشياطين •

ويعين المريد فى الافتناع من شيخه ، حسن استعداده فى التلقى والاتباع ، وحسن ظنه فى شيخه واعتقاده الراسخ فى كماله ، ولئن لم يكن الشيخ معصوما عصمة الأنبياء ، فهو محفوظ بعناية الله التى يحفظ بها أوليائه ويقول تعالى فى عنايته بهم :

« ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » .

ولغة التواضع التى كتب لى بها سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ليست متكلفة ، فقد كان التواضع سجية فيه ، ومع تواضعه كساه الله تعالى وقارا ملحوظا كان يحس به من عرفه ومن لم يعرفه ، وذلك لقوة روحه فى صلتها بالله عز وجل ، حتى لقد شرفنى مرة بزيارته فى الوزارة وبعد انصرافه ، جاءنى رئيسى وكنت معه فى غرفة واحدة ، فقال لى من زائرِكَ هذا الذى ودعته . قلت له : وما سبب سؤالك : قال : أحسست له باحترام ورأيت له وقارا غريبا فأحببت أن أسأل عنه ، فأخبرته بخبره ، وقلت له انه كان يتابع مسألة له بالوزارة فهو لا يفرط فى أمر دينه أو دنياه كما قيل :
فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه

ولا عرض الدنيا عن الدين شاغل

وقد كتبت فى سيرته كتيباً اسمه « المربى » طبع بمطبعة الحلبي فى سنة ١٩٤٧ ، وكان الشيخ رحمه الله قد انتقل الى جوار ربه راضيا مرضيا فى سنة ١٩٤٤ ، وقد تعرضت لتواضعه المقرون بوقاره فقلت ما نصه :
« وأذكر يا سيدى ، انك كنت تنكر ذاتك ، وتحاول أن تخفيها فلا يزيدما الله بذلك الا رفعة وظهورا . ورحمة منه بعباده . لأن الاتصال بمثلك ، رزق يسوقه الله للمؤمنين ، فكم هدى بك الى الرشد وكم زاد بك اليقين . ثم تمثلت بقول أبى الطيب :

ان كنت تكبر أن تختال فى بشر

فان قدرك فى الاقدار يختال

كأن نفسك لا ترضاك صاحبها

الا وأنت على المفضال مفضال

أما ما كنت فيه من فضل ، فقد أشرت الى بعضه ، ولا أدعى أنى وصلت الى عده • وحسبى أن يكون ما قلت ، كإشارة الاصبع الى النجم فى سماء ، فيهتدى بك من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا •

وأقسم لقد اجتمعت بكثير من ذوى الصلاح والفضل ، فما رأيت فيهم أحدا يوازيك أو يدانيك ، وأقسم ما وجدت صفة محموددة فى القرآن الكريم الا وجدتھا بارزة فيك ، فالعلم والحلم والصبر والكرم والاقدام والشمم والتسامح والوفاء والتواضع والصفاء والتعفف والسخاء ، كل هذه كانت من صفاتك الغراء الى جانب ما حباك الله به من ايمان فذ بالله تعالى وثقة تامة فيه ، واعتماد كلى عليه ، واتجاه دائم اليه •

فلا تعجب اذن أيها القارئ الكريم ، مع صفاته تلك • أن يكتب لى الكلمات التى صدر بها المقال ، ولئن ظهر لك كماله من مقاله ، فقد كان كماله فى حاله أظهر لمن أخذ طريق القوم عنه ، واسترشد به السلوك الى الله تعالى ، وعاشره فى صدق وطاعة ••

وقد تعرض لمناقب شيخنا الاكبر القطب سيدى محمد أبو خليل ، ساكن ضريحه الانور بالزقازيق ، ولتناقب خليفته الذى كان أثيرا عنده سيدى العارف الشيخ عبد السلام الحلوانى ، أستاذى الملمهم سيدى الشيخ على عقل الذى أنجبته الطريقة الخليلية وتربى فيها على يد العارف بالله سيدى عبد السلام فقال ارتجالا فيهما من كلام طويل :

أراد ربك يحيى القوم فانبعثت آياته بعد اخفاء توالينا
أتى مجددهم يحيى الطريق ومن أعطاه مولاه علما ثابتا فينا
أبو خليل أعز الله سيرته محمد من لوجه الله داعينا
شهم أشم قوى الجأش ذو همم مصرف سيد بالحق ينجيننا
أعطاه مولاه نورا لا حدود له فبين العلم والايمان والدينا
فكان بالفيض والالهام آتينا للسالكين وكم أحيانا مريدنا
وكان سلطان أهل الذكر أجمعهم أولاده بقيام الليل راضونا
وكم له خلفاء قال قائلهم الى هنا تنتهى روح المجدينا

أجلهم منزلاً أعلاهم ثقة أرضاهم خلقاً أزركاهم ديناً
أحلامهم منطقاً أقواهم همماً أوفاهم كرماً لا يقبل الهوان
مؤدب ما رأينا في مجالسه إلا الكمال وسهل اذ يناجينا
عبد السلام وزكى الله تربته بالطيب والمسك وازدانت رياحنا
أخلاقه في حدود الدين قد رسمت وكان في سنة المختار مأمونا
وكان ينطق عن علم وعن حكم يزجي لنا لؤلؤاً بالفيض موزونا
يكفيه فضلاً بأن الله سخره للناس يحييهمو ديناً ويحيينا
وما دمنا قد تعرضنا للعلاقة بين الشيخ وتلميذه ، فاني أقدم للسادة
القراء الاعزاء ، بعض ما أتحفنا به من بركاته القطب العارف بالله سيدي
عسر جعفر الشبراوي صاحب الطريقة الشبراوية المباركة — رضى الله عنه —
في شرحه على ورد الستار ، فقد قال قدس الله سره ما خلاصته :

سئل الشيخ زروق عما قاله من أن التربية بالاصطلاح انقطعت ولم
يبق إلا التربية بالهمة والحال ، فأجاب رضى الله عنه ، بأن المقصود من
التربية تصفية الذات وتطهيرها من رعونتها حتى تتحمل الأسرار وليس ذلك
إلا بإزالة الظلام منها وقطع علاقة الباطل عن وجهتها . .

وقطع الباطل عنها ، تارة يكون بصفتها في أصل خلقتها بأن يظهرها
الله بلا واسطة ، وهذه حالة القرون الثلاثة الفاضلة الذين هم خير القرون
« يقصد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين رضوان الله عليهم أجمعين » .
فقد كان الناس في هذه القرون متعلقين بالحق تعالى اذا ناموا ناموا عليه ،
واذا استيقظوا استيقظوا عليه ، واذا تحركوا تحركوا به حتى ان من فتح
الله بصيرته ونظر الى بواطنهم ، وجد عقولهم متعلقة بالله تعالى وبرسوله ،
باحثة عن مرضاتهم ، فلهذا كثر فيهم الخير ، وسطع في ذواتهم نور الحق
تعالى ، وظهر فيهم من العلم وبلوغ درجة الاجتهاد مالا يكيف ولا يطاق ،
مع قلة الزمن فكانت التربية في هذه القرون غير محتاج اليها ، وانما يلقي
الشيخ مريده فيكلمه في أذنه فيقع الفتح للمريد بمجرد ذلك لطهارة
ذواتهم وصفاء عقولهم وتشوقها الى طريق الرشاد .

أما بعد القرون الفاضلة حيث فسدت النيات والطويات وصارت
العقول متعلقة بالدنيا باحثه عن الوصول الى نيل الشهوات فصار الشيخ

صاحب البصيرة يلتقى مريده فيعرفه وينظر اليه فيجد عقله متعلقا بالشهوات الباطلة ، ويجد ذاته تتبع العقل فى ذلك .. فتلهو مع اللاهين وتسهو مع الساهين الغافلين وتميل مع المبطلين وتنحرك الجوارح فى ذلك حركة غير محسودة فيأمر الشيخ مريده بالخلوة وبالذكر وبتقليل الأكل ، ليتخلص مما هو فيه ، فتطبق ذاته حمل الاسرار •

ثم بقى الامر على هذه الحالة مدة ، الى أن اختلط الحق بالباطل ، والنور بالظلام فصار أهل الباطل يربون من يأتيهم بادخال الخلوة ، وتلقين الاسماء على نية فاسدة وغرض مخالف للحق ، وقد يضيفون الى ذلك عزائم واستخدامات تقتضى المكر والاستدراج فأشار الشيخ زروق على الناس بالرجوع عن مثل تلك التريية التى كثر فيها المبطلون • وباتباع الكتاب والسنة •

ويعقب سيدى القطب الشيخ عمر الشيراوى فيقول — رضى الله عنه — انما نهى الشيخ زروق عن تلك التريية لانه كان ناصحا لله ولرسوله ولم يقصد الانقطاع عن التريية الحقيقية رأسا ، فان نور المصطفى — صلى الله عليه وسلم — باق وخيره شامل وبركاته عامة ، الى يوم القيامة •

وأما الشيخ الذى يلتقى اليه بالقياد فهو العارف بأحوال النبى — صلى الله عليه وسلم — حتى صار على قدمه وسقيت ذاته من نوره — صلى الله عليه وسلم — وأمده الله بحقيقة الايمان وصفاء العرفان وهؤلاء العارفون موجودون فى البلاد الاسلامية •

فاطلب شيخك من بين أهل السنة والجماعة ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون •

ثم أورد سيدى الشيخ عمر قصيدة للعارف بالله سيدى أبى العباس البكرى فى شروط الشيخ ومنها :

وللشيخ آيات اذا لم تكن له فما هو الا فى ليالى الهوى يسرى
اذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن فاضرب به لجج البحر
فاقرب احوال العليل الى الردى اذا لم يكن منه الطبيب على خبر
وآياته ألا يميل الى هوى فديناه فى طى وأخراه فى نشر

هذا ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر ، - رضى الله عنه - من لم يأخذ الطريق من الرجال فهو ينتقل من محال الى محال . كما يقول : الشيخ من حمل عنك المشقات وأشهدك منازل القربات ، الشيخ من أخذ منك وكشف عنك ، الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت ، وجال بروحك فى عالم الملكوت ، الشيخ من أطلعك على حالك لا من أخذ من مالك .

ويشبهه العارف بالله المعاصر ، السيد محمود أبو الفيض المنوفى - مد الله فى عمره وبارك فى جهاده - أثر روح الشيخ فى روح المرید كالعدسة ذات البؤرة فانها تتلقى حرارة الشمس ، وتركزها فى البؤرة ، فاذا سلطت على ورقة أحرقتها ، وكذلك الشيخ يحو بنوره ظلمات الغفلة من قلب المرید ، فيصحو القلب ويتلقى موارد الاحسان .

أما قول سيدى الشيخ عبد السلام - رضى الله عنه - فى ختام عبارته . وأن يجعلنا من عباده المخلصين الذين لا يرون سواه ، فقد وصفهم ابنه وخليفته المبارك السيد أحمد عبد المنعم الحلوانى - مد الله فى عمره ومدده - فقال فى مقدمة كتابه « السمو الروحى فى الأدب الصوفى » (وله غيره كتب كثيرة آخرها كتاب نور الحى القيوم فى التوحيد) مانصه :

« هو الذى نور باطن المؤمنين بهديه .. وشعشع أرواحهم بحبه ، وسر بلهم بسر بال جلاله ، وأسكرهم من خمر جماله ، وأفاض عليهم من فيض أنسه ، وأطعمهم من لذيذ وصاله ، فغابت نفوسهم عن المحسوسات ، واستظلت بعرش الغيب ، فظلت فى سر المكنونات ، فلم يأنسوا الا بنوره سبحانه وتعالى ، ولم يروا حركة ولا سكونا فى الأكوان كلها ، دقت أو جلّت ظهرت أو خفيت . الا من تأثير ارادته ، فوهبوا أنفسهم وأنفاسهم لنور معرفته ، ورأوا سر قيوميته ساريا فى جسد الأكوان ، فنظروا الى نورها فغابوا عن الحس ، الى حقيقة المشاهدة وفناء القرب ، أولئك الذين اصطفاهم الله لحضرته ، واصطنعهم لذاته ، وسيرهم فى الخلق على عينه ، سير المحبة والعناية والاختصاص ، وحفظ قلوبهم عن الأغيار وهياكل أرواحهم من الأشرار ، وكان منهم ملء السمع والبصر » .

ويقول في وصفهم سيدى أبو بكر الكلاباذى (من أعلام القرن الرابع الهجرى) :

« سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة .. وخلصت عليها معاملاتهم فمئجوا علوم الوراثة وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم وأنارت أعلامهم فهموا عن الله ، وساروا الى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم وجلت عند ذى العرش أخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الارض سماويون ومع الخلق ربانيون ، سكوت نظار .. غيب حضار ، ملوك تحت أظمار ، أتراع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ، وأسرارهم صافية ، ونعوتهم خافية ، صفوية صوفية ، فورية صفية .. ودائع الله بين خليقته وصفوته فى بريته ، ووصاياه لنبيه ، وخباياه عند صفيه .. هم فى حياته أهل صنعته .. وبعد وفاته خيار أمته ، لم يزل يدعو الأول الثانى ، والسابق التالى بلسان فعله ، أغناه ذلك عن قوله ..

والوصف المتقدم ، يقرب لنا فهم الآيات المنسوبة الى أمير المؤمنين الامام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وهى :

رأيت ربى بعين قلبى فقلت لا شك أنت أنت
أنت الذى حزت كل أين بحيث لا أين ثم أنت
فليس للأين منك أين فيعرف الأين أين أنت
وليس للكيف منك كيف فيعرف كيف كيف أنت
أحطت علما بكل شىء فكل شىء أراه أنت
وفى فنائى فى فنائى وفى فنائى رأيت أنت

اللهم ارزقنا محبتك ، واجعلها شعارنا ودثارنا ، وخذنا اليك من أنفسنا ، لنكون من عبادك الذين لم يروا سواك ، فشرقتهم بالانتساب اليك ، فى قولك الكريم :

(ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيل) • آمين •

أشرا اتصال المرييد بشيخه

— ١٧ —

« هذا وان اشكرك على تفضلك بالتحريز ، فقد يقال شكر فاعتبر غير ما هو واجب ، اذ واجبنا اعتبار السؤال من واجبات الأسرة ، وانت منا ونحن منك ، فلا شكر على واجب ، وانما غايتنا الاطمئنان عليك ، وعليك السؤال عنا » .

جاءتنى هذه العبارة من شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبدالسلام الحلوانى ، قدس الله سره ، ومن كمال خلقه ، نسب الى الفضل فى الكتابة اليه ، وهو يعلمنى فى عبارته هذه مبادئ عالية وغالية .

من ذلك تواضع الشيخ لتلميذه ، واذا رأى التلميذ تواضع شيخه معه ، حرص التلميذ على تواضعه مع الناس عامة ، ومع زملائه خاصة ، فاذا ورثه الله قدم الارشاد فى طريق الله ، عرف كيف يتواضع ليعلم غيره التواضع وفى الحديث الشريف : « من تواضع لله رفعه » .

ومن ذلك شكر الناس عند الاقتضاء ، ويقول صلوات الله عليه وآله : من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد ذهب سيدى الشيخ الى شكر تلميذه على التحرير له ، وان كان ذلك واجبا على التلميذ ، باعتباره فرعا فى أسرة الشيخ الروحية ، ولو أن الناس قالوا فى أمثالهم : لا شكر على واجب . وهذا ما يعلمنا به . رضى الله عنه — أن نكون مع آداب الشريعة الفراء ، ولا نكون مع غيرها ، لانه ليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، كما يقول الامام الغزالى — رضى الله عنه — وقد علمنا الله تعالى فقال « أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » .

ومن ذلك أن يعطف الشيخ على تلميذه ، عطف الأب الرحيم على ابنه الصغير ، فيجعله بعضه ، بحيث لو أصاب التلميذ شىء تألم الشيخ له ، واذا

جاءه ما يسر كان فى ذلك سرور للشيخ ، ووجب على التلميذ أن يطوى
 ضلوعه على محبة الشيخ ويبادلها فى الله حبا بحب ، واحساسا باحساس ،
 وعندئذ يكون التلميذ من الشيخ والشيخ من التلميذ ، وهو امتزاج
 يذوقه المتصوفون المتحابون فى الله تعالى وقد قل سيدى الامام
 أبو الحسن الشاذلى — رضى الله عنه — لتلميذه سيدى المرسى أبو العباس
 — رضى الله عنه — : ما صحبتك الا لتكون أنت وأنا أنت •

وقد وصف الله تعالى حبيبنا المصطفى — صلى الله عليه وسلم —
 فقال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص
 عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » والشيخ العارف بالله يتأسى بمولانا
 رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قولا وفعل وحالا ، فيكسب الرأفة
 والرحمة التى تحلى بهما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما يأخذ عنه
 — صلى الله عليه وسلم — الشفقة والحرص على المؤمنين ، وقد تحلى
 أصحابه — صلى الله عليه وسلم — بالتراحم فيما بينهم ، اقتداء به — صلوات
 الله وسلامه عليه وآله — فوصفهم الله تعالى بقوله : « رحماء بينهم » •

ويدلك على شدة الامتزاج والتراحم ما قاله أمير المؤمنين عمر — رضى
 الله عنه — فى رثائه للخليفة الأول سيدنا أبو بكر الصديق — رضى الله
 عنه — فقد قال يصور لوعة الأمى التى أصابته بفقده :

ذهب الذين أحبهم
 فعليك يا دنيا السلام
 انى رضيع وصالهم
 والطفل يؤلمه الفطام

فانظر — رعاك الله — كيف يصور سيدنا عمر ، نفسه بطفل رضيع
 فقد أمه فحرم الرضاعة ، وهى غذاؤه •

وصدق مولانا الامام أبو عبد الله الحسين حين قال : الناس ثلاثة :
 رجل كالغذاء لا يستغنى عنه أبدا ، ورجل كالدواء يحتاج اليه حيناً بعد
 حين ، ورجل كالغذاء لا يحتاج اليه أبدا •

ويحدث سيدنا عمر عن مكانة سيدنا أبي بكر من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول : كنت أدخل عليهما فيتكلم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالرمز معه فلا أفهم ما يدور من الكلام ، وكأني زنجي بينهما •

ولا تعجب من أن تكون لسيدنا أبي بكر تلك المكانة ، فانه أثر الله ورسوله بمحبته ، وبماله وبجهاده ، وصحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في السفر والحضر ، وكان صاحبه في الغار ، وفي الهجرة وفي الحرب ، وقد شرفه مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال فيه : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخى وصاحبى » كما قال فيه حين عاد صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ، قبيل وفاته — صلى الله عليه وسلم — « أيها الناس ، ان أبا بكر لم يسؤنى قط فاعرفوا له ذلك • • الحديث » كما أنه حين اشتد عليه المرض أنابه عنه في الصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس •

وقد بادل سيدنا أبو بكر ، مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حبا بحب ، حتى أنه كان يبكي عندما يدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الى داره ويقول : واشوقاه اليك يا رسول الله •

وكان من أثر هذا الحب الخالص ، أن سيدنا أبا بكر مرض لمرض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما شفى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — شفى من سروره برؤيته سيدنا أبو بكر ، وقال فى ذلك :

مرض الحبيب فعده

فمرضت من أسفى عليه

شفى الحبيب وعادنى

فشفيت من نظرى اليه

وقد انقطع أحد أتباع سيدي المرسى أبى العباس عن الاجتماع به فقال له : لم تنقطع عنى ، قال ياسيدي استغيت بك ، فقال — رضى الله عنه — معلما لنا : ما استغنى أحد بأحد ، وما استغنى سيدنا أبو بكر برسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم ينقطع عنه يوما واحدا •

ويقول السادة الصوفية بحق أن من جالس جالس ، فإن جلست مع المحزون حزنت ، وإن جلست مع المسرور سررت .. وإن جلست مع اللاهين سرت اليك الغفلة ، وإن جلست مع المتقين سرت اليك اليقظة ، كما يقولون :

والروح كالريح ان مرت على عطر
طابت وتخبث ان مرت على الجيف

والرسائل التي يتبادلها المرید مع شيخه ان لم يكن معه فى بلد واحد، يتلاقى فيها روحيا مع شيخه فيشبه شوقه ويوقفه على حاله وأخباره ، وفى رد الشيخ تثقيف وإرشاد وتوجيه ، وقد كنت أفرح برسالة شيخى فرحا لا حد له ، ومن تشغى بكتابته ، كنت أحفظ الرسالة أو أكاد من قراءتها مرة احدة ، وكنت أكرر قراءتها الفينة بعد الفينة ، وأتدبر ألفاظها وأتفكر فى غوامض خطابها ، وكان - رضى الله عنه - يكتب بلغة سهلة ممتعة ، لا تكلف فيها ، وكان خطه جميلا ، لا تشعب العين من رؤيته ، وكان يعلمنى أكبر قسط فى أقل سطور ، ولا أذكر أن رسالة له تجاوزت صحيفة واحدة من الحجم الصغير ، وخير الكلام ما قل ودل ، وبلاغ السلام بعض التلاقى كما قال الشريف الرضى فى شعره - رضى الله عنه - .

ولقد كتب بعض السلف الصالح الى تلميذ له كان يجنح الى الاشتغال بدنياء عن أخراه فكان فيما كتبه له : أخبرنى عن هذا الذى تكدر فيه ، وتحرص عليه من أمر الدنيا ، هل بلغت فيه ما تريد ، وأدركت ما تتمنى ، فقال لا والله ، فقال الشيخ : رأيته هذا الذى أنت حريص عليه لم تنل منه ما تريد ، فكيف تنال من الآخرة وقد أعرضت عنها وصرفت عنها ، فما أراك تضرب الا فى حديد بارد .

ويقول السادة الصوفية فى تفسير قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لعد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » : ان تسويف الأعمال الصالحة من نسيان النفس لأن المرء لا يدري متى يفجؤه أجله ، لذلك تراهم يبادرون بالأعمال ، ويستبقون الخيرات .

بقى ما يقوله سيدى الشيخ « وانما غايتنا الاطمئنان عليك ، وعليك
السؤال عنا : والاطمئنان هنا يقصد به الاطمئنان على دينى ودنياى ، ولا
يقف اطمئنانه على دنياى وحدها ، فان رابطتى به هى فى أصلها رابطة الدين ،
لانى سلمته نفسى ليربها فى جنب الله ، بما آتاه الله من فضله من قوة
اليقين ، ونور البصيرة ، والمرء ضعيف بنفسه فى مقاومة وساوس
الشیطان ، وحظوظ النفس ، والشيخ معوان له على نفسه وشيطانه .. أما
أمر الدنيا فيأتى فى المرتبة الثانية ، ودنيا المرید لا تكون حلوة مباركة الا
اذا استعملها فى مرضاته تعالى ليشكر نعمة الله ويتعرض للمزيد من فضله .
لذلك يقول سيدى وأستاذى الشيخ على عقل فى أهمية اتخاذ الشيخ
المربى وضرورته للمؤمن فى اجتياز عقبات النفس والشیطان :

إذا لم يكن للنفس شيخ له هدى
يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه
سوى ماهر يدري الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها
على موجة التيار ما نورها يسرى

ويرى السادة الصوفية ، أن التصوف فرض عين على المؤمن ، ويعمل
الامام الغزالى تلك الفرضية العينية بأنه اذا ديس حرمه الوطن صار
الجهاد فرض عين على كل مؤمن ، والشیطان عدو مبین ، ويجرى من ابن آدم
مجرى الدم فى العروق ، ويدوس حرمه النفس ، فوجب أن يدافع كيده ، ولا
يقوى الانسان وحده على رد كيده ، فيجب أن يستعين فى مغالته بأهل
التقوى واليقين ، لانهم أصحاب رقائق ودقائق وحقائق تذاق فى البواطن
ولا تعبر عنها الألفاظ ، والروح سر من أسرار الله وأحوالها من الاسرار
الروحية .

والناظر فى كتاب الله تعالى يرى حرص السلف الصالح على تربية
أبنائهم على الدين الصحيح ، فقد خلد الله تعالى ما وعظ به لقمان - عليه
السلام - ابنه « يا بنى انك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة

أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير • يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الأمور • ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور • واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير » •

وهي وصية كما تراها حملت الدين الخالص من أطرافه فقد دل الوالد ابنه على ما تصلح به نفسه من المراقبة الدائمة لله تعالى ، وكان لقمان — عليه السلام — من أهل الحكمة •

« ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد » •

والحكمة هي العلم النافع ، ولا علم أظهر من علم القلوب بالله • وزاده — عليه السلام — أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ومن وعظ نفسه صلح لوعظ غيره ، لذلك أمره أبوه بالمعروف ونهاه عن المنكر ، وكملة بالآداب الظاهرة والباطنة ليجعل منه مربيا لغيره فتتوارث دعوة الحق بين الناس •

وقول الله تعالى الذي سبق النصيحة المتقدمة جاء فيه : « واتبع سبيل من أناب الى ثم الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » ، فالإقتداء بأهل الانابة لازم ومحتم في التربية الدينية العالية ، لأن من أناب الى الله هداه الله فصار هاديا لغيره :

« الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب » •

لا بل ان القرآن الكريم نقل إلينا موقفا لسيدنا يعقوب — عليه السلام — حين حرص على عقيدة التوحيد عند ابنائه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة في هذه الدنيا فقال تعالى : « أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لنبية ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون » •

وهذا ما يعلم الآباء الحرص على رعاية عقيدة أبنائهم ، فانهم أمانة بين أيديهم ورعية لهم وكل راع مسئول عن رعيته « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر ، فى لزوم الشيخ : من لم يأخذ الطريق من الرجال ، فهو ينتقل من محال الى محال ، ويقول : الشيخ من حمل عنك المشقات وأشهدك منازل القربات .. ويقول : الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت وجال بروحك فى عالم الملكوت ، الشيخ من أطلعك على حالك لا من أخذ من مالك .

وأما قول سيدى الشيخ : وعليك السؤال عنا ، فان المرید الصادق يجب عليه أن يؤدى لشيخه حقه ، ولئن كان أبوه يربى جسده ، فان شيخه يربى روحه ، والروح جوهر ، والجسد كالصدف ، وتربية الوجدان أصعب كثيرا من تربية الابدان . وقد علمنا الله أن نعطي الوالدين حقهما وأن نواليهما بالرعاية والأدب العالى ، الدعاء ، وأن نخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وهذا ما يوجها الى احترام شيوخنا وتوقيرهم والدعاء لهم ، والسؤال عنهم . ولا شك أن رضاهم من رضا الله سبحانه ، ويا فوز من أحسن صحبتهم وأحسن الأخذ عنهم ، وكان سيدى المرسى أبو العباس اذا ذكر شيخه سيدى أبو الحسن الشاذلى - رضى الله عنهما - يقول :

لى سادة من عزهم
أقدامهم فوق الجباه
ان لم أكن منهم فلى
فى حبهم عز وجاه

ولقد كتب بديع الزمان لتلميذ قصر فى زيارته والسؤال عنه يعاتبه فكان فيما كتبه : « ولو لم تزرنا الا لترينا رجحانك ، كما طالما رأينا نقصانك ، لكان فعلا صائبا ، وفى القياس واجبا ، وقد يزور الطبيب المريض بعد خروجه من دائه واستغناؤه عن دوائه .. الخ » .

وجاء في عظة للامام الحسن البصرى التى كان يعلم بها تلاميذه ،
وينوه فيها بصحبة الصالحين الأخيار (ويعده أهل المعرفة أفضل التابعين) :

« يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك ، فانها عن قليل قبرك ، واعلم أنك
فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، رحم الله أمراً نظرت فتفكر ، وتفكر
فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، فقد أبصر أقوام ولم يقصروا ، ثم هلكوا فلم
يدركوا ما طلبوا ، ولا رجعوا الى ما فارقوا . »

« خذوا صفوة الدنيا ، ودعوا كدرها ، ودعوا ما يريكم الى
مالا يريكم ، ظهر الجفاء وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة . .
لقد صحبت أقواما ما كانت صحبتهم الا قرّة عين لكل مسلم ، وجلاء
الصدور . . ولقد رأيت أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم ، أشفق
منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا مما أحل الله لهم من الدنيا
أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . »

« ما لى أسمع حسيسا ولا أرى أنيسا ، ذهب الناس وبقي السناس ،
لو تكاشفتهم ما تدافتم ، تهديتهم الأطباق ولم تتهادوا النصائح ، أعدوا
الجواب فانكم مسؤولون ، ان المؤمن ما لا يأخذ دينه عن رأيه ، وانكن عن
ربه . . الخ . »

أما امامنا على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — فقد استحث المؤمنين
فى الطاعة فقال وما أبدع ما قال :

« وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة ، لجديرة بقصر المدة ، وان
غائبا يحدوه الجديدان ، الليل والنهار ، لحرى بسرعة الأوبة ، وان قادما
يقدم بالفوز أو الشقوة ، لمستحق لأفضل العدة . »

الى أن قال — كرم الله وجهه — :

« فبالها حسرة على ذى غفلة ، أن يكون عمره عليه حجة ، وأن تؤديه
أيامه الى الشقوة ، نسأل الله سبحانه ، أن يجعلنا واياكم ممن لا تبطره نعمة
ولا تقصر به عن طاعة الله غاية ، ولا تحل به بعد الموت ندامة ولا كآبة . »

واذا كان الأولون قد نبهوا المجتمع على النحو المتقدم ، فما أحوج مجتمع المسلمين فى المشارق والمغارب اليوم ، لأن يطرح حجب الغفلة عن القلوب الصادقة ، التى جرفتها زخارف الدنيا عن الصراط المستقيم وصرفتها أدوات الملاهى عن الاشتغال بأمر الآخرة ، حتى كأن الناس نسوا ربهم فأنساهم أنفسهم ، ولست أنكر أن العلم كثير ، والتذكير قائم ، ولكن أين من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فالعلم ليس غاية فى ذاته ، وانما هو وسيلة للعمل ، والعمل وسيلة لتربية القلوب فى جنب الله لأن الله — جلت حكمته — شاء أن ينتفع القلب من فعل الجوارح ، كما تنتفع الجوارح من أنوار القلب •

ويعمل الامام الغزالى ذلك فيقول : وذلك لسر العلاقة التى بين عالم الشهادة وعالم الملكوت ، فان ظاهر البدن من عالم الشهادة ، والقلب من عالم الملكوت بأصل فطرته وانما هبطه الى عالم الشهادة كالغريب ، وكما تنحدر من معارف القلب أنوار وآثار الى الجوارح ، فكذلك قد يرتفع من أفعال الجوارح أنوار الى القلب •

اللهم اجز عنا. سلفنا الصالح خيرا كثيرا ، واجز عنا شيوخنا خيرا كثيرا واجعلنا يا الهنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وقد قلت فيهم :

« أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

حب الله تعالى وحمده

— ١٨ —

« والحب لله أكبر كل أمر ، وهو الولي الحميد » •

بهذه العبارة ، قليلة الألفاظ ، كثيرة الدلالة ، علمنى شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، ان حب الله وحمده ، هما المعراجان اللذان يعرج عليهما المؤمنون الى كمال العبودية ، فالحب يحمله على الطاعة واسترضاء حبيبه وتوقى غضبه ، والحمد يكشف له عن موارد الاحسان التى تغمره فضلاً من ربه ، حتى يحس انه لا يستطيع أن يشكرها له سبحانه ، الا بعجزه عن شكرها ، فان من عجز عن عدها واحصائها ، لا يبلغ شكرها الا بذلك العجز ، وانما يكون التحدث بالنعمة مظهراً من مظاهر الاعتراف بجريانها عليه من النعم المتفضل سبحانه (وأما بنعمة ربك فحدث) •

على اننا لو قلنا ان المؤمن قد يعدد كثيراً من النعم الظاهرة له ، فانه فيما يعدد يقف عاجزاً عن الشكر ، لعدم استطاعته مكافأة ربه ، مهما بلغت طاعته ، لأن ايمان المؤمن بربه مثلاً وهو على رأس النعم ، قدره الله له فى سوابق الأزل ، ولم يكن المؤمن حينئذ شيئاً مذكوراً ، فكان العجز عن الشكر هو غاية الشكر ، لذلك جاء فى كتب التفسير انه حين قال تعالى (اعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادى الشكور) قال سيدنا داود عليه السلام : يارب كيف أشكرك والشكر نعمة منك تستوجب بدورها شكراً عليها (أى ان المعادلة فى الشكر لا تنتهى الى نهاية) ، فقال تعالى : ياداود الآن عرفتنى وشكرتنى •

وهذا أشبه بما يقوله سيدنا أبو بكر الصديق فى معرفته لله سبحانه وتعالى اذ يقول : سبحانه من لم يجعل الدليل الى معرفته الا بالعجز عن معرفته ، لذلك يقول السادة الصوفية : لا يعرفه الا من تعرف اليه ، ولا

يوحده الا من توحد له ، أى أن معرفته تعالى وتوحيده لا يكونان الا بعطائه لعبده ، فيعرفه تعالى اذا أراد أن يعرفه العبد ، ويوحده العبد اذا أراد الله له أن يكون من أهل التوحيد ، وهذا ما يفسر قول السادة الصوفية : ليس الايمان ما يتزين به العبد من الاقوال والأفعال ولكنه جرى السعادة فى سوابق الأزل (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) كما يفسر قول السيدة رابعة العدوية حين سألتها سائل : هل لو تبت يتوب الله على فقالت : بل لو تاب عليك لتبت .

أما ما فرق به العلماء بين الحمد والشكر بأن الحمد لله وحده ، والشكر يكون لله ، ولعباده الذين تجرى على أيديهم نعم الله ، فيؤيده قول الله تعالى فى الحمد (الحمد لله رب العالمين) وقول الله تعالى فى الشكر (ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) .

ويقول سيدى المرسى أبو العباس رضى الله عنه ، قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) أى قولوا الحمد لله رب العالمين ، أى أن الحمد لله ، حمد رب العالمين نفسه بنفسه وهو حمد له ولا ينبغى أن يكون لغيره ، وعلى ذلك تكون آل للعهد ، وقال سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه فى مقدمة كتابه السيرة الخليلية الذى وضعه فى مناقب شيخه العارف سيدى أبى خليل رضى الله عنه : يا مالک الحمد هب لى من لدنك علما يسع به ادراكى كيف يكون حمدك وشكرى ، فأحمدك وأثنى عليك كما ينبغى لجلال عظمتك .

وقد جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتابعه فيها سلف الأمة الصالح ان تبدأ الخطبة بحمد الله تعالى والثناء عليه ، لذلك يقال للامة المحمدية « الحمدادون » لكثرة حمدها لله تعالى ، وقد بين تعالى صفات كلمة المؤمنين : فقال عز وجل (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) أى بالجنة التى بشر بها المقاتلين فى سبيل الله فى الآية التى سبقتها وهى قوله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون

ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بمعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) وقد قالوا في سبب نزولها ان رجالا من الأنصار أنافوا على السبعين واجتمعوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة (في منى) فقال عبد الله ابن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فان فعلنا ذلك فمالنا ، قال الجنة قالوا ربح البيع ، لا تقيل ولا نستقيل فنزلت (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم .. الآية) •

ويقول الامام القرطبي في تفسيره : وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوض ولا يقاس به فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال ، فسمى هذا شراء ، وروى الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان فوق كل بر بر حتى يبذل العبد دمه فاذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك » وقال الشاعر :

الجود بالمال جود فيه مكرمة

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ويقول سيدي عمر بن الفارض في احدي غرامياته :

مالى سوى روحى وباذل نفسه

فى حب من يهواه ليس بمسرف

فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى

يا خيبة المسعى اذا لم تسعف

وبان من الآيتين السابقتين أن الجهاد نوعان ، جهاد الأعداء فى الحرب لاعلاء كلمة الله ، وجهاد النفس بالتوبة والعبادات ، لتزكى فى جنب الله تعالى ، ولكل من الجهادين نتيجة واحدة هى كسب رضاء الله تعالى ودخول الجنة التى أعدها تعالى لأهل رضوانه •

وإذا نظرنا الى العوض الذى أعده لأهل رضوانه ، نجده أكبر ولا شك من الجهاد المبذول فى ساحة الحروب أو فى جهاد النفس ، ذلك بأن حياة المؤمن محدودة فى هذه الدنيا بمدة أجله التى قدرها الله له ، وكيفما طالت فهي لا تتعدى عشرات السنين مما نعهده ، لكن نعيم الجنات خالد أبدي الآبدى ، ولا يقاس العمر النافذ ، بالنعيم الخالد ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما •

فاذا زالت غشاوة الحجاب عن القلوب ، ورأوا تلك الحقيقة ، هان عليهم ما يبذلون فى الجهادين ، جهاد السيف وجهاد النفس ، وحقا ما قاله السادة الصوفية : من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ويقول الامام الغزالي رضى الله عنه : ان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة ، فانك لا تباع الاثنين بواحد ، فكيف تباع مالا نهاية له بأيام معدودة •

والنفس والشيطان يعوقان سلوك المؤمن ، لأن النفس أمارة بالسوء بطبيعتها ، والشيطان يعاونها بتزيين المعاصي وأسباب الغفلة (تزيين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) •

فاذا تلهى القلب بزينة الدنيا ، خاض غمرات الدنيا ، ونسى جنات النعيم فلم يعد نفسه لدخولها مع المرضى عنهم ، وعلى ضده من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فانه لا يبيع دينه بدنياه ، بل يجعل دنياه ممر الأخره ، كما وعظه الله •

ولو لا مشقات الجهاد على النفس ، واختلاف الهمم فى طلب الله ، ما تفاضل المؤمنون وان تساوا فى العقائد ، وهذا يفسر لنا لماذا جعل الله المؤمنين على درجات ثلاث فى قوله الكريم (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) وقد خاطب الله تعالى عوام المؤمنين

فقال لهم (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون • كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) في حين وصف الخواص فقال تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) كما قال فيهم « في بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال • رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار • ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) •

وكذلك فرق الله بين القاعدين والمجاهدين فقال تعالى (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما • درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) •

وقد يشترك المؤمنون في عمل واحد ، ويفضل الله بغضهم على بعض ، لاختلاف ظروف العمل ، فمثلا تراه تعالى فضل الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله قبل فتح مكة على الذين أنفقوها بعد الفتح ، لأن شوكة المسلمين قبل الفتح كانت ضعيفة ثم قويت بعد الفتح وتمت للمسلمين الغلبة على أعدائهم الكافرين ، فتضحية الذين أنفقوا قبل الفتح كانت أعظم مشقة على النفس منها بعد الفتح ، وكذلك كان شأن القتال قبل الفتح أعظم درجة منه بعد الفتح ، ولذلك قال عز شأنه (وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) •

كذلك قد يكون العمل صالحا في ظاهر أمره ، والنية فيه مشوبة بعلّة تخفى على الناس ، ولا تخفى على الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، مثال ذلك ، مسجد الضرار الذي ندد الله بمن أقاموه بسوء نية فقال تعالى في شأنه (والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين

المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى ، والله يشهد انهم لكاذبون) وقد نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقوم فيه ، ومدح له مسجد قباء والمصلين فيه وأمره أن يصلى فيه فقال عز شأنه ، (لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) ولهذا أمر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أن يهدموا مسجد الضرار ويحرقوه فقال لهم : « انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه » فنفذوا ذلك الأمر على وجه السرعة .

لذلك يعنى السادة الصوفية بتصحيح النيات ، وتطهير الطويات ، فيقصدون بأعمالهم وجه الله تعالى ، لأنه تعالى قال (ألا الله الدين الخالص) وهم لذلك يخافون الله حتى فى الطاعات التى يأتونها ، خشية أن يداخل نفوسهم بها غرور أو عجب أو سوء ظن بغيرهم من أهل التقصير فى الطاعات وهم لا يدرون خاتمة المطاف ، فقد يتوب الله على العاصى ، فتحسن خاتمته ، وقد نزل قدم المطيع فتسوء خاتمته ، ومن هنا يحذرون الاستدراج . ويقول سيدى الامام المرسى أبو العباس رضى الله عنه : قد تلج المعصية فى الطاعة ، والطاعة فى المعصية ، فيتطبع العبد بالطاعة ، فيعجب بها ، ويعتمد عليها ، ويستصغر من لم يفعلها ، ويطلب من الله العوض عليها ، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات ، ويذنب العبد الذنب فيلجأ الى الله فيه ، ويعتذر منه ، ويستصغر نفسه ، ويعظم من لم يفعله ، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات .

وقد سألت شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى يوما عما كنت أحسه من ظل ثقیل لبعض أهل الطاعة دون أن أعلم عنهم سوء وقلت له انى اتهم نفسى فى احساسى نحوهم بانطماس بصيرتى ، ولكنى أرانى أستخف غيرهم ، وان كانوا اقل منهم همة فى الطاعات فقال لى رضى الله عنه : ان احساسك صحيح ، وثقل الظل الذى تحس به انما يأتىك من أنهم فى قرارة نفوسهم يعجبون بأعمالهم ، ويمنون بها على الله ، وأيد كلامه رضى الله عنه ، بانه زار مرة واحدا من هؤلاء وكان مريضا ، فقال

لسيدى الشيخ ، معترضا على الله ، لماذا يمرض مثلى ، انى اقيم الصلاة
فى أوقاتها ، وأصلى صلاة الفجر حاضرة ، وأصوم ، وأتصدق ، وأخذ
يعدد على الله أعماله فى جهل وغرور •

أقول والقرآن الكريم حذرنا ان تقع فى هذا الخطأ فى مثل قوله
تعالى (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض
والله بكل شئ عليم • يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم
بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ان كنتم صادقين) -

ويقول السادة الصوفية فى هذا المقام : القلوب أوعى ، فاذا امتلأت
من الحق ، أظهرت زيادة انوارها على الجوارح ، واذا امتلأت من الباطل
أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح ، وشهد لقولهم هذا قوله تعالى
(سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) وقد جاء فى تفسير الامام
القرطبى رضى الله عنه حديث عن جابر يقول فيه مؤلفا رسول الله صلوات
الله عليه وآله « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » وقال ابن
عباس ومجاهد : السيماء فى الدنيا وهو سمت الحسن ، وعن مجاهد
أيضا هو الخشوع والتواضع ، قال منصور : سألت مجاهدا عن قوله
تعالى (سيماهم فى وجوههم) أهو أثر يكون بين عيني الرجل ، قال لا :
ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركة العنز ، وهو أقصى قلبا من الحجارة ،
ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع ، وقال ابن جريج : هو الوقار
والبهاء •

فالمدار على القلوب كما رأيت ، لأن الله تعبد القلوب بالنيات ،
وتعبد الجوارح بالأعمال ، وانما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ،
ولهذا يقول سيدى الشيخ فى عبارته التى صدرت بها المقال : والحب لله
أكبر كل أمر ، والحب كامن فى القلب لا يراه الا الله تعالى ، والمدعون
كثير ، والصادقون قليل بل وأقل من القليل ، وما يعلمهم الا الله الذى قال
فيهم متوها بشأنهم (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين
يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) -

وقد ربت صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية على كنف سلمان الفارسي رضى الله عنه قال : هذا وذووه ، فدلنا صلى الله عليه وسلم على نوع المحب لله ، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم ألحق سلمان بآل بيته فى قوله صلوات الله عليه « سلمان منا آل البيت » وجاء فى حديث شريف آخر : (ان الجنة تشتاق الى أربع ، عمار وعلى وسلمان وبلال) ومن الحكم التى نقلت عن سيدنا سلمان رضى الله عنه قوله : انما مثل المؤمن فى الدنيا ، كمثل مريض معه طبيبه الذى يعلم داءه ودواءه ، فاذا انتهى ما يضره منعه ، وقال ان أكلته هلكت ، وكذلك المؤمن يشتهى أشياء كثيرة فيمنعه الله عز وجل منها حتى يموت فيدخل الجنة .

أما عن الولاية فيقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : اعلم رحمك الله تعالى باقباله عليك ، وجعل أنواره واصله اليك انما هما ولايتان ، ولى يتولى الله ، وولى يتولاه الله ، قال تعالى فى الولاية الاولى (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) « وقال تعالى فى الولاية الثانية (وهو يتولى الصالحين) » وهى التى خرجت للعبد من خزائن المنن على بساط المحبة ، أما الولاية الاولى ، فولایتك لله تعالى خرجت من المجاهدات ، وولایتك لرسوله خرجت من متابعة سنته ، وولایتك للمؤمنين خرجت عن الاقتداء بالأئمة فافهم ذلك .

ويقول سيدى أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه ، وهو امام الصوفية محدثا عن نفسه : لما دخلت فى طريق المحبة الذى يسلكه القوم (يقصد السادة الصوفية) ذقت حالا ، فكنت لا أتعقل أن أحدا يعبد الله لطلب ثواب ، ولا لخوف عقاب قط ، وأقول أى فائدة لما جاءت به السنة من الأحاديث فى الترغيب فى العبادات والترهيب فى ارتكاب المحرمات ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى عالم غير هذا ، وقال لى لو لم تبين للخلق مراتب العبادات وما فيها من الثواب ، ومراتب المحرمات وما فيها من العقاب ، لقامت الحجة علينا فى الآخرة ، وقيل لنا هلا بينتم مراتب الأحكام وما فيها من الثواب والعقاب ، لكننا بادرنا إليها فى دار الدنيا فقد

بينما ، فزال غنى ما كنت أجده ، وعلمت ما علمت فصلى الله وسلم عليه ما أحسنه من معلم وبالله التوفيق •

والمحبون يشهدون منة الله عليهم فيما يوفقون اليه من الطاعات ، كما يشهدون فضله تعالى فى قبولها ، والتجاوز عن عيوبها ، وهم يرون أن العبد إنما يأتى بالطاعات على سبيل العبودية والخضوع لربه ، والله يتفضل بقبولها على ما بها من نقائص ، ويضعون فى فهمهم هذا نصب أعينهم قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره) ولو بلغوا أعلى درجات الأولياء ويبررون ذلك بأن مولا رسول الله صلى الله عليه وسلم قام الليل حتى تورمت قدماه ، وكانت أوقاته كلها فى عبادة ربه ومع ذلك قال صلوات الله عليه فى مناجاته « سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما اثنيت على نفسك » وهذا من نظره صلى الله عليه وآله لجلال الله وهيبته •

ومحبة السادة الصوفية لربهم ، تقتضيهم جهادا مريرا فى تخلية قلوبهم من غير الله ، وتحليتها بذكر الله ، وهم يقولون : لا ينال غاية رضاه من فى قلبه سواه ، وهو مقام لا يذوقه إلا الخواص ، ونحن نستبعده لأننا من العوام لا من الخواص • فلا تعجب اذن أن يحكى الشبلى عن نفسه قائلا : قال لى استاذى انظر يا ولدى ان خطر ببالك من الجمعة الى الجمعة غير الله تعالى ، فلا تعد تأتنا ، فانه لا يرجى منك أن تكون تلميذا •

ويقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى تعقيبا على قول الشبلى فى كتابه الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية ، فاذا كان هذا حال تلميذهم ، فكيف حال شيخهم ، فتأمل حال هذا التلميذ ، وحال أكثر المشايخ الآن تعرف الفرق بين طالبى الآخرة وطالبى الدنيا •

والكلام فى المحبة والمحبين يطول ، والكتاب يقرأ من عنوانه ، ولا مطمع لنا أن نبلغ ما بلغوا مع قصورنا وتقصيرنا ، واقد اجتمعت مرة بأحد

علماء دمشق ، وكان مفتيا لاحدى الولايات ، وكان معروفا فى قومه
بصلاحه وتقواه ، وجرى الحديث فى المحبة والمحبين ، فقال رحمه الله كلنا
فى زماتنا يدعى المحبة ، وليس له من وسائلها قليل أو كثير وتمثل :

كيف الوصول الى سعاد ودونها
قن الجبال ودونهن حشوف
الرجل حافية ومالى مركب
والكف صفر والطريق مخوف

فقلت فى نفسى يكفى من وقوفنا على حال المحبين من أسلافنا ، أن
نعرف مدى تخلفنا ، وشعورنا بالنقص بداية السعى للكمال .

وأختم مقالى هذا بأبيات لأستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على

عقل :

وما كل السقاة له بساقى	شراب الحب يعرف بالمذاق
لقاء العيد أو كأس دهاق	وليس أخو غرام من مناه
من الشهوات طهر والنفاق	وليس بعاشق من لا تراه
به اسمو من الأخرى المراقى	إذا ما عشت لا أنسى الهى
ولا أرضى سوى التقوى خلاقى	أحب الله عن أدب وصدق
ولو بلغت بى الروح التراقى	يعز على ترك الحب عندى
شغلت عن الخلائق باشتياقى	تركت جميع خلق الله دونى
تعال املا كؤوسك من حقاقي	ألا يا ساقى العشاق مهلا
على خوف فمن خوفى مذاقى	غرامى قد مزجت به رجائى
فمنه ارى اصطباحى واغبتاقي	وروحى ادركت معنى التجلى
حرام ان يميل الى فراق	ومن عرف المحبة عن يقين

أطوف على الرحاب بكل ذل مریدا والیقین به انسیاقی
وكيف أحب غير الله يوما وليس سواه في الأكوان باق

والأبيات المتقدمة أراها من أعلا ما قرأته في الأدب الصوفي ، ويباهى
بها عصرنا الحاضر عصر الصوفية ، الزاهر في القرون الأولى ، وكم كان
لشيخنا الملهم من فيوضات وفتوحات ، نقلتنا من عالم الملك الى عالم
الملكوت .

الا رحم الله شيوخنا ، ورضى عنهم ، فقد رأينا فيهم ، مع تأخر زماننا ،
صورة صادقة للمحبين الأوائل ، الذين قال في شأنهم رب العزة جل شأنه
(الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا
يتقون . لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك
هو الفوز العظيم) .

اجتماع النعريد بشيخه وأثره في التربية الروحية

— ١٩ —

أهلا وسهلا بكتابك القيم ، الذى أزال وحشة البعد ، خصوصا وانى لم أحظ هذا الاسبوع بلقائكم ، وقد أصبح القلب يحن الى اللقاء دائما لتتمتع الأرواح بلقاء الأشباح ، وان كانت مجتمعة ، فلهه درك ، والله كتابك هذا ، واسأل الله أن يمنحك التقوى الثابتة وسعادة الدارين •

بهذه الكلمات الرقيقة ، وجهنى شيخى العارف بالله ، سيدى عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى أهمية اجتماع المريدين بشيخهم ، الذى يريهم فى جنب الله لتتمتع الأرواح بلقاء الأشباح ، وان كانت مجتمعة فى عقيدة التوحيد ، وفى محبة الله تعالى •

ويؤيد القرآن الكريم ، كما تؤيد السنة المطهرة ، ذلك التوجيه ، فقد سافر سيدنا موسى عليه السلام ، وهو كليم الله ، وصاحب التوراة ، سفرا لقي فيه نصبا ، ليلتقى بالخضر عليه السلام ، حينما أعلمه الله أنه رجل أتاده الله رحمة من عنده ، وعلمه من لدنه علما ، وحينما التقى به استأذنه فى اتباعه على أن يعلمه مما علمه الله ، شدا ، فكاشفه بأنه لا يستطيع صبرا على أمور يأتياها وتكون محل اعتراض من موسى عليه السلام ، والتمس له العذر فى الاعتراض عليها (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) فأجابه فى أدب وقال له (ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) فاشتراط عليه الخضر الا يعقب على فعله حتى يتبين جليلة الأمر (قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) •

وبقية القصة معروفة كما جاءت فى سورة الكهف الكريمة ، فكان الاعتراض ، ثم الاعتذار من سيدنا موسى عليه السلام ، وكان التبرير من سيدنا الخضر عليه السلام ، وانهت التبريرات بقول الخضر عليه السلام (وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) .

والحق ، انها قصة رائعة ، تدل على شرف اصحاب القلوب المتصلة بالله تعالى ، الذين يتلقون من عطائه ، علومهم اللدنية ، التي تفضل سبحانه فأعطاها أول ما أعطى من البشر ، أباهم آدم عليه السلام حين علمه الاسماء كلها ، وكان قبلها لا يعلم شيئا منها ، ثم زاده شرفا فجعله معلما للملائكة ، حين جهلوا ما علمه آدم عليه السلام ، فسبحان ربنا من عليم خبير ، كما تدل القصة على شرف علم التصوف ، وهو علم الفيض ، الذي تمتلىء به وبأسراره قلوب أصفياء الله ، الذين يختارهم بعلمه ، ويصطفيهم لنفسه ، ويعلمهم من كلماته التي لا تنفذ ، اظهارا للسعادة التي جرت لهم في سوابق الأزل ، ليكونوا دعاة الى الله ، بالحال وبالمقال ، فمن شاء الله هدايته على أيديهم دلهم عليهم ، ليأخذوا عنهم ما شاء الله أن يأخذوا ، فهم الأدلة المرشدون في متاهات الغفلة ، وظلمات النسيان ، يرشدون التائه الى طريق الهدى ، ويذكرون الناس بيوم لا ريب فيه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم •

كما أن القصة تعلمنا ، كيف يكون التواضع لعباد الرحمن ، فقد ضرب لنا سيدنا موسى وهو من المرسلين أولى العزم ، المثل في هذا التواضع ، وبين كيف يحرص المؤمن على تقوية صلته بالله ، وكيف ينزل المتعلم من معلمه ، وكيف يجاهد في سبيل العثور عليه ليسمع منه ، ويأخذ عنه فيزداد خيرا في دينه • وقد علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرص على نوال الزيادة في الدين فقال صلى الله عليه وآله (اذا طلع على يوم لا أزداد فيه علما يقربني الى الله عز وجل فلا بورك لى في طلوع شمس ذلك اليوم) •

وقد بين لنا سيدنا الخضر ، كيف يصبر المتعلم ، حتى تتكشف له أسرار امامه ، فيما لم يحط به خبرا ، وكيف يحسن ظنه بامامه ، فيما يبدو له غامضا من تصرفاته ، وكيف يؤول الى الخير تلك التصرفات ، مادام قد أحسن اختيار الامام وتأكد له أنه من أهل اليقين الصادقين .

وليس معنى ذلك ، أننا نقر تصرفات الخارجين على أحكام الشريعة وآدابها من أولئك المدعين ، المشعوذين ، بل اننا نشترط أول ما نشترط ،

أن يقاس الامام بميزان الكتاب والسنة والجماعة ، لأن التصوف الحق مقيد بالكتاب والسنة ، وانما قد يتكلم فى مذاقات أهل اليقين ، بما لا يتسع له ادراك الناشئين ، ويكون موجها لأهله من السامعين ، لأن السامعين لهؤلاء الأئمة مراتب ، لذلك نرى المشايخ ينهون أهل البدايات عن قراءة كتب التصوف ، لأنها فوق مستواهم وقد يسيئون فهمها أو ينكرونها ، فيكون سوء الفهم ، أو الإنكار ، مضرا بالمريد فى سلوكه ، ومن الطبيعى ألا يكون غذاء الرجال الكبار مناسباً لمعدة الاطفال الصغار ، فلكل منهم ما يناسبه ويلائمه ، وكذلك غذاء الارواح يتناسب مع درجاتهم ومراتبهم فى السلوك .

وقد وجدنا بالتجربة العملية ، ان صحة رجال الله ، تكسب الهممة فى طلبه سبحانه ، وتلهب القلوب بالشوق اليه جل جلاله ، وتربط الارواح بعالم الملكوت الذى منه هبطت ، وتذيقها من الأسرار والرقائق والدقائق ما يحل عن الوصف ويدرك بالذوق ، ولا تعجب من ذلك فان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خير عباد الله من اذا رأيتهم ذكرت الله » ، ويقول كذلك صلوات الله عليه وآله « من بايع اماماً أعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه ، فليطعمه ان استطاع » .

وقد صدق الامام سهل بن عبد الله التستري فى قوله « ان الدين الحى هو ما صبه الصوفية حارا فى النفس الانسانية » ذلك بان السادة الصوفية لهم أسرارهم الروحية ، التى ينيرون بها الهدى للبصائر ، أكثر مما ينير الضوء للابصار .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه ، ان الانسان لا يصل بالحس الى شئ أرفع من المحسوسات المادية ، وقد يرتقى بعقله الى شئ مما يدركه الحس ، ولكنه لا يتجاوز نطاق المحسوسات .

أقول وقد فشل رجال الكلام فى أن يذيقوا القلوب حرارة الايمان ، وسعادة اليقين ، بينما نجح السادة الصوفية فى هذا المضمار ايما نجاح ، ويعمل الامام جلال الدين الرومى ذلك فيقول : ان المتكلمين والفقهائ ، انما يحومون حول رواق الوجود من غير أن يدخلوه لانهم لا يعرفون الحب ،

ويقول سيدى أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه ما طلبنا التصوف بالقليل والقال والمراء والجدال ، بل طلبناه بالجوع والسهر والافعال .

ويتعرض سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه لحب الصوفية لله تعالى ، وهو المعراج الذى يمرجون عليه الى المعرفة ومقام القرب فيقول : المحبة آخذة من قلب عبده كل شيء سواء ، فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنا بمعرفته ، والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغمورا فى مشاهدته ، والعبد يستزيد فيزداد ، ويفتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ليكسى حلل التقرب على بساط القربة ، فيمس أباكرا الحقائق وثيرات العلوم .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى الحب الالهى : ذبت اشتياقا ووجدنا فى محبتكم فآه من طول شوقى آه من كمدى يدى وضعت على قلبى مخافة أن يشق صدرى لما خاتنى جلدى ما زال يرفعها طورا ويخفضها حتى وضعت يدى الاخرى تشد يدى

أما سيدى ابراهيم الدسوقي رضى الله عنه فيقول :

حرام على من وحد الله ربه وأفرده ان يحتذى أحدا رفدا
ويا صاحبي قف بى مع الوجد وقفة أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وقل لملوك الارض تجهد جهدها فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى
وأما أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه :
فيقول فى الهامه الفورى الذى نقلته عنه :

وقفت على نجوى الاله جوانحى لذلك قلبى منزل كله ذكر
وأخليت قلبى من مناجاة غيره فأصبح طودا لا يزايله الغير
أسارع مشتاقا واسكت هائما وأنطق اجلالا وما عاقنى سير
ففى صحتى شوق وفى غفوتى هوى وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر
فاذا أنت ربطت بين الأولين والآخرين من السادة الصوفية ، وجدت
الجامع بين الفريقين عاطفة فوارة بحب الله ، والتفانى فى التقرب اليه ، لنيل

رضاه ، ورضاه سبحانه غاية دونها مجاهدات ظاهرة وباطنة ، لانكسبها الا بارشاد هؤلاء الكرام البررة ، الذين يقولون ، لا ينال غاية رضاه ، من فى قلبه سواه ، وقد بلغوا بذلك القمة ، فاذا أردت الهمة فى مرضاة ربك ، فخذها عنهم لأنهم اتصلوا به بعد أن قطعوا العلائق والعوائق فصار هو وحده مقصدهم سبحانه •

ويناجى سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ربه فيقول فى مناجاته :

« الهى ماذا وجد من فقدك ، وما الذى فقد من وجدك ، لقد خاب من رضى دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا ، الهى كيف يرجى سواك ، وأنت ما قطعت الاحسان ، أم كيف يطلب غيرك ، وأنت ما بدلت عادة الامتنان •

« كيف يشرق قلب صبور الأكوان منطبعة فى مرآته ، أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من غفواته » •

ولم يؤثر مثل هذا الكلام العالى الرقيق عن سيدى ابن عطاء الله قبل أن يتعرف الى أستاذه القطب العارف سيدى المرسى أبو العباس رضى الله عنه ، لا بل انه — كما حدث عن نفسه — كان فى أول أمره من المعترضين عليه ، وكان يرى ان مجالس العلماء أولى بالناس من مجالس الصوفية ، فلما اتصل بشيخه الجليل واستمع اليه ، أخذ عنه ، وانتفع منه ، وشاد بماثره وفضائله ، ورأى بالتجربة أن السادة الصوفية نالوا ما عند العلماء من العلم فشاركوهم فى علمهم ، ولكن العلماء لم يشاركوا السادة الصوفية فى مذاقاتهم الباطنة ، التى يعطونها بعد التطبيق الروحى الجاد لما علموه من الأحكام ، وهيات أن يثمر التطبيق الأخف مثل هذه الثمرات ، وأين تبلغ الرخص والتأويلات من العزائم والمجاهدات ، ويقول صلوات الله وسلامه عليه « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » •

ومشرب الحب الالهى انما أخذه السادة الصوفية عن أسلافنا الأولين،
الذين ورثوه عن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو القائل « أحبوا
الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى » ،
ويقول : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان ، أن يكون الله
ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا الله ، وأن يكره
أن يرجع الى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله
ورسوله أحب اليه من روحه التى بين جنبيه » .

واليك مناجاة سليله الشريف سيدى على زين العابدين بن الحسين بن
على رضى الله عنهم أجمعين :

« اللهم لك قلبى ولسانى ، وبك نجاتى وأمانى ، وأنت العالم بسرائرى
واعلانى ، فأمت قلبى عن البغضاء ، وأصمت لسانى عن الفحشاء ، وخلص
سريرتى وعلافتى من علائق الأهواء ، واكفى بأمانك عواقب الضراء ،
واجعل سرى معقودا على مراقبتك ، واعلانى موافقا لطاعتك ، وهب لى
جسما روحانيا ، وقلبا سماويا ، وهمة متصلة بك ، ويقينا صادقا فى حبك »

وقد تغنى صوفية العجم ، كما تغنى صوفية العرب ، بالحب الالهى ،
فى نظمهم ونثرهم ، واليك مناجاة من المتصوف العبقرى جلال الدين
الرومى ، تريك صورة من حبه فى ربه تعالى اذ يقول :

« يا من هو عزاء النفس فى ساعة الغم والحزن ، يا من فيه غناء
الروح عند مرارة الفقر والعوز ، يا من نحوه أولى وجهى فى حياتى
ووجودى ، يا من هو أنسى وفرحتى وسرورى » .

« لو أنى وهبت ملكا لا يبلى ، أو ان كنزا خفيا فتح لى يحوى كل
ما فى الوجود ، لسجدت لك روحى ، ووضعت وجهى فى الثرى وصحت
قائلا : ليس لى مراد غير حبك ، كل شئ يزول ويفنى ويذهب الى العدم ،
ويبقى نور الحب خالدا سرمديا » .

فانظر رعاك الله ، كيف يملك حب الله قلوب السادة الصوفية وكيف
تفيض بحب الله مشاعرهم ، وما خفى فى قلوبهم من مواجيد الحب أعظم
ولا شك مما نطقت به الألسنة ، اذ يصعب التعبير عن المذاقات اليقينية ،
وصدق العارف النبھانى فى قوله :

لا تسئل وصف حبهم فهو سر
بسوى الذوق ماله افشاء

وها هى كلماتهم تهز قلوبنا بعد قرون من قولها ، لأنها مغروفة من
معين القلوب الحية بالحب الخالد الذى لا يفنى مهما تقادم الزمن ، وكيف
يفنى حب وققوه لله تعالى ، وهو الذى يبقى بعد فناء خلقه ، سبحانه من
كبير متعال ، تنزل بحب فريق من عباده ، وشرفهم بحبه لهم ، وجعله سابقا
على حبهم له ، فقال جل شأنه : (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن
دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على
الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) ويحق لهم أن
يقولوا ما قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها :

إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذى فوق التراب تراب
وما قال سلطان العاشقين سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه :

وعن مذهبي فى الحب مالى مذهب
وان ملت يوما عنه فارقت ملتى

ولو خطرت لى فى سواك ارادة
على خاطرى سهوا قضيت بردتى

وهؤلاء المحبون المحبوبون ، كما انجذبوا بحبهم الصادق لرب
العالمين ، يجذبون غيرهم نحو هذا الحمى الأقدس ، فهم أشبه بالمغناطيس
الذى يجذب اليه بخاصيته الحديد غير المغنط ، وكل قرين بالمقارن يقتدى
وما أبدع ما يقوله الامام النبھانى رضى الله عنه :

ان اكن مذنبا فهم أهل غفو
أو يكن في القواد داء قديم
أو اكن نازح الديار فمنهم
أو اكن مثرىا ولست بهذا
وعلى الكون ان رضونى العفاء
قلديهم لكل داء دواء
لحظات تدنو بها البعداء
فمع الهجر ما يفيد الثراء

ويقول بعض صوفية الفرس :

ومن عاشر النفس الزكية لم يزل
يزيد بها حسنا على القرب والبعد

قالسعيد حقبا ، من رزقه الله اماما متبوعا على الهدى ، يأخذ بيده فى
طريق الرشاد ، ويدله على الله دلالة الخواص المراعين أنفاسهم مع الله ، وقد
كنت أجتمع بشيخى رضى الله عنه فأنس فى جنب الله أنسا لا يكيف ،
وكنت أنسى هموم الدنيا وأوضارها ، وانتقل الى فيحات الآخرة الرضية ،
فيلين قلبى من قسوته ويصحو شعورى من غفوته ، فتسعد روحى بربها ،
وتتشوف الى رضاه ، وتأنس بكلامه ونجواه ، فكأننى قطعت الدنيا الى
الآخرة فى لحظات يسيرات ، لكنها مباركات ، وما أبركها من أوقات كانت
تجمع شملنا على الله ، وانا اليوم أعيش فى ذكرياتها ، فان جذبتنى الدنيا
الى الغفلات ، هربت منها الى الذكريات ، وأعانتى بارىء الأرض
والسموات فردنى الى التعلق بحظيرة قدسه ، فمحت أنوارها العلية، ظلمات
النفس البشرية ، فرقت وارتقت ، وباعت الدنيا بالدين ، والغفلة باليقين ،
وصدق سبحانه وتعالى اذ يقول (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من
الشیطان تذكروا فاذا هم مبصرون) •

وسبحان من جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر
به بعد العشوة ، كما يقول امامنا الأكبر على بن أبى طالب كرم الله وجهه :
وسبحان من رد كيد الشياطين عن المؤمنين ، وجعله ضعيفا أمام ارشاد
المُرشدین ، الذين قیضهم للامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهدى بهم من
الضلال ، وعصم بهم من الفسوق ، وجعلهم أعوان خير فى مغالبة اهواء
النفوس ، وأقامهم بين الناس مثلا عليا يحتذونهم ، وينسجون على منوالهم •

وصدق امامنا الأكبر على بن أبي طالب إذ يقول منوها بفضلهم :
لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، أما ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً ،
لئلا تبطل حجج الله وبياناته ، وكم هم واين أولئك ، والله انهم الأقلون
عدداً ، والأعظمون عند الله قدراً •

وهاك ما وصف به أخونا الصوفي المرحوم الاستاذ المتولى قاسم ،
الذي كان مدرساً بالمدارس الثانوية ، شيخه وشيخى العارف بالله سيدى
عبد السلام الحلوانى قدس الله سره ، وجزاه الله عنا كل خير :

« كان عذب الروح ، جميل اللقاء ، أنيس المجلس ، حلو الحديث ،
قليل الكلام ، كثير الصمت ، فاذا تكلم بذ القائلين •

« وكان يربى الأرواح بالطف ما يكون من الرفق وحسن التدرج ، فلا
يلتوى به القصد ، ولا يصعب عليه المرام •

« وتجلس اليه فيقبل عليك بوجهه وبروحه فتنجذب اليه ، وتأنس به ،
وتستقى من هديه ، وتقتبس من نوره ، ويعز عليك فراقه فتود أن تبقى معه
على الدوام ، ولكن جليسه يشعر له — مع عذوبة روحه — بمهابة تغشى
النفوس ، وجلال يأخذ بمجامع القلوب •

« فكان رفع الله درجته ، يهدى الحائرین ، ويرشد الضالین ، بحديثه
الذى استوفى حظه من اقناع العقول ، واستمالة القلوب ، وبمنظرة المؤدبة ،
ذات التأثير العجيب ، وب نور الاخلاص الذى يشع من جبينه ، وتكاد تلمسه
فى نبرات صوته ، وبالقدوة الحسنة فى افعاله ، وبحسن السمى فى جميع
أحواله •

« لا يغضب ، ولا يصخب ، ولا يضجر ، ولا يعتب ، بل هو بطل
واسع الصدر كثير الاحتمال ، وأقوى ما كان ذلك فى مرض موته ، فقد

كان يحدث عواده ويؤنسهم ، حتى لقد ينسون أن مرض محدثهم تنوء به الجبال الراسيات ، ومن ذلك تدرك مبلغ ما انفق من ماله ومن أعصابه ، ومن ذات نفسه فى ذات الله ، مع حسن الصبر ، وجميل الاحتساب ، الى أن قال رحمة الله عليه :

« وقد أصابتني نازلة شديدة ، غشيني بسببها يأس غنيف ، كاد يهلك نفسى ، ويزعزع ايمانى ، فكان من فضل الله على أن هدانى على يد هذا السيد الكامل ، فتناول نفسى برفق وصبر عجيب ، وما زال بها حتى استقادت وزال نفارها ، واستقامت على الطريقة ، وأشرق عليها نور الحقيقة » .

وقد تربى شيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى فى طريق الحق على يد قطب عصره ومجدد قرنه سيدى القطب الكبير الحاج محمد أبو خليل ، رضى الله عنه ، وقد ألف فيه كتابه القيم « السيرة الخيلية » ، وقد جاء فى وصفه لشيخه :

« فى أوائل القرن الرابع عشر ، ظهر قطب هذا العصر ، الغوث العامل سلطان الذاكرين وتاج العارفين ، وقدوة العاملين ، وحبل الواصلين ، والشمس التى أشرقت على القلوب فاتتعت وبسط عليها شعاع الاخلاص فانبسطت ، وأمطر عليها غيث الرحمة فربت ، وبذر فيها بذور المعرفة فأنبثت وسقاها من ماء ايمانه فنمت ، ولاحظها بروح المناجاة فأينعت ، وتعهدا من عبث الشياطين وتعدى المفسدين ، فحفظت حتى أثمرت وعرفت مولاهم وخالقها معرفة حقيقية فابتهجت ، وذبت فيها روح الحياة الطيبة فألهمت ، وأعطاها معطى النعم علما من لدنه خالصا من شوائب الأغيار فظهرت من رجس الظهور ، ومن نقشات الشياطين فعملت بما علمت ، وسارت بسير أهل الحقيقة على ناموس الشريعة فسلكت ، وظهر الحق وزهق الباطل ،

ان الباطل كان زهوقا ، وقامت على ذكر الله فخشعت ، وخشعت الأصوات
للرحمن فلا تسمع الا همسا ، فآمنوا به ايمانا سلك بهم الى معرفة نفوسهم
ومن عرف نفسه فقد عرف ربه •

وقال المغفور له الشيخ عبد الباري الشرقاوى وكان من علماء الأزهر
يصف شيخنا الأكبر سيدى أبا خليل :

كان ملكا فلم يزل يترقى
فى المعالى حتى غدا ملكوتا

من يشاهده شاهد الافق الأعلا
وألهى جلاله المنعوتا

ألا رضى الله عن شيوخنا العارفين الأمثال ، الذين أوردونا المذنب
الفرات من بحورهم ، بحور الحب والصفاء التى يقول فيها أستاذى العارف
بالله الشيخ على عقل نور الله ضريحه :

وشراب الرجال علم وحلم
انما نحن فوق ذاك شربنا

اللهم اجعلنا على قدمهم ، واحشرنا فى زمريتهم ، وأظلنا معهم فى ظل
عرشك يوم يتحقق قولك الكريم (يوم ندعو كل اناس بامامهم فمن أوتى
كتابه يمينه فاولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون قتيلا) •

صفات الشيوخ العربيين

— ٢٠ —

أما رحلتكم المباركة ، فقد سرتنى جدا ، وأما الاذن فلديكم من زمن واذا أردته رسميا فانتظروا حتى أحضر واطلب لكم اجازة رسمية من المشيخة ، وانى أسأل الله لكم ولنا التوفيق والرضا ، وان يجعل وجهتنا اليه ، وان يفتح لنا طريق الخير .. انه سميع الدعاء •

كنت قد كتبت لشيخى الجليل سيدى عبد السلام الحلوانى عن رحلة قمت بها الى قرية مجاورة لأدعو فيها الى طاعة الله ، والتحلى بالفضيلة ، على مشرب السادة الصوفية ، الذين يخلصون النية لله ، فلا يخالطهم فيها ما ليس له سبحانه ، اذ ليس لهم من دونه قلة ولا مقصد ، وكنت يومئذ شابا ناشئا ، وكنت معجبا بذلك المشرب ، ومتحمسا لنشره ، فى زمن اختلطت فيه على الناس الأمور ، وصار أمر الدنيا فى موازين الناس راجحا على أمر الآخرة ، حتى كأنهم خلقوا للدنيا ، ولم يخلقوا للآخرة ، وكثير من المستغلين بتربية الناس فى الدين ، تغلبهم نزعات شخصية تنأى بهم عن التصوف الحق ، وتنأى بأتباعهم عنه ، ويتخذون التصوف حرفة لا يتخذونه مسلكا ومنهاجا •

وكان شيخى رضى الله عنه ، يحذرنا كثيرا من فتنة النفس ، ومن تلويث النيات بالدنايا الحقيرة ، التى يضل بها سعى الناس ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وقد قال لى مرة ، حاولت جهدى ان أستل حب الدنيا من قلوب اخواننا فلم أستطع ، كما قال لى مرة أخرى ، انى أعتبر اخواننا هؤلاء من المؤلفات قلوبهم للتصوف ، والا فالتصوف له رجال ، وقال

مرة ثالثة على مسمع من اتباعه ، والله لو أن معنى خمسين الفا وانفضوا
عنى ما عبأت بهم ، لأننى مع الله ، مع ملك الملوك ، وهذا شأن كلمة الشيوخ
العارفين الذين يستغنون بالله فلا يفتقرون لغيره سبحانه •

ونم يكن الشيخ قد أذن لى بتلقين العهد ، وارشاد غيرى فى سلوك
طريق التصوف ، وكنت قبل القيام بالرحلة ، قد رأيت فى المنام مرتين ، انى
ألقي العهد ، كما لقننيه شيخى ، ولم أعبأ بالرؤيا المنامية ، لاننا تعلمنا من
مشايخنا أن الرؤيا سر ولا تفر ، فكأننى لم أر شيئا ، لكنى بعد ان القيت
محاضرة فى مسجد القرية ، يوم الجمعة ، تقدم لى إليف من طلبة العلم
بالأزهر ، وطلبوا أن ألقنهم عهدا بسلوك طريق التصوف ، فتورطت
وترددت بين أن أتلقف الفرصة ، واكسب لطريق التصوف بعض الناشئين
من طلبة العلم ، الذين سيكونون من رجال الدين الداعين الى الله وبين
أن أحجم اذ ليس لدى اذن بتلقين العهد ، فجاءتنى فكرة ان اتوسط فى
الأمر واتوب معهم الى الله ، حتى يشرف الشيخ بلدتهم ويلقنهم العهد ،
وتفدت الفكرة ، وكتبت بما تم من أمر الرحلة والتوبة لسيدى الشيخ ،
واذا به يرد على ، وتأتى فى رده العبارة التى جاءت فى صدر هذا المقال •

وكانت دهشتى كبيرة ، أن نوه الشيخ بالاذن الذى حملت عليه الرؤيا
المنامية مرتين ، والتبى لم احفل بها ، خشية أن يداخلنى من الرؤيا ، ما ليس
له تعالى ، حيث علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نستغفر
الله من عمل اردنا به وجهه ، فخالطنا فيه ما ليس له ، ثم زاد الشيخ الأمر
وضوحا ، فقال : وان اردته رسميا فانتظروا حتى أحضر واطلب لكم
اجازة من المشيخة ، ولكنى مع طول عشرينى لسيدى الشيخ ، رأيت له معى
ومع تلاميذه الآخرين آيات أخرى تصغر بجانبها تلك الواقعة ، والله يختص
برحمته من يشاء •

ولاذن الشيخ بالارشاد أهميته عند السادة الصوفية ، لأنه وصلة
برجال السلسلة ، خلفا عن سلف ، فتصاحب المأذون له بركتهم ، والرابطة
الروحية ، اقوى أثرا من رابطة الأجساد ، وقد علم الله الخلف ، ان يذكروا

اسلافهم ، والا ينسوهم » والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا
ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا
انك رؤوف رحيم » كما بين لنا أن السلف يذكرون الخلف في مثل قوله
تعالى : « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء » وقوله
تعالى : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا
للمتقين اماما » ، هذا فى الأقربين ، أما بين المؤمنين عامة ، ففرض الله صلاة
الجنائزة ، وجعلها فرض كفاية ، ان لم يؤدها البعض ، أثم الجميع ، وصلاة
الجنائزة دعاء بالمغفرة والرحمة للميت من أموات المسلمين ، فهى رابطة
روحية ، والا فالله قادر على المغفرة بغير دعاء ، لكن شاعت حكمته تعالى ،
ان يرزق البعض بالبعض ، فى أمور الدنيا وأمور الآخرة ، فان اعترضنا
على ذلك اعترضنا على تدبيره العالى ، وليس لنا ان نفعل ، وهو الحكيم
العالىم .

بل انه سبحانه ، ربط الملائكة الأعلى ، بأهل الأرض ، لأن الأرواح هبطت
فى الاجساد من الملائكة الأعلى فجعل سبحانه الملائكة يستغفرون لمن فى الأرض
فقال تعالى : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم
ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلمنا
فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم
جنت عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك
أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته
وذلك هو الفوز العظيم » وما كنا نعلم ذلك لولا ان كشفه الله تعالى
وبينه لنا ، فسبحانه من عليم خبير ، ومن رؤوف رحيم .

وأهل الكمال من السادة الصوفية ، يشددون فى تخلص النية لله
تعالى ، لا من الأغراض الدنيوية فحسب ، بل يخلصونها كذلك من
الأغراض الآخروية ، ولو كانت أغراضا طيبة عند أهل الايمان ولأنهم أهل
احسان فهم يطلبون الله وحده لذاته ، لا طامعا فى جنته ولا خوفا من ناره ،
ولقد سأل سفيان الثورى ، رضى الله عنه ، السيدة رابعة العدوية ، رضى
الله عنها ، ما حقيقة ايمانك ، فقالت : ما عبدته خوفا من ناره ، ولا حبا

فى جنته ، فأكون كالأجير السوء ، عبدته شوقا اليه ، وقالت رضى الله عنها ، أو لو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ، ولم يخشهُ أحد ؟

ويقول الحارث المحاسبى ، رضى الله عنه ، من اجتهد فى باطنه ، ورثه الله حسن معاملة ظاهره ، ومن حسن معاملة ظاهره مع جهد باطنه ، ورثه الله تعالى الهداية اليه ، لقوله عز وجل « والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا » وما دمتا قد ذكرنا الامام الحارث المحاسبى ، رضى الله عنه ، فلنذكر الذى قاله فيه الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه ، بعد ان استمع اليه : هذا من رجال الله ، وهذا علم من عند الله ، فلا تتعرضوا له ، فان لعلم الله تجليات صاعقة ، ولقد ملأ هذا الرجل قلبى ايمانا ونورا ، وانه لا أقدر منكم على قلوب الناس ، فدعوه يؤدى رسالته ، فما أحسب اليوم على وجه الأرض أفضل منه ، ولا أجدر بهدى المسلمين والأخذ بأيديهم .

ومثل الامام أحمد بن حنبل ، رضى الله عنه ، لا يشهد الا لله ، فهى شهادة صادقة ، من امام يضرب المثل بورعه وزهده ، فلنستمع الى سيدى الحارث المحاسبى ، وهو يبين لنا ، كيف اختار لتربية نفسه ، طريق التصوف ، فهم يقول :

انتهى الينا ، ان هذه الأمة ، تفرق على بضع وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرهما ، فلم أزل برهة من عمرى ، انظر اختلاف الأمة ، والتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد ، واطلب من العلم العمل ، واستدل على طريق الآخرة ، وارشاد العلماء ، وعقلت كثيرا من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء .

وتدبرت احوال الأمة ، ونظرت فى مذاهبها وأقاويلها ، فعقلت من ذلك ما قدر لى ، ورأيت اختلافهم بحرا عميقا ، قد غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصاة قليلة ، ورأيت كل صنف منهم ، يزعم ان النجاة فى تبعهم ، وان الهالك من خالفهم .

ثم رأيت الناس أصنافا ، فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاءه عسير ، ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غنية ، ومنهم المتشبه بالعلماء

مشغوف بدنياء ، مؤثر لها ، ومنهم عالم منسوب الى الدين ، ملتزم بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا ، ومنهم حامل علم ، لا يعلم تأويل ما حمل ، ومنهم متشبه بالنسك ، متجر بالخير ، لاغناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه •

ومنهم منسوب الى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقوى ومنهم متوادلون على الهوى يتفقون وللدنيا يتبادلون ورياستها يطلبون •

ومنهم شياطين الانس عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، والى جمعها يهرعون ، وفي الاستكثار منها يرغبون ، فهم فى الدنيا أحياء ، وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف •

ففتقدت فى الاصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعا ، فقصدت الى هدى المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر ، وأطلت النظر ، فتبين لى فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، واجماع الأمة ، ان اتباع الهوى ، يعنى عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويظيل المكث فى العمى ، فبدأت بأسقاط الهوى عن قلبى ، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتادا لطلب الفرقة الناجية ، حذرا من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحذرا من الاقتحام قبل البيان ، والتست سبيل النجاة لهجة نفسى ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، ان سبيل النجاة فى التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ، والورع فى حلاله وحرامه ، وجميع حدوده ، والاخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء بالله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محاربة المتأسين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، المؤثرين الآخرة على الدنيا .

فالتبست من بين هذا الصنف المجتمع عليهم اقصو آثارهم ، واقتبس من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرسا ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود

غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » وهم المنفردون بعلمهم ، فعظمت مصيبتى
بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت ، أن يفجأنى على اضطراب
من عمرى ، لاختلاف الأمة .

فقيض لى الرؤوف بعباده ، قوما وجدت فيهم دلائل التقوى ،
وأعلام الورع ، وإشار الآخرة على الدنيا ، ووجدت ارشادهم ووصاياهم
موافقة لأفعايل أئمة الهدى ، مجتمعين على نصيح الأمة ، لا يرجون احدا
فى معصية ، ولا يقنطون احدا من رحمته ، يرضون ابدا بالصبر على
البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحجبون
الله تعالى الى العباد ، بذكر ايامه واحسانه ، ويحثون العباد على
الانابة الى الله تعالى ، علما بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلما
بكتابته وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين فى البدع
والأهواء ، تاركين التعمق والاغلاء . مبغضين للجدل والمراء ، متورعين
عن الاعتياى والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ،
مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطاعمهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ،
مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجترئين بالبلغة من الأقوات .
متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين
من المعاد ، مشغولين ببعثهم ، مؤثرين على أنفسهم ، لكل امرئ منهم
شأن يغنيه ، علماء بأمر الآخرة ، وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم
العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم ، والههم المضنى ، فشغلوا عن سرور
الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدودا ، ضاق لها
صدرى ، وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع بحر لا ينجو من الفرق
فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لى فضلهم ، واتضح لى
نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ،
والمصاييح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشد بهم ، فأصبحت راغبا
فى مذهبهم ، مقتبسا من فوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محبا لطاعتهم ، لا
أعدل بهم شيئا ، ولا أؤثر عليهم احدا ، ففتح الله لى علما ، انفتح لى

برهانه ، وانار لى فضله ، ووجوت النجاة لمن أقر به أو اتحلّه ، وايقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الدين متراكما على قلب من جهله وجحدّه ، ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت اتتحاله والعمل بحدوده واجبا على ، واعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبّت فيه بأحوالى ، وسألت الله عز وجل ، أن يوزعنى شكر ما أنعم به على وان يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به من معرفتى بتقصيرى فى ذلك ، وانى لا أدرك شكره أبدا .

ويقول استاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه فى العلم الذى نوه به الامام المحاسبى رضى الله عنه :

وارتقاء الأرواح فى مورد العلم يصفى الأرواح من دنياها وانعدام الأهواء والحس منها هو معنى السمو فى مسراها وها أنت مما شرح لنا سيدى الحارث المحاسبى ، قد رأيت كيف علت همة السادة الصوفية عن سفاف الدنيا وعن مفاتها ، فاشتغلوا بالله وحده ، كسبا لرضاه فى الأولى والآخرة ، وقديما قالوا : لا ينال غاية رضاه من فى قلبه سواه .

واذا أردت أن تعرف ، كيف يرقون بمريديهم من مقام أدنى ، الى مقام أعلى ، فاستمع الى ما حكاه سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى عما وقع له فى بادىء أمره مع شيخه الامام سيدى عبد السلام بن بشيش رضى الله عنهما ، قال : وصف لى ولى وكان برأس جبل ، فصعدت اليه ليلا ، فقلت فى نفسى ، لا ادخل عليه فى هذا الوقت ، فسمعتة وهو يقول من داخل المغارة : اللهم ان قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك ، فسخرت لهم خلقك فرضوا بذلك منك ، اللهم وانى أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئى الا اليك ، فالتفت الى نفسى وقلت : يا نفسى انظرى من أى بحر يغترف هذا الشيخ ، فلما أصبحت ، دخلت عليه فارتعبت من هيئته ، فقلت يا سيدى كيف حالك ، فقال : أشكو الى الله من برد الرضا

والتسليم ، كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار ، فقلت : اما شكواى من حر التدبير والاختيار ، فقد ذقته وأنا الآن فيه ، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم ، فما ذقتها ، فقال : أخاف ان تشغلنى حلاوتهما عن الله .

فقلت يا سيدى سمعتك البارحة تقول : اللهم ان قوما سألوك الخ . فتبسم ثم قال : يا بنى عوض ما تقول سخر لى خلقك ، قل : يارب كن لى ، أترى اذا كان ذلك ، أيقوتك شىء ، فما هذه الجبابة .

ومن وصاياه البديعة لسيدى . أبى الحسن قوله له : الله الله ، والناس نزه لسانك عن ذكرهم ، وقلبك عن التماثيل من قبلهم ، وقل اللهم ارحمنى من ذكرهم ، ونجنى من شرهم واغنى بخيرك عن خيرهم ، وتولنى بالخصوصية من بينهم ، انك على كل شىء قدير .

ومن ذلك ندرك ، ان التربية فى جنب الله ، على مشرب السادة الصوفية ، يجب أن تتم بجد لا هزل فيه ، لأن الخاصة لا يعرفون الهزل فى ظاهريهم أو باطنيهم : بل هو جهاد دائم ، وهيام قائم ، ينتهى بإيثار الله ، على ما سواه ، فيمتلىء القلب بالانوار الربانية ، ويقول السادة الصوفية : اذا امتلأ القلب من النور ذك كل حجاب بين العبد وبين الله تعالى .

ويحدثنا سيدى ابو الحجاج الأقصرى ، رضى الله عنه ، عن جهاد نفسه فيقول : كنت فى بدايتى أذكر لا اله الا الله ، لا أعفل ، فقلت لى نفسى مرة ، من ربك ، فقلت ربى الله ، فقلت لى ، ليس لك رب الا أنا ، فان حقيقة الربوبية امتثالك العبودية ، فأنا أقول لك أطعنى تطعمنى ، ثم أقول قم ، تقم ، وامش ، تمشى ، وابطش ، تبطش ، فأنت تمتثل أوامرى كلها ، فاذن أنا ربك وانت عبدى .

قال فبقيت متفكرا فى ذلك ، فظهرت لى عين من الشريعة ، فقلت لى ، جادلها بكتاب الله تعالى ، فاذا قالت لك نم فقل لها : كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، واذا قالت لك كل فقل لها : كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، واذا قالت ، امش قل : ولا تمش فى الأرض مرحا ، واذا قالت لك ابطش قل :

واذا بطشتهم بطشتهم جبارين ، فقلت تلك الحقيقة ، فمالى ان فعلت ، فقلت
أخلع عليك خلع المتقين ، وأتوجك بتاج العارفين ، وامنطقك بمنطقه
الصادقين ، واقلدك بقلائد المحققين ، وأنادى عليك فى سوق المحبين
« التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون
بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » .

ولقد رأيت بحمد الله فى شيوخى ، صورة هؤلاء الكلمة من أهل
القرون السابقة ، فأهل الكمال ، وان كانوا قلة ، لكن الله يظهرهم فى كل
جيل ، ويجعل منهم مثلاً علياً ، يحتذيها السالكون الى الله ، الراغبون
فى طريق الرشاد ، ولقد عاشت شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام
الحلوانى قرأته ذا همة خارقة ، وما تخلف عن موالاة تلاميذه فى أية
ليلة ، حتى كان يتحمل مشقة الأسفار البعيدة عن مقر عمله ، داعياً الى الله
ويعود فى ساعة متأخرة من الليل ، ليدرك عمله فى أوقاته ، وكم أنفق من
ذات نفسه وماله ، ولقد صحبتته فى رحلة الى عمروس ، فى يوم صائف ،
شديد الحر ، ولما آذانى الحر ، تأملت اذ لم يكن معنا شمسية تقى الشيخ
حرارة الشمس ، فقلت ياليت لنا شمسية تقيك هذه الحرارة ، فاستدار ،
وقابلنى وجها لوجه ، وكانت تلك عادته رضى الله عنه ، وقال لى ، من
نقصد فى هذا السفر ، قلت : وجه الله تعالى ، قال : اذن هو الذى يحفظنا
ويقينا الضرر ، فكانت كلماته درساً نافعا لى من يومئذ ، فاذا فاتتنا
الأسباب ، فالله خير وأبقى .

وكان رضى الله عنه ، فى رحلاته ، لا يستريح ، حتى يطمئن على
راحة رفقاءه ، وكان يتحمل النفقات عن فقراءهم ، وكان اذا سار معهم
فى الطريق ، وتباعدا يقف حتى يلتئم شملهم ، وكان يلاطف الجميع
اذا جلسوا الى الطعام ، ويناولهم ما يبعد عنهم بنفسه ، وكان يدخل
السرور على مضيفه ، ويمتدح طعامه ، ويتفكه معه بفكاهات جميلة ، مع
الوقار والكمال .

واذكر أنى دعوته رضى الله عنه مرة الى طعام ، ومعه لفيف من أحبابه وأخرجت لهم خبزا رقيقا من صنع الريف ، فتعجب من رقة وسعة قطره ، بعض الآكلين ، الذين لم يكن لهم عهد بذلك الخبز ، فنظر رضى الله عنه الى وقال مبتسما :

يسأل عن خبزنا كيف رق كركة دمع المشوق الدمع
فقلت حلال وقد قيل قدما يرق الحلال ولا ينقطع
فسرتنى هذه البشرى ، ورجوت شيخى ، رضى الله عنه ، ان يعيدهما ، فأعادهما ، وحفظتهما من يومئذ ، وعلمت منه ، ان الشعر لوالده العارف بالله سيدى الشيخ احمد الحلوانى الخليجى ، رضى الله عنه .

ويذكرنى ذلك بواقعة اخرى ، فقد اشتركت مع الصديق الوفى ، الطاهر المطهر ، السيد حسين محمود فى البحث عن دواء كتبه الطبيب للشيخ ، وكان نادر الوجود فى زمن الحرب ، فلما عثرنا عليه ، وتناوله ، جعل الله له فيه الشفاء ، فلما ذهبت لزيارته ، سرنى ان اراه قد استرد عافيته بعد مرض شديد ، فنظر الى رضى الله عنه وقال :

يا جزى الله صاحبى جيلا صححا لى نصحا به صح حالى
قربا لى وصفا به قربا لى وصفا لى ذاك الذى وصفا لى
وعلمت منه ان الشعر لوالده رضى الله عنه وقد تمثل به .

فهل لنا من همة فى طلب الله ، وجهاد فى سبيله ، يزدهر به اليقين فى القلوب ، ويتغاطف المسلمون بعضهم على بعض ، ويأثفون ولا يثفون ، ويتعاونون ولا يتفرقون ، وليس العيب ان يكونوا فى العالم قلة ، ولكن العيب ان يكونوا اذلة ، بعد ان كانت لهم العزة ، وان يكونوا مسودين ، وقد كانت لهم السيادة فى العالمين ، ويرحم الله فيلسوف المسلمين السيد محمد اقبال الباكستانى ، حين يشيد بصلاح اسلافنا الماضين

الذين اشروا الهدى بين الناس فى قصيدته المسماة « شكوى » ، والتي
ترجمها عنه الى العربية العلامة الشيخ الصاوى شعلان ، فيقول
فيما قال كثيرا ، وخاطب به ربه جل وعلا :

الدين يحيا فى سعادة أهله والكأس لا تبقى بغير الساقى
اين الذين بنار حبك أرسلوا الـ أنوار بين محافل العشاق
سكبوا الليالى فى ألين دموعهم وتوضأوا بمدامع الأ شواق
والشمس كانت من ضياء وجوههم تهدى الصباح طلائع الاشراف
يا فرحة الايام حين نوى بها روض التجلى وارف الأغصان
ويعود محفلنا بحسبك مسفرا كالصبح فى اشراقه الفينان
ولا شك ان اصلاح البواطن له أثره الفعال فى صلاح الظواهر ، ولهذا
ربط الله بينهما فى قوله الكريم : « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى
عزيز • الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا
بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » •

الصوفية في مواقف النصيحة للامراء

— ٢١ —

« واني كنت أتمنى أن احظى بمجلسكم كثيرا كثيرا ، لأمتع الروح بتلك الوجوه الساطعة من اشراق قلوبها بنور المحبة واليقين ، ولكن هي الظروف ، وهي التي تجري بالقدر .. الله بديع السموات والأرض هو المقدر ، وقد رضينا بما يجري به القضاء ، أسأل الله أن يرينا وجهكم في أسر الاوقات وأسعد الحالات » .

يوجهنا شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى — قدس الله سره — فى عبارته المتقدمة ، التى جاءت فى احدى رسائله الى أخلاق صوفية كريمة ، تحلوا بها حين عملوا بما علموه من كتاب الله وسنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واخذوا فى عملهم بالعزائم والمجاهدات دون المرخص والتأويلات ، فأشرقت عليهم أنوار المحبة واليقين فازدادوا ايمانا مع ايمانهم ، ورضوا بقدر الله واطمأنوا الى قضائه ، حيث كان له الخلق والأمر ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فوجب التسليم له مع الأنس والسرور ، والصبر الجميل دون جزع أو حرج فى الصدور . ومن عرف ربه معرفة الخواص رضى بقضائه وصبر على بلائه وشكره فى رخائه .

وقد كان ذلك نهج اسلافنا الصالحين ، من السابقين الأولين ورثوه عن مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو القائل :

« ادبني ربي فأحسن تأديبي » واليك بعض ما قال امامنا الأكبر على ابن أبى طالب فى الثناء على الله وعلى قضائه وقدره جل جلاله :

« الحمد لله الذى لم تسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون
آخرًا ، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا ، كل مسمى بالوحدة غيره قليل،
وكل عزيز غيره ذليل ، وكل قوى غيره ضعيف ، وكل مالك غيره مملوك •
وكل عالم غيره متعلم • وكل قادر غيره يقدر ويعجز ، وكل سميع غيره
يصم عن لطيف الأصوات ، ويصم كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها • وكل
بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام • وكل ظاهر غيره غير
باطن ، وكل باطن غيره غير ظاهر •

لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ، ولا تخوف من عواقب زمان ، ولا
استعانة على ند مثاور • ولا شريك مكائر ، ولا ضد منافر • ولكن خلائق
مربوبون ، وعباد داخرون ، لم يحل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم
ينأ عنها فيقال هو عنها بائن •

لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجز عما خلق،
ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم وأمر
مبرم ، المأمول مع النقم ، الموهوب مع النعم •

أما قوله — كرم الله وجهه — : المأمول مع النقم ، فيؤيده قوله تعالى:
« فان مع العسر يسرا • ان مع العسر يسرا » ، ويقول مولانا رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — : « لن يغلب عسر يسرين » • • وأما قوله :
المرهوب مع النعم فيشهد له قوله سبحانه وتعالى : « سنستدرجهم من
حيث لا يعلمون » • • وقوله تعالى : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا
بياتا وهم نائمون • أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون »
وقد قال مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه « والله ما
الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها . كما
تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » .

وما دمننا قد أيقنا انه — سبحانه وتعالى — النافع الضار ، فوجب
أن نركن اليه سبحانه بكلياتنا وجزئياتنا • فى سرنا وجهرنا وان جاءتنا
أسباب بنفعه وضره • وجب علينا ان نشهده سبحانه قبل أن نشهد الأسباب
وقد علمنا سبحانه وتعالى ذلك فى كتابه الكريم فقال تعالى مثلا :

« أفرايتم ما تحرثون • أأتتم تزرعونه أم نحن الزارعون • لو نشاء
لجعلناه حطاما فظلمتم تفكهمون • انا لمعرمون • بل نحن محرومون أفرايتم الماء
الذى تشربون • أأتتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون • لو نشاء جعلناه
اجاجا فلولوا تشكرون • افرايتم النار التى توروون • أأتتم أنشأتم شجرتها
أم نحن المنشئون • نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين • فسبح باسم
ربك العظيم » وقوله « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ،
وان يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير » وقوله « قل لن يصيبنا الا ما
كتب الله لنا » •

واذا كان الله قد تعبد عباده بالتوحيد والطاعات ، فان نفع ذلك راجع
اليهم ، ولن يبلغ العباد نفعه فينفعوه ، وان يبلغوا ضره فيضره ، سبحانه
من غنى بنفسه •• يغنى غيره بعبائه ، ولا ينقص العطاء ما عنده ••
يستغنى عن خلقه ابد الآبدين ، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل منها •
كلهم سائل وأنت مجيب تلك نعماك ما لها من نفاذ
وقد علم مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ابن عمه عبد
الله بن عباس - رضى الله عنهما - فيما علمه :

« احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل
الله واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك
بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعت على أن يضروك
بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت
الصحف » .

لذلك لا تعجب أن يقول لنا السادة الصوفية فى حكمهم ، الرضا
بالمقدور نعم الوسيلة الى درجات المعرفة ، فدرجات المعرفة عندهم تتناسب
مع الرضا عن قضاء الله وقدره ويتناسب تصرف العبد مع ما ناله من
المعرفة •• وقد روى الامام القشيرى - رضى الله عنه - ان شقيقا البلخى
رضى الله عنه - سأل الامام جعفر الصادق - رضى الله عنه - عن
الفتوة . فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : ان أعطينا شكرنا وان منعنا

صبرنا ، فقال الامام جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل .. فقال شقيق يا ابن بنت رسول الله ، ما الفتوة عندكم ؟ فقال الامام جعفر : ان اعطينا آثرنا وان منعنا شكرنا .

وقد يقول قائل ، لماذا يشكر الامام جعفر عند المنع ، والشكر انما يكون على العطاء لا على المنع .. والجواب هو أن السادة الصوفية يرون العطاء فى المنع ، فقد يمنعك من شئ ليعطيك خيرا منه ، ولكنهم يقولون لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق .

واذا تمكن اليقين بالله فى القلب ، وتم التسليم لله فيما يجرى به قضاؤه ، قوى خلق المؤمن فصار ضائرا فى مواطن الشدة ، وشجاعا فى مواطن الحرب ، واحب لغيره ما يحب لنفسه وكره له ما يكره لها .. وألف الناس وألفوه .. ولا يكون له أعداء ، وانما قد يكون له حساد ممن استحوذ عليهم الشيطان ، فكرهوا ما أحب الله ان يكون لأن الشيطان سن الحسد للحاسدين حين أبى أن يسجد لآدم — عليه السلام — مع الساجدين فقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فباء باللعنة الى يوم الدين .

وينصحن السادة الصوفية فيقولون : رد نفسك الى الله طاهرة كما تلقيتها منه طاهرة . ولهذا لا تعجب ان يرضوا ربهم فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم أو صولة حاكم ظالم .. واليك على سبيل المثال ما وقع بين الحجاج بن يوسف — سافك الدماء — وبين طاووس اليماني الصوفى — رضى الله عنه — فقد استدعاه الحجاج فى يوم اشتد برده ، فقال الحجاج متزلفا للصوفية ، يا غلام : هلم الطيلسان ، فلما وضع الحاجب الطيلسان على كتفى طاووس ، حرك كتفيه حتى سقط فغضب الحجاج وسل الحرس سيوفهم ، ثم كظم غيظه وأطرق .. ثم رفع رأسه وقال لطاووس : ناوئى المحبرة — وكانت بجواره — اشارة الى أنه سيكتب له بعطاء ، فأبى طاووس أن يمد إليها يده فسأله عن سبب امتناعه فقال : حتى لا تكتب بمدادها ما يغضب الله .

فأطرق الحجاج ثانية ، ودمدم الحرس .. ثم رفع رأسه وقال : يا أبا الفضل ، أعليك دين قال نعم .. قال ما مقداره ، قال دين لربى هو أن أندرك يوما لا تغنى عنك من الله تلك السيوف التى تحيط بك .. فأطرق الحجاج طويلا ، ثم رفع رأسه فقال : اذهب عنى ، فلا يزال فى لسانك جفوة البداوة .. فخرج طاووس وهو يقول : الحمد لله الذى أذهب عنا السوء ، ونجانا من القوم الظالمين .

فلما وصل الى صحبه ، قيل له : ألم ترهب الأمير ؟ قال : رهبتى من الله لم تدع فى قلبى مكانا لرهبة غيره .

وقعد اليه ذات يوم أحد أبناء سليمان بن عبد الملك - وهو خليفة - فلم يحفل به ولم يلتفت اليه ، فقليل له : ابن أمير المؤمنين ؟ قال أعرفه وقد أردت أن أعلمه ان الله عبادا يزهدون فيه وفى أبيه .

وقد دافع الصوفى العابد الزاهد ، أبو نصر الطائى ، عن حق الأمة .. حين اشتد بطش سليمان بن عبد الملك وحاشيته بالشعب .. وحكموهم بالظلم ، فذهب اليه وصرخ فى وجهه :

سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن ، تأدية لحق الله تعالى .. انه قد اكتشف رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ورضوا بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا .. فلا تأمنهم على ما ائتمنتك الله عليه ، فانهم لم يألو الامانة تضييعا .. والامة كسفا وخسفا .. وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس عند الله غبنا من باع آخرته بدنيا غيره .

ولعل الامثلة المتقدمة ، تصحح عند بعض الناس الفكرة الخاطئة بأن الصوفية قوم اعتزلوا المجتمع الذى يعيشون فيه .. ولم يتحملوا مسئولياتهم الاجتماعية ، ولعل تلك الفكرة علقت بالأذهان منذ صار التصوف فى العصر التركى شكلا لا روح فيه ، وأصبح حرفة للسيطرة على الأتباع وكسب المال .. وذلك خروج كلى عن التصوف الحق ، وللتأكد من ذلك الخروج ، نضع تحت نظر السادة القراء تعريف التصوف كما قاله

سيد الطائفة الصوفية فى القرن الثالث الهجرى ، وهو الامام أبو القاسم
الجنيد — رضى الله عنه — فقد عرف التصوف فقال :

« هو تصفية القلب عن موافقة البرية .. ومفارقة الاخلاق الطبيعية ..
واخماد الصفات البشرية .. ومجانبة الدواعى النفسانية .. ومنازلة
الصفات الروحانية .. والتعلق بالعلوم الحقيقية .. واستعمال ما هو اولى
على الأبدية .. والنصح لجميع الامة ، والوفاء لله على الحقيقة .. واتباع
الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الشريعة » .

فكيف يكون القانع بالشكل صوفيا .. والتصوف فلسفة عالية ، تقوم
على الجهد الذى لا هزل فيه لنيل رضا الله .. وفى رضائه — سبحانه —
السعادة الابدية ، ودون بلوغ تلك الغاية عقبات ومجاهدات لا يقطعها ولا
يصبر على مشقاتها الا قلة من المؤمنين ، « سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم
كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا .. صدقت مجاهداتهم فنالوا
علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمحووا علوم الوراثة » .

وقد قيل للامام ابن السماك — رضى الله عنه — ما الكمال ؟ فقال :
الكمال الا يعيب الرجل احدا بعيب فيه مثله ، حتى يصلح ذلك العيب من
نفسه ، فانه لا يفرغ من اصلاح عيب حتى يهجم على آخر فتشغله عيوبه
عن عيوب الناس .. والا يطلق لسانه ويده حتى يعلم أفى طاعة أو معصية
.. والا يلتبس من الناس الا ما يعلم أنه يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم
من الناس باستشعار مداراتهم وتوفية حقوقهم ، وأن ينق الفضل من ماله
ويمسك الفضل من قوله » .

ومن دعاء سيدى ذى النون المصرى — رضى الله عنه — : اللهم اجعل
العيون منا فوارات بالعبرات ، والصدور منا محشوة بالعبر والخرقات ..
وأجعل قلوبنا غواصة فى موج قرع أبواب السموات ، تائهة من خوفك
فى البوادر والقلوات .. واقتح لابصارنا بابا الى معرفتك ، ولمعرفتنا
افهاما الى النظر فى نور حكمتك ، يا حبيب قلوب الوالهيين .. ومنتهى
رغبة الراغبين .. اللهم تقبل ما مننت به علينا من الاسلام والايمان ..

ولا تمنعنا عفوك عند السؤال ، فانا اليك آييون ، ومن الاصرار على معصيتك تأييون » •

ومن قواعد الفتوة عند السادة الصوفية ان يكون المؤمن ساعيا دائما فى أمر غيره •• تحقيقا لقوله — صلى الله عليه وسلم — : « لا يزال الله فى حاجة العبد ، ما دام العبد فى حاجة أخيه » •

ويقول الامام أبو على الدقاق — رضى الله عنه — ان هذا الخلق لا يكون كماله الا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فان كل أحد يوم القيامة يقول نفسى نفسى وهو — صلى الله عليه وسلم — يقول : أمتى •

وكيف يعتزل السادة الصوفية المجتمع •• وهم الدعاة فيه الى الفضيلة الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وهى دعوة تعين الوالى ، فيما يعمل له من اصلاح المجتمع واسعاذه فيتعاون الناس ويتراحمون ، ويتفشى فيهم حب الخير واجتناب الشر ، وينعمون بالأمن أفرادا وجماعات •• حكاما ومحكومين •

وانما الأهم الأخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ودعوة السادة الصوفية نجحت فى كل الأزمان فى تقويم الأخلاق لانها دعوة علمية عملية ، أو نظرية وتطبيقية •• والتصوف كله قائم على التجربة والعيان ، قبل أن يقوم على الدليل والبرهان •• فقد يكون الانسان عالما بالطب ، وسقيما فى بدنه ، لأنه لم يحاول أن ينتفع عمليا بعلمه •• وكذلك قد يقرأ الانسان كل كتب التصوف ولا يستتبع هذا أن يكون متصوفا ، لأن التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى ، وذلك لا يتم بالقراءة وحدها ، وانما يتم بالممارسة والمخالطة والارشاد من شيخ عارف بالله ، لأن للنفس آفات أخفى من ديب النمل لا يحس بها الا العارفون بالله عن تجربة سبقت لهم ، وعناية الهية هياتهم •

وليس معنى التسليم لما يجرى به القضاء الا تتخذ الاسباب ارتكانا على القضاء .. فالاسباب قامت بأمره وتديره — سبحانه — فاتخاذها واجب مع الاستعانة فيها به — سبحانه — وليس معنى التسليم الا تتأثر بما يجرى به القضاء بحكم البشرية .. فان أصابنا خير فرحنا .. ولكن دون أشر أو بطر أو خيلاء أو ججود نعمة .. وان أصابنا شر تأملنا .. ولكن في صبر جميل ، وهو الذى لا شكوى فيه للناس .. أو فى قرارة النفس مكتومة .. كل ذلك فى رضا بما قضى الله وقدر وتسليم مطلق لما شاء ودبر .

واذا كانت من المؤمن شكوى فلتكن لله وحده ، كما قال سيدنا يعقوب عليه السلام : « إنما أشكو بثى وحزنى الى الله » او كما قال مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين مات ابنه ابراهيم — عليه السلام — « يحزن القلب وتدمع العين ولا تقول ما يسخط الرب » .. ولقد دخل محمد بن واسع « من تلاميذ الامام الحسن البصرى » وهو من أئمة الصوفية على قتيبة بن مسلم ، وعليه مدرعة من صوف فقال ما هذا ؟ فسكت .. فأعاد عليه السؤال فقال أكره أن أقول زهدا فأذكى نفسى .. أو فقرا فأشكو ربى .

وقد سئل استاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل — رضى الله عنه — أن يتجمل الهاما لوقته على قول القائل :

الله قل وذو الوجود وما حوى ان كنت مرتادا بلوغ كمال
فكان مما قال ونقلناه عنه :

الله قل وذو الوجود وما حوى	متأدبا فى ساحة الاجلال
سلم لتسلم من حياتك انه	من أسلم التقوى سما بظلال
واجعل لنفسك من قضا الله الرضا	حتى تكون موفق الاعمال
ان كنت تحسب ان فى المال الغنى	أنا قد جعلت رضا المهيمن مالى
يارب قلبى قد غسلت من الورى	اذ ليس غيرك ما ذكرت ببالى
ان مر بى عصف الزمان وقصفه	والله لست بما شهدت أبالى

أأخبه وأخاف سطوة غيره
روض المحبة قد شهدت جلاله
والقول لا يغني بلا قلب فان
سلم لربك أمره واترك له
وذر العباد وشأنهم وفعالهم

هذا وحقق لا تعيه خصاله
وجماله فثبت في أحوالي
تنطق فكن بالناطق المفضال
أقداره واحذر من الأقوال
ان كنت مرتادا بلوغ كمال

ونقلنا عنه كذلك من الهامه الفورى قوله فى مناجاة ربه تعالى :

لقاؤك ايمانى وذكرك حجتى
وأرضى بما يرضيك ربي فنجنى
وقد طاب لى بالذكر ما أنا قاصد
بحزم علمت الحب بالعلم خضته

وحبك روحى واليقين وتينى
حياتى وقومنى فأنت معينى
وفى عزة التقوى جمعت شئونى
ففى شدتى ألقى نداك ولينى

أرأيت من البيت الأخير ، كيف يرى استاذى — رضى الله عنه —
الندى فى الشدة كما يراه فى اللين ، ولا يكون ذلك الا عن يقين عميق
ومذاق دقيق .. شأن العارفين بالله ، وقد حدث اسحق بن ابراهيم قال :
سمعت ذا النون وفى يده الغل ، وفى رجله القيد .. وهو يساق الى
السجن يوم أن وشى به الى الخليفة والناس سيكون حوله وهو يقول
باسما : هذا من مواهب الله تعالى .. ومن عطاياه .. وكل فعالة عذب
حسن طيب ثم أشهد :

لك من قلبى المكان المصون
لك عزم بأذن أكون قتيلا

كل لوم على فيك يهون
فيك والصبر عنك ما لا يكون

ولا يكون مثل هذا التسليم الفذ الا من يقظة الشعور فى قلوب
العارفين .. وهذه اليقظة لا تتأهى الا بعد امتلاء القلوب بمحبة الله ،
وانصرافها عما سواه .. وهو هدف السادة الصوفية ، الذى يدعون
اليه .. ولا يحيون الا به وله .. ولذلك يقول القطب الكبير سيدى
ابراهيم الدسوفى — رضى الله عنه — فى احدى مناجاته :

لما علمت بأن قلبى فارغ
وملأت كلى منك حتى لم أدع

ممن سواك ملأته بهواكا
منى مكانا خاليا لسواكا

فالقلب فيك هيامه وغرامه
والطرف حيث أجليه متلفتا
والسمع لا يصغى الى متكلم
الا اذا ما حدثوا بحلاكا
والنطق لا ينفك عن ذاكرাকা
فى كل شىء يجتلى معنأكا

وقد وضع لنا الآن الفارق الكبير بيننا وبين السادة الصوفية
الذين أراحوا أنفسهم من هموم الدنيا التى تنوء بها والتى تسبب لنا
أمراض الجسد والروح والايمان بالله تعالى أكبر النعم .. وقد حدثنى
أحد اصدقائى من الاطباء أن اباحت هيئة الامم دلت على أن البلاد التى
كانت مهبط الرسالات السماوية أقل البلاد اصابة بالأمراض العقلية
والعصبية المعلقة القائمة بين راحة النفس والغدد الصماء حتى أنهم الآن
يعتمدون فى علاج المرضى على الطب النفسانى وينصحون المرضى بارتياح
المساجد وأماكن العبادة .

ولئن كان الفارق كبيرا بيننا وبين أسلافنا الصالحين فى جهاد النفس
حيث شغلنا المادة كثيرا عن الروح .. ففى وسعنا أن نتشبه بهم ما
استطعنا ، ليضيق الفارق قدر الطاقة بيننا وبينهم ، ومن جد وجد ..
وذلك أعود على صحتنا وديننا ووطننا بالخير .. وهنيئا لأهل السبق
ممن يصلحون فيما بقى من أعمارهم ما فاتهم فيما مضى مسترشدين بقوله
تعالى :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض
اعديت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ
والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين اذا فعلوا فاحشة أو
ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله
ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم
وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعهم أجر العاملين . »

التوكل عند الصوفية

— ٢٢ —

« وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم » ، وتقلب فى
الذاكرين وكن معهم ذاكرا شاكرا ..

هذه نصيحة غالية ، جاءتنى فى احدى رسائل شيخى العارف بالله
سيدي الشيخ عبد السلام الحاوانى - طيب الله ثراه - وقد وجهنى فيها
الى : التوكل والذكر والشكر .

أما التوكل ، فهو مقام عظيم ، من مقامات أهل اليقين ، وقد قال
تعالى « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » . فقرن سبحانه التوكل
بالإيمان .

وليس معنى التوكل أن يترك المؤمن إتخاذ الأسباب ، بل معناه أن
يرى المسبب قبل الأسباب فيركن اليه قبل أن يركن الى الأسباب ، وان
كانت له مواهب ، نظر الى الواهب قبل أن ينظر الى المواهب ، وبذلك
يخرج من حوله الى حول الله وقوته ، ألتست تراه تعالى يقول لأحب أحبائه
- صلى الله عليه وسلم - « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » فلئن
حارب مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأدوات الحرب ، لكن
النصر جاءه من عند الله تعالى ، الذى ان شاء أعمل الوسائل وان شاء أبطل
مفعولها ، ومن هنا نقرأ فى فاتحة الكتاب « اياك نعبد واياك نستعين » .

فالتوكل يتخذ ربه تعالى وكيلا يستعين به ، ويعتمد عليه ، ويستند
فى ظاهره وباطنه اليه .. وكفى بالله وليا ، وكفى بالله نصيرا .. وقد علمنا
الله سبحانه فى كتابه الكريم حسن الظن بالله تعالى فقال جل شأنه : « ومن
يتوكل على الله فهو حسبه » .

ويعرف السادة الصوفية التوكل فيقولون التوكل طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة الى عطاء الكفاية ، فان أعطى شكر ، وان منع صبر ، موافقة للمقدر •

ومؤدى التوكل أن يكون المؤمن فى افتقار دائم الى الله تعالى ، وهو ما يدأب عليه خواص المؤمنين ، أما عوام المسلمين فلا يحسون بالافتقار الا عند الاضطراب من بلاء ينزل بهم ، فليجأؤن الى الله تعالى لكشف الضر عنهم فاذا كشف الضر عنهم غفلوا عن الافتقار حتى تلجئهم اليه ضرورة أخرى ، وقد ندد الله بالكافرين فقال تعالى :

« واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره كذاك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » •

وهو ما يعلمنا أن نكون على الدوام مفتقرين اليه فى الشدة والرخاء، وفى العسر واليسر ، وفى الصحة والمرض ، وفى الخوف والأمن وهكذا •

ولا يتوقف التوكل على الغنى والفقر ، فقد يكون غنى الجيب متوكلا على ربه ، وقد يكون الفقير ضعيف التوكل ، لان مقام التوكل من مقامات اليقين ، واليقين من مذاقات القلب ، فاذا ذاق المؤمن دوام الافتقار كان متوكلا ولو كان من أغنياء المال •

ويقول السادة الصوفية ، ان دوام الافتقار نه عند المؤمن أركان أربعة : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يجمله ، وذكر يؤنسه ، ويقول الإمام ابوبكر الشبلى : حقيقة الفقر ألا يستغنى بشئ عن الله • • وقال الامام الفرغانى — رحمه الله — : اذا صح الافتقار الى الله فقد صح الاستغناء بالله واذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به • • وهذا ما يفسر لنا معنى قولهم ان الانبياء والاولياء أغنياء فى فقرهم •

وقد علمنا مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دوام الافتقار الى الله تعالى فى دعائه الذى دعا به ربه حين خذلته ثقيف ، وقد سعى الى

الطائف يستنصر بهم بعد موت عمه أبى طالب ، فقال فى دعائه المبارك يث ربه شكواه ، ويستغيث به فى نجواه ، ويسترضيه فى أولاه وأخراه :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى • الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ، أم الى عدو ملكته امرى ، ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » •

ففى قوله صلى الله عليه وسلم : الى من تكلنى ، يوجهنا الى أنه ليس لنا وكيل من دونه سبحانه وتعالى ، وقد علمنا كتاب الله الكريم أن من ركن الى الأسباب وحدها ، ضيع الله عليه أثرها ، جزاء وفاقا ، كما فعل بقارون حين اغتسر بكثرة ماله ، ولم يستمع الى نصح الناصحين فيما حكى الله عنهم :

« ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين • وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين • قال انما اوتيته على علم عندى أو لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » •

وقد افتنن أهل الدنيا بقارون ، وعصم الله أهل العلم بالله من الافتنان بظله الزائل ، ونصحوا أهل الغفلة أن يصبروا ولا يفتتنوا بزينة الدنيا وان يكسبوا ثواب الآخرة بالايمان والعمل الصالح فلم يستبينوا النصح حتى رأوا آية الله بأعينهم حين خسف الله به وبداره الارض ، وقال تعالى فى ذلك : « فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا

العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون . فخشفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخييف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض و لا فسادا والعاقبة للمتقين » .

وهؤلاء الذين فتنتهم زينة قارون فتمنوا أن يكون عندهم مثل أمواله لم يكونوا زاهدين في الدنيا ، وان كانوا فقراء ، وقد يملك المؤمن الدنيا ويزهد فيها ، ويؤثر الآخرة عليها ، وأبرز مثل لذلك الخلفاء الراشدون فقد كانت في أيديهم خزائن الأرض فما استشرفت نفوسهم لأخذ المال من غير حله ، بل خافوا الله فيما جعله الله تحت أيديهم منه ، وقلدهم في ذلك المهلك الرشيد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي عاش في الترف حتى اذا جاءته الخلافة رد نفسه الى عيشة الزهد مخافة الله تعالى . وقد عرض على مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ان يحول الله له جبال مكة ذهابا ، فأبى وقال لا يارب أشبع يوما فأشكرك ، وأجوع يوما فأسألك ، والى ذلك يشير الامام البوصيري رضى الله عنه — في برده :

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها ايما شمم وكيف تدعو الى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم وليس معنى هذا أن يترك المرء كسب عيشه ، فان كسب العيش عبادة يعف بها نفسه عن سؤال الناس ، ويعف بها من تجب عليه نفقتهم ، وانما المقصود أن يطمئن المؤمن الى أن الله كفل له رزقه ، فلا يشغله الرزق عن الرزاق ، ولا يدعو القلق على رزقه الى كسبه من طريق حرام ، فلا يقبل الله منه طاعة ، وقد غذى جسمه بالجرام الذي نهى الله عنه ، وليحذر المؤمن ان يتباهى على الخلق بوفرة ماله ، أو أن ينفق المال في معصية الله ، فذلك يؤدي الى مقت الله والعياذ بالله ، لأن الله يحب من عبده أن يشكر نعمة الله عليه ولا يكفرها .. واتفق المال في المعصية كفر بالنعمة لا يرضاه الله تعالى .

ويا سعادة من وسع الله عليه رزقه من حلال فأنفقه في مرضاة الله وأحسن الى عباد الله كما أحسن الله اليه ، فكان شاكرا نعمة الله ، وتعرض للمزيد من فضل الله ، وهنيئا لمن رضى بقسم الله ان ضاق رزقه ، ورد ذلك الى حكمة يعلمها الله ، وتخفى عليه فتذكر قوله تعالى :

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير » .

وقد كتب امامنا الأكبر على بن أبي طالب وصية جامعة لابنه الامام الحسن - عليهما الرضا والرضوان - ومما جاء فيها من الروائع العلوية

فاذا ناديتك سمع نداءك ، واذا ناجيتك علم نجواك ، فأفضيت اليه بحاجتك ، وأبشنته ذات نفسك ، وشكوت اليه همومك واستكشفتك كربوك واستعنته على أمورك .. وسألتك من خزائن رحمته ، مالا يقدر على اعطائه غيره ، من زيادة الاعمار ، رصحة الابدان وسعة الأرزاق .

« ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما اذن لك فيه من مسألتك فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته ، واستمطرت شاكيب رحمته ، فلا يقنطنك ابطاء اجابته ، فان العطية على قدر النية ، وربما أخرجت عنك الاجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجزل لعطاء الآمل .

« وربما سألت الشيء فلا تؤتاه ، وأوتيت خيرا منه عاجلا أو آجلا او صرفت عنك لما هو خير لك .. فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته ، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله ، وينفى عنك وباله فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له .

وجاء في تلك الوصية القيمة كذلك قوله — كرم الله وجهه — .

« انما مثل من خبر الدنيا كمثّل قوم في سفر ، نبا بهم منزل جديب فأموا منزلا خصباً وجناباً مريعاً ، فاحتملوا وعشاء الطريق وفراق الصديق ، وخشونة السفر ، وجشوبة المطعم ، ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لذلك ألماً ، ولا يرون نفقة فيه مغرماً ولا شيء أحب اليهم مما قربهم الى منزلهم ، وأدناهم الى محلّتهم .

« ومثل من اغتر بها ، كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب فنيا بهم الى منزل جديب ، فليس شيء أكره اليهم ولا أفضح عندهم من مفارقة ما كانوا فيه الى ما يهجمون عليه ويصيرون اليه » .

ويؤخذ من قوله تعالى : « وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين » . انه هو السميع العليم » .

ان التوكل انما هو ثمرة من ثمرات جهاد النفس وعبادة الله تعالى ، فقد كان - صلى الله عليه وآله - يقوم الليل والناس نيام ، فيتقرب الى ربه بالقيام والركوع والسجود امثالاً لقوله تعالى « واسجد واقترب » فأعلمه الله انه يراه يقوم ويسمع تلاوته ويعلم صدقه واخلاصه ، ويكتب له أجره ، عاجله وآجله ، ويتولاه فى جميع أموره ، وكفى بالله وكيلاً » .

ويؤيد ما تقدم ما اختتمت به سورة الحج من الآيات البينات « يأيتها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » . وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » .

ويعقب السادة الصوفية على قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » فيقولون : اذا كان خير من فى الوجود أمر بالركوع والسجود فكيف يطمع فى الوصول من ليس له محصول . لذلك لم تقف نصيحة سيدى الشيخ على التوكل دون عمل صالح ، بل أتبعها بقوله : وتقلب فى الذاكرين وكن معهم ذاكراً شاكراً حتى يأتى التوكل عن طريق جهاد النفس فى سبيل الله تعالى الذكر والشكر وهما يثمران الركون الى الله تعالى والتوكل عليه .

والذكر اذا أطلق شمل بصفة عامة كل ما يذكر به الله تعالى ، فالصلاة ذكر ، وتلاوة القرآن ذكر ، والصلاة على مولانا رسول الله -

صلى الله عليه وسلم — ذكر ، والاستغفار ذكر ، والتفقه فى الدين ذكر ، والافتاء فى الحلال والحرام ذكر ، والجهاد فى سبيل الله ذكر الخ الخ .. أما اذا خصص الذكر فانما يعنى ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى فيتحرك اللسان باسم المحبوب الأعظم ليصل نوره الى قلب المؤمن ، فيمحو ظلمة القلب شيئا فشيئا الى أن يصير قلبا وضاء ، فيتعرض لهبوط الفيض والنفحات الرحمانية ، ويعلمه الله ما لم يكن يعلم بطريق الالهام ، ولكن الالهام لا يتأتى للقلب الا بعد تسوية النفس وتربيتها فى جنب الله ، بالجهاد الكبير .. ألسنت تراه تعالى يقول : « ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها » .. ويقول — صلوات الله وسلامه عليه وآله — : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » فلا بد لصقل القلب من عمل دائب ، وذكر الله تعالى من أبرك أعمال الصقل وأيسرها ، وأنجعها فى التقرب الى الله لانه تعالى يقول فى الحديث القدسى « أنا جليس من ذكرنى » ، وذلك الحديث يبرز شرف الذاكرين ومدى عناية الله بهم .

والالهام زينة الاولياء ، كما ان الوحي حلية الانبياء ، وقد بين سبحانه فضله على الخضر — عليه السلام — فقال جل شأنه : « فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى : ان الناس فى بدايتهم يذكرون باللسان نظقا وارقارا بالشهادة وهو الاسلام ، والخواص يذكرون بالقلب تصديقا واخلاصا وهو الايمان ، وخواص الخواص أهل النهاية يذكرون بعقولهم مشاهدة وهو الاحسان .. والكل سائر فى معرفة الاسماء والصفات لا معرفة الذات لانه لا سبيل اليها الا بالعجز عن الادراك .

ويقول سيدى عبد الوهاب الشعرانى — رضى الله عنه — فيمن اكتفى بالجدل دون العمل : ترى أحدهم يخوض فى الكلام على الذات وينسى ما كلف به من الزهد والورع وجهاد النهار ، وقيام الليل ، والخوف من الله تعالى ونحو ذلك حتى كأن الاسلام لديهم محض كلام من غير عمل .

ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر فى الفتوحات المكية : ومن العجب ان الله تعالى يخبر بشىء عن نفسه فى كتابه المحكم ، فىأتى الانسان بعقله القاصر ، فيقول ان عقلى يرد ذلك ، وفكرى لا يحتمل ذلك ، وانما يجب التأويل ، أليس عاقبة هذا التأويل أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالفا غير ما فى كتاب الله ؟

ومن أحسن ما قرأت للسادة الصوفية فى التوحيد قولهم : العقل آلة للعبودية يعرف به العبد ما عرف ، وليس بآلة للإشراف على الربوبية ، وقولهم : العقل عاجز والعاجز لا يدل الا على عاجز مثله .. وقولهم : العقل يجول حول الكون ، فاذا نظر الى الكون ذاب .

وقال بعضهم : أنا أقطع ان الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فان رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وان رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت .

ومما تقدم تدرك سر قوله — صلوات الله وسلامه عليه وآله — : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .. ولقد رأى سليل بيت النبوة الشريف الامام جعفر الصادق — رضى الله عنه — جده المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فى المنام فسأله عن حقيقة التوحيد ، فأجابه — صلوات الله وسلامه عليه وآله — : « كل ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك » وهو القول الفصل كما ترى ، فما أعظمه صلى الله عليه وسلم من معلم .

ويقول شيخى العارف بالله الشيخ على عقل — رضى الله عنه — فى العجز عن ادراك كنه الذات ، من الهامة القورى الذى نقلته عنه :

الى الجلال شهوده أزجاني	حب المهيمن باليقين روانى
ما دمت بالبارى رفعت يياني	أصبحت لا ألوى عنانى للورى
جل المقام فما يبين لساني	عجزى عن الادراك ادراكى به
روح اليقين أظلنى وكساني	فحببه وبسره وبنوره
فالعشق تاجى واليقين عياني	أصبو بروحى فى حماه وأتمنى

ويقول سيدي محيي الدين بن عربي :

قل لا مريء رام ادراكا لخالقه العجز عن درك الادراك ادراك
من دان بالحيرة الغراء فهو قتي لغاية العلم بالرحمن دراك
وأى شخص أبى الا تحققه فان غايته جحد واشراك
فالعجز عن درك التحقيق شمس ضحى
جرت بها فوق جو النسك أفلاك

وقد دلت التجارب الطويلة عبر القرون الماضية ، على ما للذكر من
أثر فعال في تربية القلوب وتنوير البصائر وإيقاظ الفكر من غفلته ،
ولهذا ورد الامر بالذكر الكثير في الكتاب والسنة ، ولئن كانت العبادات
شرعت المذكر الله تعالى ، والربط على قلوب المؤمنين ، الا أنها موقوتة
بأوقاتها * . أما الذكر فمطلوب في كل وقت ، وليس مقيدا بوقت معين ،
وهو يعين على تذوق العبادات ، ويكشف عن كثير من أسرارها ، كما
أنه يعين على رقابة الله ليرضيه فيها ليقينه ان الله يعلم السر وأخفى .

واذا انت تدبرت في قوله — تعالى — : « ان المسلمين والمسلمات
والمؤمنين والمؤمنات والقائتين والقائات والصادقين والصادقات والصابرين
والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين
والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات
أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » *

وجدت أن الذكر جاء في قمة تلك الأوصاف وتوجها مع علو مراتبها
عند الله تعالى *

والذاكرون يتفاوتون بحسب مشاهدتهم ومقاماتهم ، فالعامة يذكرون
الله على العادة الجارية ، والعلماء يذكرونه تعالى تنزيها وتمجيذا ،
والعارفون يذكرون الله تعظيما ، والعابدون يذكرون الله راجين خائفين ،
والمخبون يذكرونه ولها ووجدا وهياما حتى يفنوا به عن غيره فهم أرفع
الذاكرين درجة *

وقد روى الترمذي عن أبي سعيد أن رجلا سأل النبي — صلى الله
عليه وسلم — : « أى العبادة أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال

الذاكرون الله كثيرا والذاكرات .. قلت يا رسول الله ومن الغازی فی سبیل الله ؟ قال : لو ضرب بسيفه فی الکفار والمشرکین حتی ینکسر ویختضب دما لکان الذاکرون الله أفضل منه درجة » .

وهذا یفسر لنا لماذا قال صلی الله علیه وسلم حین رجع من الغزو : رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الاکبر ، قالوا وما الجهاد الاکبر یا رسول الله ، قال جهاد النفس .. وقد روى الترمذی كذلك أن رجلا قال : یا رسول الله ان شرائع الاسلام قد کثرت علی فاخبرنی بشيء أتشبث به ، قال لا یزال لسانک رطباً بذكر الله •

وروى الشیخان والترمذی عن أبی هريرة قال ، قال رسول الله — صلی الله علیه وسلم — « یقول الله — عز وجل — انا عند ظن عبدي بی ، وأنا معه حین یذكرنی ، فان ذکرنی فی نفسه ذکرته فی نفسی ، وان ذکرنی فی مالا ذکرته فی مالا خیر منه ، وان اقترب الی شبرا تقربت الیه ذراعا وان اقترب الی ذراعا اقتربت الیه باعا ، وان أتانی ماشیا أتیته مهرولا » •

والقرب هنا قرب طاعة وثواب لا قرب مسافة ومکان ، وغیر ذلك کثیر ، وكثیر جدا •

ويقول أبو حیان التوحیدی — طیب الله ثراه — فی مناجاته :

اللهم انی أبرأ من الثقة الا بك ، ومن الأمل الا فیک ، ومن التسليم الا لك ، ومن التوکل الا علیک ، ومن الطلب الا منک ، ومن الرضا الا عنک ، أسألك أن تجعل الإخلاص قرین عقیدتی ، والشکر علی نعمک شعاری وذئاری ، والنظر الی ملکوتک دأبی ودیدنی ، والالتیاد لك شأنی وشغلی ، والخوف منک أمني وإيمانی ، واللیاذ بذكرک بهجتی وسروری •

ومثل ذلك الالهام یرد علی قلوب الذاکرین فتلهج به ألسنتهم ، وقد عهدنا منه الکثیر فی اتباع سیدی الشیخ الاکبر أبی خلیل — رضی الله عنه — وهم موقفون للذكر الکثیر ببرکته وارشاده ، وكان یقول : ابني الذاکر وكان رضی الله عنه وحید نسجه فی زمنه فخلق بأتباعه فی عالم الملكوت ، وألحقهم بركب السابقین الأولین •

ويقول صلوات الله عليه وآله : « من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه الا العالمون بالله تعالى » ، ويقول امامنا على كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
لا ينفع مسموع اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

ويقول أبو سليمان الداراني — رضى الله عنه — اذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت فى الملكوت ورجعت الى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى لها عالم علما .

فاذا أنت أردت طريق القوم ، وأحسنيت اختيار امامك ، فاخترته عالما عاملا بالكتاب والسنة والجماعة ، ذائقا أسرار التربية الروحية ، وارثا لها عن شيخ عارف بالله ، مأذونا له من ذلك الشيخ العارف بالارشاد ، وشرح الله صدرك لاتباعه بعد التدقيق فى اختياره ، مستعينا فى ذلك بالله ربك ، أو مقتديا فى اختياره بأهل الرشد فى الدين ، ممن يوثق بهم .. أقول اذا تم لك ذلك فخذ عنه — أخذ قبول وتسليم — لا أخذ شك وتردد ، وكن معه من أهل الهمة والعمل لا من أهل الكسل أو الجدل ، لأنك فى علاج جسمك تحرص على تعاطى الدواء ، ولا تجادل طبيبك فيما تجهله من علم الطب الذى علمه هو وجهلته أنت ، ورضيته معالجا به وسلمت له تسليما ، واذا سلكت الى الله من غير شيخ مؤدب تعرضت لغواية النفس والشيطان وربما أخطأت الطريق فتهلك .

واذا ذكرت ربك — حسب ارشاد شيخك العارف — أعطاك الله نورا بحسب استعدادك وفطرتك وما قدره لك عنده سبحانه ، ولا تغفل عن الذكر بوسوسة يلقها الشيطان فى صدرك ، ليصدك عن سبيل الله ، كأن يقول لك ، أنت تذكر من كذا سنة ولم تجد فتحا ، أو أنت تذكر باللسان ولا تجد حلاوة فى القلب ، احذر من ذلك لأن العارفين قالوا بحق : ان الغفلة عن الذكر شر من الغفلة فيه .

وقد سألت شيخى العارف بالله الشيخ على عقل — رضى الله عنه — فى هذه المسألة فقال لى : « ان اللسان جارحة فاذا تحركت بذكر الله كتب

الله ثواب ذلك للذاكر ، وصارت له قيمة ، ثم أيد لى ذلك — رضى الله عنه —
 — بمثل فقال اذا كانت لديك عصا رخيصة وحليتها بحلية من ذهب جعلت
 لها قيمة غير قيمتها الاصلية بما دخل عليها من الذهب ، وفى ذلك تشجيع
 على الذكر باللسان للمبتدئين ، وهو يؤدى بهم يوما ما الى ذكر القلب
 وهو الذى عليه المعول ، وذكر اللسان باب يؤدى الى ذكر القلب ثم الى
 ذكر الروح ثم الى ذكر السر الذى لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان
 فيفسده .

ثم هو — رضى الله عنه — نصحننا فى الهامة أن نذكر الله تعالى لوجهه
 فلا نقصد بالذكر فتحا أو ولاية أو هبة ، وحسبنا أن نتشرف بذكر المذكور
 سبحانه ، الذى لا ينسانا ، بل يوالينا ببره وآلائه ، فى ليلنا ونهارنا ، فى
 نومنا ويقظتنا .. فى حركتنا وسكوننا ، فى برنا وبخرنا .. ومن فضله
 ورحمته جعل لنا السيئة سيئة واحدة ، والحسنة بعشر أمثالها وبأضعاف
 كثيرة .. فيقول — رضى الله عنه — :

لا تذكر البارى بقصد ولاية	أو أن تكون على السما لا تنطفئ
اذكر لوجه الله جل جلاله	من رم غير جنابه لم يشرف
واذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى	حافظ على آياته بثلث
وانهض بروحك نهضة قدسية	ولسنة المختار فى السير اقتف

أما عن الشكر الذى وجهنى اليه سيدى الشيخ — رضى الله عنه —
 فهو اما أن يكون باللسان تحدثا بالنعمة (وأما بنعمة ربك فحدث) أو
 يكون بالاركان ، فيستعملها المؤمن فى طاعة الله بالعبادات والنوافل
 « اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » أو يكون بالقلب
 فيوقن المؤمن أن كل نعمة ظهرت له أو خفيت عليه فمن الله تعالى « وما بكم
 من نعمة فمن الله » ومن شكر النعمة ألا يعصى المؤمن ربه بها والا كان
 جاحدا .

على ان المؤمن لا يبلغ ما يستحقه الله من الشكر ، ولو شكر الله
 باللسان والاركان والجنان ، لأن نعم الله لا تحصى ولا تستقصى وانما
 يكون الشكر ولاء واعترافا بفضل الله ، ولذلك فاجى مولانا الامام

الحسين بن علي ربه وهو يستلم الحجر الأسود فقال : « الهى نعمتنى فلم تجدننى شاكرا ، وبلوتنى فلم تجدننى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، و لا أنت أدمت الشدة بترك الصبر ، الهى ما يكون من الكريم الا الكرم . »

وقد قام صلوات الله عليه وآله الليل حتى تورمت قدماءه ، ولما سأله أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال أفلا أكون عبدا شكورا .. ولعلو همته - صلى الله عليه وآله - لم يكتف أن يكون شاكرا بل أراد أن يكون شكورا ، أى كثير الشكر ما وسعه الجهد .

وكذلك فى حمد الله والثناء عليه بما هو أهله ، لا يبلغ الانسان حمد ربه حق الحمد ، ولذلك كان صلى الله عليه وآله يقول : لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . ولعجزنا عن حمده سبحانه علمنا فى فاتحة الكتاب المبين أن نشنى عليه بكلامه المعجز فنقول : الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد و اياك نستعين .. الخ .

ويقول العارفون ، فلو ان سائلا سأله تعالى : لماذا اختصت بالحمد وحدك لقال : لأنى رب العباد ، منى كان الایجاد ، وعلى دوام الامداد . وذلك احسان من عندى ، ولا وجوب فيه على ولا الزام فأنا صاحب الفضل على الدوام ، فالایجاد ودوام الامداد نعمتان ما خلا موجود منهما ، ولا بد لكل مكون منهما ، فاستحققت الحمد وحدى .

اللهم اجعلنا بعونك من أهل التقوى فنكون متوكلين فى الحالين .. شاكرين لانعمك فان الشيطان هددنا بالصد عن شكرك حين قال : « ولا تجد أكثرهم شاكرين » فأضعف يا الهنا كيده وأحبط صده ، واكتبنا بفضلك فى عبادك الصالحين الذين شرفتهم بمعيتك بأن تكون فى عوفهم على أنفسهم وشيطانهم . حين قلت فى القرآن الكريم « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » آمين .

سَمَاحَةُ الْخَلْقِ وَالتَّمَسُّ بِالْعُذْرِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ

— ٢٣ —

« أما (فلان) فأبلغه تحياتي وأشواقى ، وقد بلغنى أنه كان بالاسكندرية ، فلماذا لم يقابلنى ، ان كان لعذر فمقبول ، وان كان لذنوب منى فأستغفر الله ، وعليه السماح ، وعلى كل فانه حسن وفعله حسن . »

جاءتنى هذه العبارة فى احدى رسائل شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى قدس الله سره ، وفلان هذا أخ لى فى الله ، تربطنى به محبة الله ، وقد سبقنى فى أخذ الطريق عن الشيخ ، وله همة فى المجاهدات محمودة ، وكان لها أثرها فى سلوكى ، لأننى صحبتته فى نشأتى ، والفته فتأثرت به ، وكان سيدى الشيخ مسرورا بهذه الألفة ، واسم صاحبه حسن ، فلقبنا رضى الله عنه بالحسنين ، وهذا يفسر لك كيف أن الشيخ يعتب عليه من طريقى ، حيث ذهب الى الاسكندرية فلم يقابل الشيخ ، وكان من واجب التلميذ ، ان يلقى شيخه ، ويسلم عليه ، ويجلس بين يديه ، ليسمع منه ، ويأخذ عنه ، وكان شيخنا رضى الله عنه ، من خيار عباد الله الصالحين ، الذين ينتفع بعلمهم وأدبهم وبركتهم ، وفى الحديث الشريف : « خير عباد الله من اذا رأيتهم ذكرت الله » .

على اننا نلاحظ فى عبارة سيدى الشيخ أدبا رقيقا عاليا : ينفعنا فى مسالكنا ، فقد أبلغه سلامه ، قبل ان يعتب عليه ، والتمس له العذر ، ان كان ثمة عذر ، وقبل عذره قبل ان يبيده ، فان لم يكن عذر ، فهل كان الشيخ ذنب حال دون المقابلة ، فان كان ذنب ، استغفر الشيخ منه ، وطلب العفو عنه ، ثم رحم الشيخ تلميذه ، وخاف عليه من شدة التقريع ، فقرر أنه حسن ، وفعله حسن ، وهذا لعمر الله مسلك جميل فى التربية الخلقية والروحية .

فالشيخ اذن لم يقابل السيئة بالسيئة ، بل قابل السيئة بالحسنة ،
 ضحيا للتلميذ الذى قصر فى تحيته ، ولحرصه على مودته ، عتب عليه ، وفى
 عتابه أراه الواجب عليه فى لقائه ، ولا شك ان تفريط المريد فى لقاء
 شيخه يحرمه من كثير ، لأن الشيخ وصلته بالله تعالى والتفريط
 الاجتماع به ، تفريط فى الملوك الى الله ، لأن الشيخ له قوة روحية ،
 يستمد منها تلاميذه الهمة فى طلب الله ، ولو لم يتكلم معهم بلسانه أحيانا ،
 فان حاله يغنى عن مقاله ، والاستمداد الروحى لا ينكره الا المعاندون ،
 لأن من جالس جانس ، كما يقول العارفون ، وعلى قدر استعداد المريد
 يكون استمداده ، وصاحب الفطرة الضعيفة يتشرب ببطء وقد لا يتشرب
 شيئا ، وان كان شيخه من كبار الأقطاب ، ذلك بأن المريض لا يجد فى
 الماء الزلال الطعم الذى يجده الصحيح المعافى ، كما قالوا :

ومن يك ذا فم مريض يجد مرا به الماء الزلالا
 وقد يقول الشيخ كلمة على مسمع من عشرات المريدين ، فتبقى
 فى واحد منهم ، تفعل فعلها ، وتنتج أثرها ، وينساها الآخرون ، أو
 يذكرونها ولا يتأثرون بها ، لضعف استعدادهم . ومن هنا نرى أن دعوة
 الشيخ تعم الكثيرين ، ولا ينضج منهم فى التربية الا القليل وأقل من
 القليل ، لأن الجوهر النفيس عزيز المنال ، ولعزته وندرته ، قد يحكم بأنه
 غير موجود ، واذا كانت تلك هى الحقيقة فى كل الأزمان ، فهى أبرز فى
 زماننا منها فيما سبقه من الأزمان ، لفتور الهمة فى مجاهدة النفس ومخالفة
 هواها وهو مبنى التصوف الحق ، والمؤمن لا يستطيع أن يعرف ربه معرفة
 الخواص الا من طريق مخالفة النفس ، والصوفية لم يتدعوا ذلك من
 عندياتهم ، بل أخذوه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد
 جاء فيها الكثير فى هذا الشأن كما هو معروف للواقف على الأمور . ويكفى
 منها على سبيل المثال قوله تعالى :

« فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأما من
 خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » .
 وقوله صلى الله عليه وسلم :

« أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل » .

وكلما ذاق المريد حلاوة التربية في جنب الله ، واتسع علمه بالله ، كلما أكبر شيخه وأجله ، وحرص على صحبته ووالاه ، حيث يبين له فضل الشيخ وأثره ، كلما ترقى وتلقى موارد الاحسان ، وقد لمست ذلك في احترام شيخى لشيخه القطب الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل ، رضى الله عنه وارضاه ، فقد كان يحدثنى عنه كثيرا ، ويذكر لى فضله عليه ، حتى يفنى فيه حبا وتقديرا ، وكان يقول لى : ان سيدى الشيخ الأكبر كان آية من آيات الله فى الأرض ، كما كان يقول لى : انى رأيت بركة سيدى الشيخ الأكبر شاملة لى ولأولادى ، فما أنا وهم فيه من الخير من بركات الشيخ ، أقول وعلى هذا الخلق العظيم درج أسلافنا الصالحون المقتدى بهم فى الدين ، ولقد أخذ الامام مسلم عن الامام البخارى رضى الله عنهما ، ثم صار الامام مسلم اماما من أئمة الصحيح ، ومع ذلك كان يذكر لشيخه البخارى فضله ، وكان يجله أيما اجلال ، حتى كان يقول له اذا لقيه ، دعنى أقبل رجلك يا طبيب الحديث فى علله ، ويا أستاذ الأستاذين ويا شيخ المحدثين ، وكان سيدى المرسى أبو العباس اذا ذكر بحضرته شيخه الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنهما يقول :

لى سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
ان لم اكن منهم فلى فى جهنم عز وجاه
وصحبة الشيخ الناصح ، شرط فى التربية الخاصة ، لأن أدب القلوب ، لا يؤخذ الا من أهله ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، وكيف يربى القلوب ، من عجز عن أدب قلبه ، ألسنت تراه تعالى يقول :

« ليتفقها فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » ..

فأوجب أن ينذروا أنفسهم قبل ان ينذروا قومهم ، لأن الانذار لا يصح الا ممن أنذر نفسه قبل أن ينذر غيره ، كذلك قال العارفون : اذا أردت أن تهجر اخوان السوء ، فاهجر قبل ان تهجرهم أخلاقك السوء ، فان نفسك أقرب اليك ، والأقربون أولى بالمعروف ، ومن وصايا سيدى عبد السلام بن بشيش لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما : لا

تنقل قدميك الا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس الا حيث تأمن من معصية الله ، والا تصحب الا من تستعين به على طاعة الله ، ولا تصطف لنفسك الا من تزداد به يقينا ، وهى وصية قيمة كما ترى ، ويا سعادة من عمل بها من أهل الطريق .

ولقد اشتد بى يوما حبى لسيدى الشيخ عبد السلام حتى وددت ان لو سكن معى ، وقمت على خدمته بنفسى ، تقربا الى الله تعالى لفضله على ، ولازمتنى هذه الأمنية طويلا ، على أئثر زيارتى لسيدى الشيخ وكان مريضا ، وملازما للفراش بالمستشفى ، ولما عدته فى اليوم الثانى ، نظر الى وقال : انت لم تتركنى ليلة الأمس ، وكنت تدعونى الى منزلك ، وتقول لى ابنى أخدمك بنفسى ، وتعاودنى بهذا الكلام مرة بعد مرة ، وسبحان من نور بصائرهم ، وأصلح ضمائرهم وسرائرهم .

ويقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل :
والنور للارواح مثل الكهرباء لمن تصوب
يدنى البعيد ويجعل النجم المحلق منك أقرب

ومن وصايا سيدى عبد السلام بن بشيش لسيدى أبى الحسن الشاذلى كذلك : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فانه لئيم ، ولا من يؤثرك على نفسه فانه فلما يدوم ، واصحب من اذا ذكر ذكر الله ، فانه يغنى به اذا شهد ، وينوب عنه اذا فقد ، ذكره نور القلوب ، ومشاهدته مفاتيح الغيوب .

وقال له رجل : يا سيدى وظف على وظائف وأورادا أعمل بها ، فقال له : أرسول أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا ، والمحرمات رافضا ، واحفظ قلبك من حب الدنيا ، وحب النساء ، وحب العجاء ، وإيثار الشهوات ، واقنع من ذلك بما قسم الله لك ، اذا خرج لك مخرج الرضا ، فكن لله فيه شاكرا ، وان خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابرا ، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات ، واصل جامع لأنواع الكرامات ، وحصر ذلك كله أربع : الورع ، وحسن النية ، وإخلاص

العمل ، ومحبة العلم ، ولا تتم هذه الجملة الا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح .

أما العفو عن الاساءة ، وقبول العذر ، والتماسه لصاحبه قبل أن يتقدم به ، فكلها مكارم يدعو اليها الاسلام ، وانظر فى مثل قوله تعالى : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

وفى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « من جاءه أخوه متصلا من ذنبه فليقبل اعذاره محققا كان أو مبطلا » .

وقد قص علينا الله فى كتابه الكريم أحسن القصص ، وأرانا صورا رائعة من صور التسامح والصفح ، من ذلك مثلا ما كان من سيدنا يوسف عليه السلام مع اخوته حين قالوا له :

« تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخطئين . قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

وكذلك ما قاله سيدنا موسى عليه السلام لسيدنا هارون عليه السلام حين اغتذر اليه :

« ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم والقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلونى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين » .

ولا ننسى ما قاله مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعدائه بعد ان أسرهم فى فتح مكة (اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

وهكذا نرى أن غضب المؤمن كالبرق الخاطف لا يكاد يظهر حتى يختفى رحمة بالمخطئين ، ومن عفا وأصلح فأجره على الله .

وجاء فى وصية امامنا الأكبر على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، لابنه الامام الحسن ، رضى الله عنه قوله :

« احمل نفسك من أخيك عند صرمة على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنو ، وعند شدته على اللين ، وعند جرمه على العذر ، حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك ، وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله » .

« لا تتخذن عدو صديقك صديقا ، فتعادي صديقك ، وامحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة ، وتجرع الغيظ ، فاني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألد مغبة » .

« وألن لمن غالطك ، فانه يوشك أن يلين لك ، وخذ على عدوك بالفضل ، فانه أحد الظفرين ، وان أردت قطيعة أخيك ، فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها ، ان بدا له ذلك يوما ما » .

« ومن ظن بك خيرا ، فصدق ظنه ، ولا تضعين حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه ، فانه ليس لك بأخ من أضعت حقه » .

« ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا ترغبن فيمن زهد عنك ، ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ، فانه يسعى في مضرته وفقعك ، وليس جزاء من سرك أن تسوءه » .

ولنفهم معنى ما يقوله امامنا الأكبر « وتجرع الغيظ » فاني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألد مغبة » فنقل القصة التالية التي حدث بها المدائني في كتاب المحاسن والمساوي قال .

كان سهل بن سعد القشيري خرج مع محمد و ابراهيم ابني عبد الله بن الحسن على المنصور ، فقال المنصور : هذا كان عندنا من الفقهاء والعلماء ، فكيف خرج علينا ، ثم قال له المنصور : والله لاقتلنك قتلة ما قتلتها أحدا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان تحنث في يمينك هذه ، خير عند الله من ان تبر بها ، واعلم يا أمير المؤمنين انك ان قتلتنى قتلت أربعة آلاف حديث سمعتها من الضحاك بن مزاحم ، عن جدك عبد الله بن العباس ، عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، لا يرويها أحد غيري ، قال فوضع يده على خده ، وقال هات ، قال حدثني الضحاك بن مزاحم ، عن جدك عبد الله بن العباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمل الجنة حزن بربوة ، وعمل النار سهل بسهوة (السهوة الأرض السهلة) ، والسعيد من وقى شر الفتن ، ومن ابتلى فصبر ، فيألفها ثم يألها ، وما امتلأ عبد غيظا فكظمه الا ملاه الله ايمانا » فأمره بالجلوس ثم قال له هل من أحد يضمك على أن تلزمنا فتسمر عندنا ، وأقام معه .

وقال موسى بن عبد الله ، أتى المهدي برجل فجعل يقرره يذنبه ، ويتهدده ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، اعتذاري مما تفرغني به رد عليك ، واقاراري يوجب لي ذنبا ، ولكنني أقول : فإن كنت ترجو في العقوبة رحمة فلا تزهدن عند المعافاة في الأجر فأمر بإطلاقه .

ومن نصائح العارف بالله سيدي الشيخ أحمد الطلواني الخليجي رضي الله عنه والد شيخي سيدي عبد السلام رضي الله عنه .. في منظومته المسماة البستان والتي يوجه فيها المريدين فيما بينهم الى التسامح :

ولا تقل الجفيا أسليم ومنذا يا أخى يسلم
وهل هو وحده أجرم لعفك يا أخى أظلم
وأنت بدأت بالظغيان

أتهجره وقد خدمك وسابق جوده كرمك
فرضنا انه ظلمك أليس العفو قد لزمك
بنص الشنرع والقرآن

الا يا صاح الا يا صاح تنبه كي تسمى الصاح
وسامح فالسامح رباح ودع عنك الذي قد راح
وهب أن قد ولدت الآن

ومن حكمه الجميلة رضي الله عنه قوله :

أحمد بظلمك ما يذكىه ذو سفه من نار غيظك واصفح انجنى جان
فالعلم أفضل ما ازدان اللبيب به والأخذ بالعفو احلى ما جنى جانى

وقد كان سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى من كبار العلماء العارفين ، وكان يجلب شيخه العالم العارف القطب سيدى الشيخ عمر بن جعفر الشبراوى صاحب الطريقة الشبراوية المباركة ، وقد طلب اليه بعض تلاميذ سيدى عمر أن يمدح شيخهم وشيخه بقصيدة يسمعون اياها ، فقال مداعبا لهم على البديهة :-

لا تطمعوا أن أصف القطب الذى شبرا به باهت محل الفرقد
لكننى أقول من يظفر به فليعتصم بالوارث المحدثى

ويعاصرنا من أحفاد سيدى عمر الشيعخان العالمان العارفان المباركان الصديقان الشيخ كامل الشبراوى والشيخ عبد السلام الشبراوى وهما يدعوان الى الله على طريقة جدهما حسبة لوجه الله ، لا يريدان من الناس جزاء ولا شكورا ، جزاهما الله عن الاسلام والمسلمين خيرا كثيرا ، وابوهما العارف بالله سيدى الشيخ عبد الخالق الشبراوى ، كان من اجلاء العلماء العارفين ، وهدى به الله العدد العديد ، وقد سعدت بمعرفته وترددت عليه بأمر من شيخى سيدى عبد السلام الحلوانى حيث قال لى زره وابلغه سلامى فانه ولى من أولياء الله ، وليت رجال الطرق الصوفية اليوم ينهجون نهج هؤلاء الكاملة ، فلا يربون تلاميذهم على جفوة غيرهم من المشايخ ، فان الدين يقوم على الأخوة فى الله والمحبة لوجهه سبحانه ، وآفة الطرق اليوم الجفوة بين بعض المشايخ . وهى تستتبع الجفوة بين التلاميذ ، فان سلموا من الجفوة ، وقعوا فى غيبة بعضهم البعض ، والغيبة من الكبائر والصوفى الحق يحاسب نفسه على الصغيرة قبل الكبيرة ، بل انه قد يترك المباح خوف الوقوع فى المشبوه ، اسأل الله لأهل الاسلام صلاح الحال والمال ، بعد اصلاح الظواهر والبواطن ، والتسامح بين الأفراد والجماعات .

وكم حاول شيخى سيدى عبد السلام الحلوانى ان يصلح بين رجال الطرق ، وبين الخلفاء ، ولكن الأهواء النفسية والأغراض الشخصية ، كانت تقف فى سبيل الصلاح والاصلاح ، فلو ان الأغراض الشخصية اتفت ، وجاهد المتنافرون أنفسهم وتسامحوا لاستقام المؤمنون على الطريقة ،

وأشرق عليهم نور الحقيقة ، كما كان أسلافهم من قبل ، وما أبدع ما ينصح به ابن الرومي كل مريد متصوف حين يقول فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية صديقي العلامة الشيخ الصاوي شعلان : لا تجعل الأحجار المتراكمة من الخطايا تحطم قلبك ، فإن الفخار اذا انكسر لا يرفع ولا يعاد طينا ، سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، ان الهام النحل الشهد ، والهام حشرة القز نسج الحرير ، والهام البلبل أغاني السحر ، والهام رجال الله نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض :

صدقوهم هم مصاييح الدجى اكرمواهم هم مفاتيح الرجا

« اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » .

ويقول شيخى سيدى الشيخ على عقل فى وصف رجال الله فى ارتجاله والهامة الفورى الذى تقلناه عنه :

تمكن حب الله منهم حياتهم
ففاض الهوى بالروح والقلب والصدر
نعم أصلهم ترب ولكن روحهم
من الوجد ولا خلاص أصفى من التبر
هو أدب التقوى هو نفحة الهدى
هو درة الأيام هم سادة الدهر
هم الأهل والأعوان فى الانس والاسى
على كل ما تجرى الأمور أولو نصر
هم الثابتون الصادقون فما الغنى
ببعضهم يوما ولا طارق الفقر
اذا صح بدء المرء صح اتهامه
فمن حسن الأولى فأخسراه فى خير
وحسبى ان الله قصدى وملجئى
ومن قال يا الله طسوق بالأجر
فما اثنى عنه الحياة وان أمت
فمن نعمة التوحيد أسعد فى القبر

وينهى رضى الله عنه عن سوء الظن بالأصحاب ، ويدعو الى مراقبة الله
على الدوام ، حتى يوفى المؤمن أجره يوم القيامة ، فيقول فى الهامه الفيضى
المرتجل اتوه :

ولا تك فى سوء الظنون مغاليا
ومن يتغالى ربما أخطأ الأثر
وظنك خيرا بالمصاحب واجب
ومن بحث الأسرار ليس أخا نظر
ولو لم يصن سر لهان موقر
لذلك سر الخلق غاب عن الفكر
وحسبك ستر الله عزا ومنعة
ولولاه ما ذنب العباد قد استتر
سواء لدى الناس الا أخا التقى
عباده تغنيه ان ورد الحفير
وكل فؤاد راقب الله جنّة
منابتها الايمان والعلم والبصر
وأغصانها الاخلاص والصدق جذعها
وأثمارها لتتقوى وأنعم بها ثمر
فحاسب هنا تهناً هناك منازل
ومن حاسب النفس اجتباها الذى فطر
وما هذه الأيام الا راحل
علوت لها ظهرا وكنت على سفر
وحسبك من دنياك أجر ورحمة
ومن لم ير الاخرى المراد قد اندثر

واذا ترقى المرید فى مراقبة الله تعالى ، كسب التقوى ، وتجنب
الخطیئة ، وتقول السيدة فاطمة النيسابورية ، وهى من فضلیات النساء
الصوفیات : من لم يراقب الله تعالى بى كل حال ، فانه ينحدر فى كل
میدان ، ويشكل بکل لسان ، ومن راقب الله تعالى فى كل حال ، أخرسه

الا عن الصدق ، وألزمه الحياء منه ، والاخلاص له ، وكان سيدي ذو النون المضرى يجلب تلك السيدة ، وينوه بفضلها ويقول : فاطمة أستاذتى .

ولو راقب المسلمون ربهم ، ما تعادوا أفرادا ولا جماعات ، ولكن الشيطان يفتنهم ويوقع بينهم العداوة والشقاق ، ويصدهم عن ذكر الله ، مع ان الله تعالى علمنا ان نحرض على سلامة الصدور ، حتى يشملنا وصفه العالى « انما المؤمنون اخوة » وألزمنا أن نصلح بين المتخاصمين « فاصلحوا بين اخويكم » وجعل الاصلاح بين المسلمين من التقوى ، كما جعل رحمة فى الدنيا والآخرة « واتقوا. الله لعبيكم ترحمون » ، لا بل أنه سبحانه وتعالى ذهب بنا فى الجرص على السلام بين المسلمين أن نحاول حسم الخلاف سلميا ان وقع قتال بين طائفتين ، فان لم يؤد السلم الى الاصلاح ، قاتلنا الفئة الباغية حتى تفىء الى أمر الله ، فان فاءت اصلحنا بينهما بالعدل ، واقسطنا فى الحكم بينهما ، وقد تنازل أمامنا الحسن بن على ، رضى الله عنهما ، بوازع من دينه ، وتقربا لربه ، عن خلافة كانت فى يده ببيعة شرعية ، وكان حوله جيش عرمرم يحملون على عواتقهم نحو مائة ألف سيف ، وقد قال رضى الله عنه وعن آل البيت أجمعين حين أشير عليه بنقض صحيفة الصلح : يا مسيب ، انى لو أردت بما فعلت الدنيا ، لم يكن معاوية باصبر عند اللقاء ، ولا أثبت عند الحرب منى ، ولكنى أردت صلاحكم ، وكف بعضكم عن بعض ، فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر .

وينوه صديقى الأديب الكبير المعاصر ، الأستاذ محمد جاد الرب بموقف السلام الذى وقفه أمامنا السبط الكريم الحسن رضى الله عنه وعن آل البيت أجمعين فيقول :

لا نثر يقضى له حقا ولا شعرا	ولو نظمت له القطبين والشعرا
سبط النبى فما اعلاه عن كلمى	لوكانت الأحرف الياقوت والدررا
فمن يكن جده طه ووالده	أبا تراب وكانت أمه الزهرا
وسيد الشهدا من بعض اخوته	فقد تسامى على كل اللغى قدرا

ولنلثم التراب لا بل نلثم التبراً
وفى فضائلهم كم نزل الذكراً
من البلاء صنوفاً تحطم الصخر
دنيا كما طلب الباغون أو فخراً
لكان من كل أقيال البورى أثرى
الا المودة فى القربى له أجراً
قد أثر الصلح صلحا جائراً مرا
اذ كان فى رأيه حقن الدما أخرى
وكان لابد من أن تصدق البشرى
لم يبق عهدهم الا كذا شهراً
من الخداع وبالقتلى وبالأسرى
لم تفش فى الدين تلك الفتنة الكبرى
لحكمة حيرت فى فهمها الفكرة
فقدولوا المجد فى الدنيا وفى الأخرى

فلنقصر القول ولنقصد رحابهم
من كل رجس تعالى الله طهرهم
أهل العبادة فالأعباء كم حملوا
جهادهم فى سبيل الحق ما طلبوا
ولو أراد ثراء المال جدهم
لكنه لم يشأ عن هدى أمته
والسيد الحسن الزاكي بحكمته
لقى الزمام الى من لا ذمام لهم
نبوءة من رسول الله قد صدقت
عام الجماعة سموه ومن عجب
ملك عضوض لذا أيامه ملئت
ولو بيت رسول الله قد بقيت
مشيئة الله فى أجابته سبقت
فان يكن ولى الدنيا مناوئهم

والنبوة المشار اليها آنفا هي ما قاله مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حق الامام الحسن وهو طفل صغير ، فقد قال فيما رواه البخارى : « ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » .

ونسأل الله للمسلمين سلامة الصدور ، وصفاء النفوس ، حتى تقوم بينهم ألفة جامعة ، يردون بها كيد الإعداء ، الذين يتربصون بهم الدوائر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، ويد الله مع الجماعة ، ولن يجد المسلمون لهم قاصحا انصح لهم من ربهم ، جل جلاله ، حين قال وقوله الحق :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

داسلية في التصوف

— ٢٤ —

« ولا تخف فالرضا حاصل ، وأنت كامل ، والحقوق لأربابها ،
والزمان له دورته ، وسيتم لك ما تريد مادمت مع الله وقضى ربك ، وأنت
ذو مزاج ظريف ، فحافظ عليه ، فاننا نريد لك الأئس والسرور ، ويدوم
ان شاء الله ، وتأئس ويؤئس بك ، ويتم لك الصفاء والوفاء » .

جاءتني هذه العبارة في رسالة حررها لي من الاسكندرية شيخى
العارف بالله سيدى عبدالسلام الحلوانى ، رفع الله قدره في الأولياء ، حين
كنت فى مقتبل شبابى ، وكنت آمل أن يكملنى الله بأداب عباده الصالحين :
وأن يحشرنى فى زمرة يوم لقائه سبحانه ، وهم الذين قال عنهم فى
القرآن المجيد ، « رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب
الله هم المفلحون » فأشار الشيخ رضى الله عنه الى أن ما أصبو اليه يتحقق
بشرطه . وشرطه أن يكون المؤمن دائما مع ربه ، ويفسره قوله تعالى
« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » كما أشار الشيخ
فى عبارته .

وعبادة الله سبحانه تقتضى توحيده ، كما يفيد الاستثناء فى الآية
الكريمة ، وتوحيده يقتضى طاعته ، وطاعته تقتضى تقواه ، وتقواه تقتضى
الائتمار بأوامره ، والالتناء بنواهيه ، وذلك ما ينتهى بالمؤمن اذا صدق
فى الائتمار والالتناء الى محبة الله ، وإثاره تعالى على ما سواه ، وقد
يطول جهاده فى هذا الشأن ، وقد يقصر بحسب فطرته ، وهمته ، وتقدير
العزير العليم .

ومن هنا يختلف خواص المؤمنين عن عوامهم .. فالعوام يكتفون في لعبادة بما يسقط عنهم الحرج ، أما الخواص فانهم يطلبون الكمال في الدين ، فاذا نظر العوام الى تنفيذ الاوامر فان الخواص يرفعون همهم الى محبة الامر الذي صدرت منه تلك الاوامر ، والذي أمر بها الحكمة هي الاتصال به سبحانه ، اتصال حب واشار ، كسبا لرضاه ، في دنيا المؤمن وآخره ، ولهذا قالوا « اياك تُعبد » شريعة ، « واياك نستعين » حقيقة ، فالأولى فيها نظرة الى فعل العبد ، والثانية فيها نظرة الى فعل المعبود جل شأنه ، وخروج العبد من حوله الى حول الله وقوته رقى في المعرفة والمذاق ، فيصل بالعبادة الى المعرفة ، والا كانت عبادة جوفاء ، لا غناء فيها ، ولا نماء ، ونعوذ بالله من حجاب الغفلة ، وكيف يغتر العبد بعمله ويجحد فضل ربه وهو القائل « والله خلقكم وما تعملون » .

والشريعة باب للحقيقة ، وانما تؤتى البيوت من أبوابها ، واذا كانت الشريعة هي الباب ، فالطريقة هي الآداب ، والحقيقة هي اللباب ، أو قل ان الشريعة هي التعلق ، والطريقة هي التخلق ، والحقيقة هي التحقق ، فلا بد لك من الشريعة لتعبد ربك على صحة ، ولا بد لك من طريقة تتبعها . بارشاد عارف ، قبل أن تصل الى الحقيقة التي تنشدها من وراء العبادة ، فتؤثر الله على كل شيء ، فلا يكون لك قبلة ولا مقصد الا وجهه سبحانه ، كما يقول أستاذي العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه :

قبلتى فى الصلاة ساعة وقت	كم مصل بعد الصلاة تلاهى
انما قبلتى جميع حياتى	هى ذات الاله لن أنساها
فمسائى مع اليقين نهار	ونهارى سعادة برضاها

والشريعة كالجسد ، والحقيقة كالروح فى الجسد ، فالروح تلبس الجسد ، ولا وجود للأرواح ، الا فى الأجساد مدة عمرها فى هذه الدنيا ، ولا حياة للأجساد الا بها ، ولذلك قال امامنا مالك رضى الله عنه : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق .

وأصل التصوف مقام الاحسان الذى عرفه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث مسلم المشهور الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال صلى الله عليه وسلم فى تعريف الاحسان : « ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

فالتصوف أحد أركان الدين ، لأنه مقام الاحسان الذى سأل عنه جبريل بعد أن سأل عن الاسلام والايمان ، وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عمر أتدرون من السائل » - وكان فى شكل رجل لا يعرفونه - قلنا الله ورسوله أعلم ، قال هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ، فالاسلام الايمان والاحسان هى أركان ديننا ، فمن فرط فى واحد منها فقد فرط فى ركن من أركان دينه ، كما قال الامام الجلال السيوطى فى تعقيبه على الحديث الشريف .

ويقول سيدى الامام زروق - رضى الله عنه - فى كتابه القيم « قواعد التصوف » : حكم التابع كحكم المتبوع فيما تبعه وان كان المتبوع أفضل ، وقد أثبت الله لأهل الصفة وصفه الخالد « يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » وهذا هو أصل التصوف ، ثم يقول رضى الله عنه ، وقد كان أهل الصفة فقراء فى أول أمرهم حتى كانوا يعرفون بأضياف الله ، ثم كان منهم الغنى والأمير ، والمتسبب والفقير ، لكنهم شكروا عليها حين وجدت ، كما صبروا عليها حين فقدت ، فلم يخرجهم الوجدان عما وصفهم مولاهم به ، من انهم يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، كما أنهم لم يمدحوا بالفقدان ، بل بارادة وجه الملك الديان ، وذلك غير مقيد بفقر ولا غنى اذا كان صاحبه يريد وجه الله .

ويقول أيضا رضى الله عنه : وشرف الشئ بشرف متعلقه ، ولا أشرف من متعلق علم التصوف ، لأن مبدأه خشية الله ، التى هى نتيجة معرفته ، ومقدمة اتباع أمره ، وغايته افراد القلب له تعالى ، فلذلك قال الجنيد رضى الله عنه : لو علمت أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى تتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت اليه .

ومن كلام الامام زروق تدرك أنه لا سلبية عند السادة الصوفية كما ظن البعض خطأ ، حين نظروا الى أدعاء التصوف في القرون المتأخرة ، حين صار التصوف حرفة لبعض المعتمدين ، يتصدرون به الأتباع ، ويجمعون منهم الأموال ويسعون بهم الى ولائم الطعام ، ويرددون عبارات صوفية ، كما يردد البيغاء أصوات المتكلمين ذؤن فهم لمعناها ، أو عمل بمغزاها ، وما دروا أن التصوف علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وبصيرة نافذة ، وكسب من حلال ومجاهدة في بلوغ الكمال واردة وجه الله تعالى في كل حال .

وما أبدع ما يقوله العارف بالله الشيخ حسن رضوان — رضى الله عنه — في روض القلوب المستطاب في وصف أولئك المحترفين البطالين :

اعسوا جميع الخلق عن سير السلف	واستكملوا ما كان من جهل الخلف
واستعملوا أحوال سير العارفين	حفظا وتقريراً فقط لا عن يقين
بل تلك أحوال لديهم مصيدة	بالدين للدينيا ونار مؤصدة
ما هكذا والله كان السابقون	الأولون المخلصون الصادقون
الذائقون الخاشعون الصالحون	القائتون المتقون المفلحون
التائبون العابدون الحامدون	السائحون الراكعون الساجدون

ولا يخفأك أنه مهما جد الصوفية ، فانهم لا يبلغون مستوى الصحابة ، فالسادة الصحابة هم خير القرون في هذه الأمة ، وقد كانوا أسودا في نهارهم ، وعبادا في ليلهم ، وقد تولوا وظائف الدولة ، وضربوا في الأرض للتجارة ، وأنفقوا طائل الأموال في الصالح العام ، وقد حموا بيضة الاسلام بالسيف والقلم والمال ، والصوفية يتشبهون بالسادة الصحابة في ارادة وجه الله في كل أعمالهم ، فينظرون وهم يعملون الى المعبود لا الى العباد ، فلا يحفلون بمدح العباد أو ذمهم ، لأن ارضاء الله في عباده وبلاده هو قصدهم ، وهم في المجتمع يعاملون الله في عباده ، ويريدون وجهه .

وقد وصف الله السادة الصحابة فقال في وصفه الرائع جل شأنه « في يسوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » وإذن كانت للسادة الصحابة تجارة ، وكانت لهم أموال تجب فيها الزكاة ، ولكن هذه التجارة ، وتلك الأموال ، لم تلهيهم عن أداء حقوق الله ، فذكروا الله ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وخافوا يوم الحساب ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه .

وقد أدار الخلفاء الراشدون دفة الحكم ، أحسن إدارة وأقومها ، وأعدلها ، وجيشوا الجيوش لحماية الأوطان ، وكانوا من السابقين الأولين من المهاجرين ، كما قاد سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد ، وأبو عبيدة ابن الجراح ، وغيرهم ، الجيوش أبرع قيادة ، فكيف يظن أن التزام الدين ، وأخذه بقوة ، يضعف دنيا المؤمن ، وقد كانت السيادة للمسلمين في العالمين حين كانوا أشد استمساكا بالدين في القرون الأولى ، ذلك الاستمساك الذي أعانهم على فتح المشرق والمغرب ، ونشر الدين واللغة بين ربوعها : ولم يكتب التاريخ البشري ، ثمرة لأي فتح مثلما كتب للفتح الاسلامي ، الذي أعلا الله به كلمة الحق في الأرض ، ونشر به الهدى والنور ، والعدل الاجتماعي ، بين الأغنياء والفقراء ، والضعفاء والأقوياء والعلماء والجهلاء ولم يعهد التاريخ امبراطورية قامت على عجل كالامبراطورية الاسلامية ، وقد ساعد على سرعة قيامها تمسك المسلمين بالدين ، فلم يظلم قويهم ضعيفهم ، ولم يبخل غنيهم على فقيرهم ، ولم يكتف عالمهم علمه عن جاهلهم ، ولم يميز حاكمهم بين الشريف والوضيع ، فالكل أمام حكم الله سواسية كأسنان المشط ، فهل ترى ايجابية فوق ذلك .

وورع الحاكم ، لم يكن معناه ضعف ادارته أو تهاون في حقوق الأمة ، بل كان ورعه يقوم على اعطاء كل ذي حق حقه ، فقد قال أبو بكر رضى الله عنه في أول خطبة خطبها بعد مبايعته : ألا وان قويمكم عندي

ضعيف حتى آخذ منه الحق ، وإن ضعيفكم عندي قوى حتى آخذ له الحق ، وقد ضرب عمر رضى الله عنه بدرته حتى أوجع ، وقالوا كانت درة عمر أهيب من سيف الحجاج ، وقال عثمان رضى الله عنه ، إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وجرّد أماننا على كرم الله وجهه السيف فى أعناق الخوارج ، بعد أن بصرهم فلم يسمعوا أو يطيعوا ، وهؤلاء الأئمة الأربعة هم صفوة الصفوة من هذه الأمة .

فالتصوف الحق ، لا يعرف الضعف ، أو الخمول ، أو الجهل ، أو الذلة ، بل هو جهاد للنفس يقهر غرائزها المركوزة فى الطبع ، حتى تصفو من كدوراتها ورعوناتها ، فتسمو عن الحيوانية ، الى المثل الأعلى ، الذى أَرادَه الله تعالى ، للانسان فى كماله ، وأهله به ليكون له شرف خلافته فى الأرض ، فتعلو كلمة الحق على كلمة الباطل ، وتشيع بين الناس الفضيلة وتختفى الرذيلة ، فيسعد الناس فى دنياهم وآخرهم .

والتصوف هو طهارة القلب واليد واللسان والجوارح ، والصوفى كله رحمة بالخلق ، وكله حب لله تعالى الذى خلق الخلق ، ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه ، « ان الحب الذى استحوذ على قلب الصوفى ، ليس هو حب الانسان لله فحسب ، بل هو حب الله لجميع البشر ، فمن خلال هذه العقيدة فهو يحب الانسانية كلها حبا تعبديا ، وليس هذا الحب هو الأخوة التى يوصى بها الفلاسفة باسم العقل ، انه لشيء أكبر مما تفهم الفلاسفة .

وقد فاض علم الغزالى فأثار به طريق الحق ، للتابع والمتبوع ، والحاكم والمحكوم ، وأبرز به فضل الاسلام على الفلسفة العقلية التى فتنّت أهلها ، ودافع به عن حق الأمة ، فقد كتب ليوسف بن تاشفين ملك المغرب يقول له ان لم تنهض لنجدة اخوانك المسلمين بالأندلس برىء منك الاسلام .

ونيفت مؤلفات الامام محيى الدين بن عربى على أربعمائة كتاب ، وقد أسهم فى الحروب الصليبية بيده وبيافه وقد كتب للملك الكامل الأيوبرى يقول له : ان لم تنهض لقتال الصليبيين فاننا سنقاتلك كما نقاتلكم .

وقد استمع شيخ الاسلام العز بن عبد السلام الى الامام الشاذلى وهو يدرس لاتباعه فى ساحة الحروب الصليبية فخرج صائحا يقول هذا قريب العهد من الله ، هذا من الهام الله وهده .

وقالوا ان فكرة كتمان موت الملك نجم الدين كانت بايعاز من سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، فنفذت الفكرة شجرة الدر ، وكتمت موت الملك ، الى أن يأتى ابنه توران شاه من الشام .

واستمع بعد ذلك الى التعريف الذى قدم به الصوفية الامام السراج الطوسى فى كتابه اللمع حيث قال رضى الله عنه :

« فاذا قيل لك الصوفية من هم فى الحقيقة صفهم لنا فقل : هم العلماء بالله وبأحكام الله العاملون بما علمهم الله تعالى ، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل ، الواجدون بما تحققوا القانون بما وجدوا .

« هم أمناء الله عز وجل فى أرضه ، وخزاة أسرارهِ وعلمهِ ، وصفوته من خلقهِ ، فهم عباده المخلصون ، وأولياؤه المتقون ، وأحباؤه الصادقون الصالحون ، منهم الأخيار ، والسابقون الأبرار ، والمقربون والبديلاء والصدیقون .

« هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم ، وزين بخدمته جوارحهم ، وألهج بذكره ألسنتهم ، وطهر بمراقبته أسرارهم ، سبقت لهم منه الحسنی بحسن الرعاية ، ودوام العناية ، فتوجههم بتاج الولاية ، وألبسهم حلل الهداية ، وأقبل بقلوبهم عليه تعظفا ، وجمعهم بين يديه تلطفا ، فاستغنوا به عما سواه ، وآثروه على ما دونه ، وانقطعوا اليه ، وتوكلوا عليه ، وعكفوا ببابه ، ورضوا بقضائه ، وصبروا على بلائه ، وفارقوا فيه الأوطان ، وهجروا له الاخوان ، وتركوا من أجله الأنساب والأسباب ، وقطعوا فيه العلائق ، وهربوا من الخلائق ، مستأنسين به ، مستوحشين مما سواه « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

أقول وقد فارق المهاجرون مكة فرارا بدينهم الى الحبشة والمدينة ، وقطع الأنصار صلاتهم بأهل مكة ، ايثارا لله على الأنساب والأسباب ، وحرصوا على أن يبقى فيهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهانت عليهم كل تضحية في سبيل الله ، حتى لقد قال أبو الهيثم بن الشيثان في بيعة العقبة الثانية ، يا رسول الله ، ان بيننا وبين الناس « أى أهل مكة » صلات وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان أظهرك الله عليهم ان تدعنا وترجع اليهم ، فأجابه صلوات الله عليه وآله ، معاذ الله المحيا محياكم ، والممات مماتكم ، فقال أبو الهيثم ، هذه يدى فخذ لربك ولنفسك ما أحببت .

وقد مدح الله المهاجرين والأنصار بتضحياتهم فى آيات كثيرة من كتابه الكريم ونستشهد على سبيل المثال بقوله تعالى « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » وقد قهروا بجهادهم غرائز النفوس وطرحوا هواها وهى تميل بطلبها للاخلاد الى الراحة وامساك المال ، وتأسوا فى جهاد أنفسهم بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فاق فى جهاد نفسه كل المجاهدين ، فآثر ربه على كل ما أغروه به من ملك أو مال ، وقال بقلته المشهورة لعمه أبى طالب حين عرض عليه كفار مكة ملك الدنيا « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وقد ورثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم والعمل والجهاد ، وأخذ التابعون عن الصحابة ، والتابعون عن التابعين وهكذا أخذ الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، ويعبر انس بن مالك رضى الله عنه عن الفراغ الكبير الذى أحسوه بانتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى فيقول : ما نقصنا التراب عن أيدينا من دفنه عليه السلام حتى أنكرنا قلوبنا ، وذلك يدلنا على أن رؤية شخصه الكريم كانت نافعة لقلوبهم التى تأثرت بوحشة فراقه ، وان بقيت فيهم مثله العليا وسنته الطاهرة الزكية .

والشيوخ العارفون ، وهم العلماء الربانيون نواب عنه ، صلى الله عليه وسلم ، فى دعوة الخلق الى الحق ، لذلك كان الأخذ عنهم غنيمة ، والاجتماع بهم ، والاستماع اليهم رحمة ، ولنفع الاجتماع فى سبيل الله ، شدد الله على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التزامه ، ونهاهم عن تركه الا باذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفوضه صلى الله عليه وسلم فى أن يأذن بتركه أو لا يأذن ، وذلك فى قوله تعالى « اما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا مع على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم » .

ويقول الامام النسفى — رضى الله عنه — فى تفسيره لهذه الآية : لما أراد الله عز وجل أن يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذهاب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير اذنه اذا كانوا مع على أمر جامع « كل اجتماع فى الله كالتدبير للحرب والجمعة والعيدى » جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنه ثالث الايمان بالله والايمان برسوله ، ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا حيث أعاده على أسلوب آخر وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الايمانين وعرض بحال المنافقين ، وتسلبهم لو اذا « يستتر بعضهم ببعض » ، وفى قوله تعالى « فأذن لمن شئت منهم ، واستغفر لهم الله » رفع شأنه عليه الصلاة والسلام ، وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل ألا يستأذن ، ثم يستطرد الامام النسفى قائلا : قالوا وينبغى أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم فى الدين والعلم يظاهرونها ولا يتفرقون عنهم الا باذن .

ولئن أمكن أخذ العلم من الكتب بدون معلم ، فان آداب القلوب متعذرة وبدون مؤدب ، لأن النفس أماراة بالسوء ، وآفاتهما أخفى من ديبب النمل ، وكفى شرفا لعلم التصوف ، وهو علم تربية القلوب ، ان يطلبه سيدنا موسى عليه السلام فيسعى للخضر عليه السلام ليأخذه عنه ، حين

أعلمه الله ، أنه على علم من علم الله لا يعلمه موسى عليه السلام ، وإن كان من المرسلين أولى العزم ، فحرص على طلبه من مصدره ، وقال في أدب رفيع للخضر عليه السلام : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » وبقية القصة معروفة ، وإذا كان كلیم الله وصاحب التوراة ، سعى لرجال الله ، فنحن أحوج منه الى ذلك السعى .

وها هو أمامنا على بن أبی طالب كرم الله وجهه يذكرنا بأمر آخرتنا في بلاغته السامقة فيقول :

« الا ان الدنيا دار لا يسلم منها الا فيها ، ولا ينجى بشيء كان لها ، ابتلى الناس بها فتنة ، فما أخذوه منها لها ، أخرجوا منه وحوسبوا عليه ، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه ، وأقاموا فيه ، فانها عند ذوى العقول كفى الظل ، بينا تراه سابغا حتى قلص ، وزائدا حتى نقص » ..
ويصف كرم الله وجهه التقى من أهل اليقين بالله فيقول في روعة وصفه : « قد خلع سراويل الشهوات ، وتخلى عن الهموم ، الا هما واحدا انفرد به ، فخرج من ضعة العصى ، ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغالق أبواب الردى .

« قد أخلص لله فاستخلصه فهو من معادن دينه ، وأوتاد أرضه ، قد ألزم نفسه العدل ، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه .

« يصف الحق ويعمل به ، لا يدع للخير غاية الا أمها ، ولا مظنة الا قصدها . » قد أمكن الكتاب من زمامه ، فهو قائده وامامه ، يحل حيث حل ثقله ، وينزل حيث كان منزله .

وذلك الوصف يفسر لك كيف وقف السادة الصحابة في الصف الأول بقلوبهم مع الله ، لأخذهم الدين بقوة العزائم ، فورثوا الدنيا بقوة الدين ، حيث أهمهم أن ينشروا أنوار الاسلام في الخافقين ، فكان لهم من اخلاص نواياهم ، وقوة عزائمهم ، ما أرادوا ، مصداقا لوعده سبحانه « ولينصرن الله من ينصره » ونصرة الله انما تكون باقامة دينه والعمل على نشره لتكون كلمة الله هي العليا ، وقد أيدهم الله في جهادهم بجنود لا تراها العيون .

ويشيد المغفور له الدكتور محمد اقبال فيلسوف المسلمين في العصر
الأخير ، بآثار أسلافنا الصالحين الأولين فيقول في قصيدته الرائعة المسماة
« شكوى » التي نقلها الى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان
فيما قال طويلا رحمه الله في نجواه لرب العالمين :

بلغت نهاية كل أرض خيلنا	وكان أبجرها رمال البيد
في محفل الاكوان كان هلالنا	بالنصر أوضح من هلال العيد
في كل موقعة رفعنا راية	للمجد تعلن آية التوحيد
أمم البرايا لم تكن من قبلنا	الا عبيدا في أسار عبيد
بلغت بنا الأجيال حرياتنا	من بعد اصطفاد وذل قيود

ويحن الى حياة الاسلام وأبطاله الأوائل ، ويذكر عهدهم السعيد
فيقول :

كيف انطوت أيامهم وهم الألى	نشروا الهدى وعلوا مكان الفرقد
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم	من يهتدى للقوم أو من يقتدى
يا قلب حسبك لن تلم بطيفهم	الا على مصباح وجه محمد
فازوا من الدنيا بمجد خالد	ولهم خلود الفوز يوم الموعد
يا رب ألهمنا الرشاد فما لنا	في الكون غيرك من ولئ مرشد

ثم يبين ، طيب الله ثراه ، إننا ان مللنا حب الله ، ضللنا سواء السبيل
فيقول :

لم يبق في الأرواح غير بقية	رحمك يا مرآة كل جمال
لو قد مللنا العشق كان سبيلنا	ان نستكين الى هوى وضلال
أيام سلمان بنا موصولة	وتقى أويس في أذان بلال

ويقول :

النمل لا يخشى سليمانا اذا	حرس قراه عناية الرحمن
يا ليت قومي يسمعون شكاية	هى فى ضميرى صرخة الوجدان
اسمعهمو يا رب ما ألهمتنى	وأعد اليهم يقظة الايمان

وأذفهم الخمر القديمة انها
أنا أعجمى الدن لكن خمرتى
عين اليقين وكوثر الرضوان
صنع الحجاز وكرمها الفينان
لكن هذا الصوت من عبدان

وهكذا نرى أن هذا العبقري ، جال في الملكوت بيقينه ، ولم تحجبه
دراسته الغربية عن الاعتزاز بدينه وأسلافه ، وقد نال اقبال أعلى الأجازات
العلمية من إنجلترا وألمانيا في الفلسفة والآداب والقانون .. وتولى
التدريس بعد عودته في جامعات بلاده .. كما تولى المحاماة ، ولكنه عرّف
على قيامة إيمانه .. أنعاماً شجيرة ترددت في مسامع الشرق والغرب ..
وسجلت لهذا المسلم الصوفي الغيور أثراً — يذكره له الخلف — وقد كتبه
الله له في ديوان حسناته ، وسيجزيه به جنات الخلد ان شاء الله .. ولعل
شبابنا من أصحاب المواهب يحتذون هذا المثل العالى .. فلا تلهيهم دنياهم
عن أخراهم .. وما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا ..

وهؤلاء الصوفية يصلون الى الله تعالى بأرواحهم لا بأبدانهم ..
ويملاً حب الله قلوبهم ، كما يملأ المعشوق قلب العاشق فلا يترك فراغاً
لغيره « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين
آمنوا أشد حبا لله » جعلنا الله من الموصولين الواصلين « والسابقون
السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقايل من
الآخرين . »

الدين الحم هو ما صبه الصوفية حار في النفس الإنسانية

- ٢٥ -

« وكن مع أهل الحقيقة » وبحث عنهم بحث الباحث عن حق يرجع
اليه لنفسه فقط » .

جاءتني هذه العبارة في إحدى رسائل شيخى العاف بالله سيدي
الشيخ عبد السلام الحلواني ، قدس الله سره ، وحاولت أن أفهمها ، بشيء
من السعة ، فسألته حين جاء الى القاهرة في معناها فقال لى : اتركها حتى
يفسرها الزمن .

وعاشرته رضى الله عنه ، خمسة عشر عاما ، مرت كحلم النائم ،
وفقدت بموته ، اماما فريدا ، نسيج وحده ، شعرت بفراغه ، ويزداد
شعورى بالفراغ كلما مرت الأيام ، وفقد الأدلاء الاتقياء غربة ، لأن
الانس بالله تعالى وطن المحبين ، والشيوخ العارفون هم أدرى الناس ببقاع
ذلك الوطن ، فقد أنابوا الى الله فعرفهم قصد السبيل ، ونصح سبحانه
المؤمن باتباعهم فى قوله الكريم « واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم
فأنبئكم بما كنتم تعملون .

وتقدمت بى السن ، وخبرت الناس وبلوتهم ، وأكسبتنى التجارب
معرفة بأحوالهم وأهوالهم ، فلم يزدنى كل ذلك الا وثوقا فى نصيحة شيخى
رضى الله عنه ، بل لقد ساعدتني التجارب الطويلة على كشف ما كان
مخبوءا ، فظهر لى أمره ، وبأن لى سره ، فلم أجد الحق الا عند أهل
الحقيقة ، ولم أجد الحقيقة الا عند رجال الله الذين شرفهم بالاتساع
اليه فساهم عباد الرحمن ، ووصفهم بأنهم حزب الله ، وشهد لهم بالفلاح
فى قوله الكريم « أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » .

لكنى وجدت كذلك ، مع وضوح الطريق اذ تحف به أنوار الكتاب والسنة من كل جانب ، فانه دقيق المسلك ، حيث تصحب سالكه آفات النفس ومكايد الشيطان ، والنفس تترك الى الراحة ، والسلوك يحتاج لهمة السالك والشيطان يقعد بطريقه ، يصده عن ذكر الله وطاعته ، ويزين له حب الشهوات ، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيال المسومة والانعام والحرق ، والامام المتبوع من أهل الهدى ، لازم في عونه على اجتياز هذه المفاوز المردية ، فان اجتازها جاءه الشيطان من طريق آخر ، فأكبر له جهاده ، وصغر له جهاد غيره ، فرها بنفسه في قرارتها ، واحتقر غيره ، فكان ذلك عين الحجاب عن طلب الحق ، لأن طالب الحق لا يرضى عن نفسه حتى يردها الى الله طاهرة ، كما تلقاها عنه طاهرة ، كما يقول السادة الصوفية . وينفى عمر السالك دون هذه الغاية ، الا أن يشاء ربى شيئا ، لأن الدرب طويل ، والغاية بعيدة الا أن يقربها الله تعالى هبة واحسانا .

ثم ان العمل الصالح ، أساسه الايمان بالله تعالى ، والايمان هبة الله تعالى لعبده في سوابق أزلة ، وكذلك يتجلى فضل الله في ارسال رسوله الينا صلى الله عليه وسلم ، وفي ابقاء معجزة القرآن بين أيدينا ، متجددة على الدوام باعجازها المفحم الانس والجن ، وهو ما يزيدنا اطمئنانا الى صحة ديننا ، كما يزيدنا وثوقا في ثمرة العمل به ، والنظر في كل ذلك الى فضل الله تعالى ، وشكره على ما أولى وأنعم .

ويقول الامام أبو طالب المكي رضى الله عنه ، في قوت القلوب •

« أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة ، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى ، وطول الغفلة عن المنعم ، وترك التفكير في نعمه ، والتذكر لآلائه ومنه سبحانه وتعالى فقد أمر بذلك في قوله تعالى « فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » قيل نعمه ، وقال المفسرون « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » وبمعناه قوله تعالى « ولتكملوا العدة

ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » يعنى على نعمة الهداية وتوفيق الطاعة .

ويقول رضى الله عنه فى موضع آخر ..

« ولا يستطيع العبد شكر نعمة الايمان ، ومعرفة بداية التفضيل به ، وقديم الاحسان ، من غير قدم من العبد ولا استحقاق ، بل بفضل الله وبرحمته ، وهذا أحد الوجوه فى قوله تعالى « كلا لما يقض ما أمره » أى لا يقضى العبد أبدا شكر ما أمره الله تعالى من نعمة الاسلام التى هى أصول النعم فى الدنيا والآخرة ، وهى سبب النجاة من النار ، ومفتاح دخوله الجنة ، ولا أدل للعبد فيها ولا شفيع كان له الى الله تعالى بها .

« ثم دوام ذلك وثباته مع الطرف والانفاس بمدد منه نعم مترادفة ومن هذا قوله تعالى :

« كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » أى قواهم بمدد يشته ويقويه وهو معنى قوله تعالى :
« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

ثم يقول : « فلو قلب قلوبنا عن التوحيد كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الأعمال أى شئ كنا نصنع ، وعلى أى شئ كنا نعول ، وبأى شئ كنا نطمئن ونرجو فهذا من كبائر النعم ، ومعرفته هو من شكر نعمة الايمان ، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الايمان يوجب العقوبة .

واستطرد قائلا : « وقد جعل الله تعالى الخيرات من كسب الايمان ، وليس لنا فيما يكسبنا الخيرات مكان ، بل الله تعالى من علينا ان هدانا للايمان ، وجعله سببا يكسب لنا باحسانه الاحسان ، كما قال تعالى « أو كسبت فى ايمانها خيرا » قيل التوبة ، وقيل الصالحات كلها كسب الايمان « ومن النعم بعد الايمان ، توفيقنا للحسنى ، وتيسيرنا لليسرى ، ثم صرف الكفر وأخلاق الكفرة وأعمالهم ، ثم تزيين الايمان وتحبيبه لينا ، وتكريه النسوق والعصيان فضلا منه ونعمة ، الى ما لا يحصى من نعمه ،

فشكر ذلك لا يقام الا بما وهب أيضا ، وأنعم به من المعرفة بذلك والمعونة عليه .

وأبدع فقال : « والحياء من تتابع النعم هو من الشكر ، والمعرفة بالتقصير عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم الحلم وكثيف الشكر شكر ، وحق التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الخلق بالدعاء لهم وحسن الثناء عليهم لأنهم ظروف العطاء وأسباب المعطى تخلقا بأخلاق المولى جل وعلا هو من الشكر ، وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول ، وتكثير صغيرها ، وتعظيم حقيرها هو من الشكر » .

وأنت ترى في السطور المتقدمة ، شعاعا قويا يهتدي الى الرشد والتبصرة ، وليس كل عالم مشعا يمثل هذا الاشعاع القوى وهو اشعاع أهل الحقيقة الذين أرشدني شيخى رحمه الله أن أكون معهم ، وأن أبحث عنهم ، بحث الباحث عن حق يرجع اليه لنفسه فقط ليربيها في جنب الله ، على يد هؤلاء السابقين بالخيريات باذن الله ، وقليل ما هم .

وما استضأت مرة بنورهم ، ولا غرفت شربة من بحارهم ، الا دعوت الله ، أن يجزى عنى شيخى خيرا كثيرا . فقد عرفنى بهم ، وورثنى محبتهم والتزامهم ، وحقا ما يقوله الامام سهل التستري « وهو شيخ الامام أبى طالب المكي » : ان الدين الحى هو ما صبته الصوفية حارا فى النفس الانسانية . ويعرف رضى الله عنه التصوف فيقول : التصوف ليس رسما ولا علما ، ولكنه خلق ، لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله « أى الأخلاق التى ترضى الله تعالى » ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الالهية بعلم ورسم .

ويدلك الامام سهل على طريق الخير فيقول : لا تفتش عن مساوىء الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولكن عن اخلاق الاسلام ، وحالك فيه حتى يعظم قدره فى نفسك وتجتهد فى التلبس بتلك الأخلاق :

ويقول الامام السراج الطوسى فى كتاب اللمع ، ذكر عند سهل ابن عبد الله رحمه الله الكرامات فقال : وما الآيات وما الكرامات ، شئ ينقضى

لوقته ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود .

ومما تقدم تدرك ان التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف ولا تظن أن كرم الخلق ان تكون طيب الخلق مع الناس ، وتهمل واجباتك الدينية ، التى تعبدك بها ربك لمصلحة تعود عليك فى آخرتك فقد قال تعالى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

واذا كان المؤمن يتحلى بالخلق الكريم مع عباد الله الذين لا يملكون له نفعا ولا ضرا من دون الله ، فكيف به يهمل الخلق الكريم مع ربه ، الذى غمره باحسانه وقد جبلت النفوس على حب من أحسن اليها فوجبت محبة الله باحسانه اليها ، فان أحسنه أطعناه ، والا كانت محبتنا دعوى كاذبة ، وفرية باطلة .

ويرى الامام سهل رضى الله عنه ان الحياة الروحية فى الاسلام ترتكز على دعائيتين كبيرتين ، معرفة الله سبحانه ، والتخلق بالمثالية الرفيعة ، ويرى أيضا ان المعرفة تقتضى الطاعة ، والطاعة تقتضى الاقتداء الكامل بالرسول الكامل صلوات الله وسلامه عليه ، لذلك يقول الامام فى نصائحه : لا معين الا الله ، ولا دليل الا رسول الله ، ولا زاد الا التقوى ، ولا عمل الا الصبر ، وقد قيل له ما أغرب الأشياء قال قلب عرف الله ثم عصاه .

ويقول رضى الله عنه فى قواعد الصوفية : أصنولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق . ويعرف رضى الله عنه الولي فيقول : الولي من تواتت أعماله على الموافقة .

ولا تعجب لما يقوله الامام سهل ، فقد أوتى الحكمة صغيرا ، بعناية ربانية ، وهبة احسافية، حتى قال: وكان حالى فى الصلاة، وقبل الدخول فى الصلاة شئ واحد ، وحين وصف حاله لشيخه حمزة بن عبد الله قال له بشارك يا سهل ، وطوبى لك ، لقد بلغت الذروة العليا ، وانتقلت الى المقام

الأسمى ، لقد سجد قلبك ، وهو أعلى مراتب اليقين ، وما أحسب اليوم أن فى الأرض سواك فى هذا المقام .

ويقول سيدى محبى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الأكبر ، فى كتاب الفتوحات : كان بدء سهل فى هذا الطريق سجود القلب ، وكم من ولى كبير الشأن ، طويل العمر ، مات وما حصل له سجود القلب : ولا يعلم ان للقلب سجودا مع تحققه بالولاية ، ورسوخ قدمه فيها ، فان سجوده اذا حصل ، لا يرفع رأسه أبدا من سجدته ، فهو ثابت على تلك القدم الواحدة التى تنفرع منها أقدام كثيرة .

وقد سئل الامام سهل عن ذات الله فقال ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالاحاطة ولا مرئية بالأنصار فى دار الدنيا ، وهى موجودة بحقائق الايمان من غير حد ولا احاطة ولا حلول ، وتراه العيون فى العقبى ظاهرا فى ملكه وقدرته ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه والعقول لا تدركه ، ينظر اليه المؤمنون بالأنصار ، من غير احاطة ولا ادراك نهائية .

ولم يحرم الله عصرنا الحاضر من فيض رحمته واحسانه ، فجرت ينابيع الحكمة على ألسنة شيوخنا ، عذبة صافية ، كما كانت تجرى على ألسنة أوائلنا الصالحين ، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . واليك بعض ما نقلناه عن أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه ، فى المقامات التى مرت عليك فى هذا المقال وهو من الهامه الفورى :

انى أحب الها لا شريك له	وذاك روحى وريحانى وتبئلى
امسك لسانى عن قال وعن قيل	ان التشدد عنوان الأباطيل
طوقت بالشرع جيدى واكتسبت به	وما جنحت لتبديل وتأويل
ان المحبة للرحمن خالصة	اغنت قوادى عن كسب الأقاويل
ولو تساوى عطاء الله ما اختلفت	تلك البرية فى فهم وتعليل
لولم تكن رحمة الرحمن قد سبقت	ماصين حكم ولم يعمل بتنزيل
رشت من فيضه نورا فهمت به	وما يدانيه فيض السحب والنيل
نورا يظهر نفسى من هواجسها	فللحقيقة تشبيهى وتمثيلى

ليلى نهاري اناديه ويسمعني
وان منحت بفيض من سماحته
واذ ينادي فكل السمع يزهولي
يرق لي في كلام الله ترتيلي

وفي مقام آخر نقلنا عنه من الهامه الفورى قوله رضى الله عنه :
القلب من قوة الايمان مشهده
الوذ بالله لا أبغى به بدلا
وان لي بحبيبي وصلة وهدي
ارضى به وهو يرضيني ويغمرني
أخلي فؤادي له من كل شائبة
وكيف أرضى بغير الله متجهها
اذا سهرت فما أسهرت عن ملل
ومذ تغزلت في ربي وما ألفت
اذا مددت يدي لله أسأله

ويقول كذلك رضى الله عنه الهاما لوقته :

خلياني أبكى من الأجفان
وفؤادي لما تعلق بالله
لازم الله باليقين ترقى
لو تراه والحب فيه كمين
ان تكلمت فالاله مرادى
وأمد اليه الذليلة لله
واذا ما اليه مدت يميني
كلما قلت يا الهى شربا
واذا ما طلبت منه مرادا
ان للحب بهجة وجمالا
لا تظنوا قلبي ينام من الحب
جرب العشق مهجتي فرأها
لم أكن أظهر الغرام ولكن

فحبيبي وحقه ما جفاني
ترقى الى أعز ييان
وتلقى موارد الاجستان
فيه عينان بالهدى تجريان
أو تحدثت فالهدى في لساني
بصدق وذلة وهوان
فالينا مدت لربي يدان
أجد البحر زائد الفيضان
أشهد العلم فيه كالطوفان
وكمالا في كل قلب دان
ولكن تنام لى عينان
سكرت في الهدى وحسن المعاني
قد أذاعت خافى الهوى أجفاني

وما أروع ما يقول الهاما على البديهة :

<p>وعش في هوى الرحمن تسعد بالأنس وأسلم وسلم واتجه طالب القدس وطهر بها نفسا عن الغى والرجس وفوض له ما كان في الغد والأمس حلا المر بالتوحيد من رقة الحس حرام عليه الخوض في العرش والكرسي وعاملت بالحسنى وأدبت للنفس سواء عليك الموت أو ساعة العرس ونلت من الأخرى العطاء بلا بخس الى ربه يسعى ولم ير من بأس وان قيل لي اشرب قلت أنواره كآسى ومر الهوى بعدى وفي هجرهم تعسى وقلبي بحب الله يعبق كالورس وان لم أكن من سادة العرب والفرس فطورا به أطفو وطورا به غطسى وصلت بها بر السلامة والأنس</p>	<p>تخل ولا تحفل بجن ولا أنس وأقبل على مولاك بالقلب مخلصا وخذلك بالايمن أصدق وجهة تجرد تجد مولاك أكبر ناصر حياة الورى حلو ومر وانما ومن لا يرى الا الاله مراده وانك لو عظمت دينك عالما وكنت على الأحداث بالله راضيا سعدت من الدفيا بربك محسنا يقولون لى من أنت قلت موحد اذا قيل لى أطلب قلت ربي مطلبى وحلو الهوى عند لقاء أحبتي وان حبال الوجد تربط مهجتي وان كنت فى سعد فذلك فضله حسبت الهوى سهلا فخضت عبابه الى أن أتتني من لدنه عناية</p>
---	--

الاستعانة بأهل اليقين عند الصوفية

— ٢٦ —

« وانهج منهج أهل اليقين ، فسيكون لك شأن كبير ، وتستفيد فى الصحة اذا ذهبت فاستفد بالتقوى اذا آقمت » .

بهذه الكلمات نصحنى فى نشأتى شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، وقد رأيت فى التزامها واتباعها الخير كله فى أمر دينى ودنيائى ، وكان هو رضى الله عنه ، من أعلام أهل اليقين ، فسهلت لى صحبتته ، ان أنهج منهجه ، وأن أتخلق بأخلاقهم ما استطعت ، وانى ان لم أبلغ ما بلغوا ، فأرجو أن أكون سالكا دربهم ، لا ألتوى عنه يمنية أو يسرى ، ومن سار على الدرب وصل .

أما شأنى فى الدنيا فقد بلغت فيه بعون الله فوق ما كنت أرجو أتوقع ، وقد التحقت بسلم الوظائف من أدنى درجة ، فرقيته درجة درجة انى أن بلغت منتهاه حتى صرت وكيلا لوزارة الخزانة ، وكنت بفضل الله فى كل ما وليته من الأعمال محل ثقة تامة من كبار رجال الدولة ، وقد تفضل السيد رئيس الجمهورية فبنحنى وسامى الاستحقاق والجمهورية وهو ما أعترز به وأشكره لسيادته على الدوام ، كما تفضل حفظه لله فأذن لى بقبول ما منحته لى من الأوسمة بعض الدول الأجنبية .

أما فى أمر الدين ، فقد رزقت بعناية ربانية ، صحبة شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، وصحبة تلميذه العالم الربانى سيدى الشيخ على عقل نور الله ضريحه ، وقد أوتيت خيرا كثيرا من صحبتهم ، تلك الصحبة المباركة التى اعتبرها فوزا عظيما فى حياتى ، لأن درجات الدنيا وان حسنت ، لا تغنى عن درجات الآخرة ، وكيف تغنى عنها ، والله تعالى يقول « وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » كما يقول عز وجل « لا يغررك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس

المهاد» ويقول منها بفضل الآخرة « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

ولقد تبين لى من صحبة هذين العارفين ، أن طريق الآخرة ، وان كان مسيراً لساكنه ، الا أنه دقيق المسلك ، طويل الدرب ، ويحتاج سالكه الى دليل من العارفين بالله ، يسرع به الخطا فى مأمن من التيه أو الانزلاق ، ذلك بأن النفس البشرية ، تنازع بشهواتها وهواها صاحبها ، ولا تكاد تنصرف عن شهوة الا الى شهوة أخرى ، وليس جتما أن تكون شهواتها جسدية ، فقد تكون شهواتها لصاحبها معنوية غير حسية ، كطلب الجاه والشهرة فى العلم أو الدين ، أو ثناء من الملتفين حوله ، أو كرامات تظهر على يديه من خوارق العادات ، أو نيل مقام من مقامات الولاية الى غير ذلك مما تنطوى عليه الصدور ولا تبديه الجوارح .

والتصوف انما يقوم على مغالبة هوى النفس فى جميع شهواتها ، حتى يعتدل مسلكها وتدور فى الفلك الصحيح ، وهو فلك محبة الله ، وإشاره تعالى على ما سواه ، ولما كان السير فى هذا الفلك ، له آداب ظاهرة ، وآداب باطنة ، وكانت الآداب الباطنة أخفى من ديب النمل ، فقد وجب على المؤمن أن يستعين فى سلوكها ، بأهل اليقين ، الذين أثار الله بصائرهم ، فصاروا أئمة فى الارشاد ، يذللون كل صعب فى طريق السالك لربه ، أكثر مما يفعل الفقهاء فى تذليل الصعوبة فى فهم أحكام العبادات والمعاملات أو غيرها من سائر العلوم .

والعلماء الربانيون من أهل اليقين بالله ، هم الذين اصطلح على تسميتهم بلقب « الصوفية » ، وهم مقيدون بالشرعية ، ومؤيدون بالحقيقة ، لأنهم لا يبلغون حقيقة الايمان ، الا باتباع أحكام الشريعة ، فالحقيقة هى ثمرة العمل بالشرعية وهم يأخذون فى الدين بالأحوط ، فيأخذون بالعزائم والمجاهدات ، لا بالرخص والتأويلات ، وبذلك تصفو عبوديتهم لله ، فلا تستعبدهم شهوة ظاهرة أو خفية ، وهذا ما يفسر لنا قولهم فى تعريف الصوفى : هو ذلك الانسان الكبير الذى يتخطى الحدود التى رسمتها للنوع البشرى ماديته .

وفى التعريف المتقدم تكليف ضد الطباع ، وهو أمر لا يتسنى الا لمن كبرت همته فصارت أقوى من هوى نفسه ، فتسامى بروحه فوق ماديّات الأرض ، ولا يتأتى له ذلك الا بعد التخلّى عن أمراض قلوب العوام ، من الأخلاق الشيطانية ، كالحقد والحسد ، والكبر ، والحرص ، والفخر والرياء ، والخداع ، والسخط على المقدور والشماتة بالأعداء ، الخ .. الخ .

ويحكى السادة الصوفية لنا فى هذا المجال أن الشيخ عبادة المالكي رضى الله عنه ، اجتمع بسيدى الشيخ مدين رضى الله عنه ، فلم يعظمه ولم يلتفت اليه ، فقال يا سيدى ، ما منعك ان تعطينى حقى فى الاكرام ، فقال كيف وأنت مشرك ، فقال وما وجه اشراكى ، قال حالك الذى أنت فيه الآن ، وطلبك التعظيم والخضوع لك ، وليس ذلك الا الله تعالى ، فمن ينازع الله فيما يستحقه ، ويطلب أن يكون له مثله ، كيف يكرم ، وانما يستحق الاهانة والاحتقار ، فسكت الشيخ عبادة ساعة ، ثم قال أشهد الا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، تبت الى الله تعالى ، وهذا أوان دخولى فى الاسلام أى كمال الاسلام .

وجهاد السادة الصوفية لأنفسهم ، جهاد متواصل لا ينقطع ، ولذلك ترى أرواحهم تتصاعد فى مراقبها ويلبسهم الله مهابة تغشى نفوس المريدين ، فهم سلاطين التقوى ، وان لم تخفق عليهم البنود ، والأمراء ، وان لم تسر أمامهم الجنود ، وكلما نزلوا فى معاملة خالقهم الى تواضع العبودية أرضا أرضا ، كلما رفعهم الى مقامات الخصوصية سماء سماء .

وقد قال القائل فى وصف الهية التى خلعها الله تعالى على امامنا مالك بن أنس رضى الله عنه :

يأبى الجواب فما يراجع هية والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

وقد فهم أئمة الفقه الأوائل ، أن الفقه وسيلة للتفقه ، والتفقه لا يكون الا بالاخلاص فى تطبيق أحكام الفقه ، والاخلاص يقتضى أن يعامل الفقيه ربه فى أحكامه ، فلا يلتوى به القصد ، ولا يؤول الأحكام بهوى النفس ،

حتى يتخلق بالأخلاق النبوية ، التي بلغ بها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قمة الخلق العظيم في قوله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » وهي آية عظيمة تفيد أنه صلوات الله وسلامه عليه بلغ في خلقه الأفق الأعلى الذي أحبه الله وارتضاه .

وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت في ابداع رائع ، وفقه عميق ، كان خلقه القرآن ، أى أنه صلى الله عليه وسلم تخلق بكل خلق سنى دعا اليه الله تعالى في كتابه الكريم ، وتجنب كل خلق دنى نهى عنه سبحانه ، فكان فى كماله الانساني ، كما أحب الله أن يكون ، وصار صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا .

ولو كان المسلمون الأواخر قد التزموا نهج السابقين الأولين ما تفرقت بهم السبل ، ولا تشعبت بهم الأهواء ، ولكن حدث أن ترجمت فى الدولة العباسية كتب اليونان ، وكتب فلاسفتهم ، وأخذ بعض أهل العلم عنها للجدل ، وظهر علم الكلام ، وانتصر كل فريق لآرائه ، وتعصبت كل طائفة لمشربها ، وقلحت فى مشرب غيرها ، وجاء نشاط الجدل والفسفسطة على حساب العمل الخالص لوجه الله ، وتعدى الجدل الى الفقهاء ، فعمدوا الى التخريجات ، والتأويلات ، وجعلوا من الفقه صناعة ، كصناعة شراح القانون ، وفترت الهمم فى طلب الله ، حيث أخذ الناس فى دينهم بالأخف الأيسر ، وبالقليل الذى يسقطون به الحرج عن نفوسهم ، واطضاف الى ذلك ظهور كثير من البدع نتيجة لاتساع الفتوحات واختلاط المسلمين بغيرهم ، كما تلبس المسلمون بشهوات فشت فيهم ، ولم تكن فاشية فى أسلافهم .

وعندئذ غار أهل الحق من السادة الصوفية على فضيلة الاسلام أن تضيع ، فجدوا السير فى نشرها علما وعملا وحالا ، وجعلوا من أنفسهم مثلا عليا يحتذوها الخواص الذين يريدون وجه الله ، ويأخذون فى دينهم بالعزائم والمجاهدات ، ولا ينزلون الى الرخص والتأويلات ، فصافوا تراثا عزيزا كاد أن يندثر باشتغال الناس بالجدل دون العمل ، وبحظوة الدنيا دون

حظوة الآخرة ، ويقول امامنا على بن أبى طالب فى وصف أهل الحق :
عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية فان رواة العلم كثير
ورعاته قليل ..

ويقول السادة الصوفية انه اذا كان الايمان فى ظاهر القلب أحب
الانسان الدنيا والآخرة ، فتارة له وتارة عليه ، واذا دخل الايمان باطن
القلب أحب العبد الآخرة وهجر هواه ، واذا باشر الايمان سويداء القلب
أعرض عما سوى الله ، كما يقولون ان التوحيد هو العلم ، والعمل أصل
الايمان ، والايمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، فاذا
ثبت سمي يقينا ، فاذا قوى سمي توحيدا ، فاذا رسخ سمي معرفة ، فمن
عرف ربه راقبه ، وحاسب نفسه ، وعلم أنه يراه من حيث لا يراه ، فهو
يستحى منه .

وأنت ترى مما تقدم أنه حين انحدر الفقهاء وجعلوا من الفقه صناعة
تؤدى الى كسب الحظوة عند السلاطين والأمراء ، ثبت الصوفية عند
تربية النفوس فى جنب الله ، وتقوية يقينها بالله علما وعملا ، وحسبة لوجه
الله ، تنفيذاً لأمر الله الكريم (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ولا بد للأمر بالمعروف
والناهى عن المنكر أن يبدأ بنفسه أولاً ..

وقد سأل رجل الامام الحسن البصرى عن مسألة فأفتاه فيها ، فقال
الرجل للامام الحسن قد خالفك الفقهاء فيها ، فزجره الامام الحسن وقال
له ويحك وهل رأيت فقيها بعينيك ، انما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، البصير
بدينه ، المداوم على عبادة الله عز وجل ، وقال سيدى أبو العباس المرسى
رضى الله عنه : الفقيه من اتقأ الحجاب عن عينى قلبه .

ولم يتجه الصوفية الأوائل الى تأليف الكتب بل ألّفوا القلوب على
محبة الله واشاره سبحانه عنا سواه ، وآتاهم الله الحكمة الصافية من الهامهم
العالى فنطقوا بها ، وناقلاها عنهم تلاميذهم ، وأسمعوها من يستحقها ، ممن
يفهم مصطلحاتهم ، ويذوق مذاقاتهم ، ثم بدا للمتأخرين منهم ، أن يدونوا

علومهم ، ويشبتوا مصطلحاتهم ، خشية أن تضع علومهم النافعة بموت أهلها ، فصانوا تراثاً عزيزاً أخذوا الخلف عن السلف ، نورا مشعا يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ، وخاصة فى آفات النفس وعلاجها بالمجاهدات الظاهرة والباطنة ، وهى أمانة بالسوء الا ما ربحه ربي . وعلم التصوف انما قام على التجربة والعيان ، أكثر مما قام على الدليل والبرهان ، وان استندت آدابه الى الكتاب والسنة ونهج السلف الصالح فى الفهم والتطبيق .

وقد منى السادة الصوفية ، بأدعياء يلتمسون التصوف ، وهم منهم براء ، فظن الناس بالتصوف سوءا حين نظروا الى جهل هؤلاء الأدعياء وتصرفاتهم المخزية ، فظنوا أن التصوف طبول ومزامير وطراير وبطالة واحتيال ، وما هو الا العلم والعمل والجد الذى لا هزل فيه ، فما التصوف الا قلب عامر بالمحبة (قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) ووسائل التصوف علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وبصيرة نافذة ، وحالة مرضية . لا يتصور اذن أن يبلغ مستوى التصوف العالى عوام المسلمين بل هو لخواص أهل اليقين ، والله تعالى جعل أهل الاسلام فى مراتب ثلاث فى قوله الكريم (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) ومعلوم أن المؤمنين منهم أهل اليمين ومنهم السابقون المقربون ، وعلى قدر جهاد النفس ، وما قدره الله المعبود . فى سوابق الأزل يتفاضل مؤمن عن مؤمن وأهل اليمين فى الأمة المحمدية كثيرون بحمد الله ، أما السابقون فقليل ، لأن الجوهر النفيس يكون عزيز المنال عادة ، ولقلتهم فى المجمع يظن الناس أنهم غير موجودين ، ولكنهم بفضل الله موجودون ولا يعرفهم بخصوصيتهم الا من أراد الله له السعادة بصحبتهم والأخذ عنهم ، وهم أهل همة لا تعرف الكلل ، وأهل عزم مؤكد لا يهزم .

ويقول فيهم أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، نور الله
ضريحه ، من الهامة الفورى الذى قاله ارتجالا ونقلته عنه :

رجال ولكن علا قدرهم تبارك من لهم قد خلق
لهم همم كالجبال الرواسى وهم عند ربك نور العسق
ونارهم فى النعيم المقيم فيا عجبا جنة فى حرق

وقد كان رضى الله عنه من أئمة أهل اليقين فى عصرنا الحاضر ، وقد
أسعدنى الحظ فعرفته ، وعرفت شيخه وشيخى العارف بالله سيدى الشيخ
عبد السلام الحلوانى ، وأخذت عنهما التربية الدينية الصوفية ، وفضلهما
فى عنقى لا يكافئهما عليه الا الله تعالى ، وقد رأينا منهما أمثلة حية من
السادة الصوفية الصادقين دلت على علمهم وعملهم ، وذوقهم وشوقهم ،
وصدقهم وصفائهم رضى الله عنهم ، وقد نقلت عنه من الهامة الفورى قوله
فى وصف حاله :

أنا صب ثابت القـدم مستهام القلب من قدم
أملى فى الله يقبلنى فسوى الرحمن لم أرم
لم يثرنى الناس فى كلم انما الله مدى كلمى
ان أرادونى لمـدح فتى لم تفه بالمـدح بنت فمى
لست هجاء لأى فتى اننى عن كل ذاك عمى
وشرابى حب حضرته فهو مأمولى ومغتمى
عزتى بالله واصلتى وقوى الايمان معتصمى
ان قلبى فى محبته قلب صب غير منفصم
أنا من جى لحضرته لم أفق من لذة النغم
أنا من شوقى لحضرته تارك للناس كلهم
ليس يغينى سواه هوى وهواه منتهى همى
لم أزل فى حى حضرته مرتعا للعالم والحكم
وفؤادى من هدايته يرتوى من مورد الكرم
هاجنى وجدى وبه حرق لم تكن من شدة الضرم
بل هى الأنوار يقذفها فسرت فى مهجتى ودمى

ولعل ألقارىء الكريم ، يرى من خلال هذه الصورة التى أرانا إياها
أستاذنا طيب الله ثراه ، كيف يكون الرجل من أهل اليقين ، فى جبهه الله ،
وكيف يشحذ همته فى طلب رضاه ، ولا عجب أن تبلغ همته ذلك المستوى
الرفيع فقد سمع شيخنا الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه
قائلا يقول :

وإذا العناية لاحظتك عيونها فم فالمخاوف كلهن أمان

فقال ولم ينام ؟ بل — قم فالمخاوف كلهن أمان، وهذا ذوق عال لا يدركه
الا أهله وذووه ممن عظم الخالق فى أنفسهم ، فحيت قلوبهم بمعرفته ،
وازينت جوارحهم فى خدمته ، وعلت بمراقبته أسرارهم ، فمزقت الحجب
أنوارهم ، وصفا شربهم من كأس وده ، وما أطهره من شراب ، وترك لنا
شيخنا الأكبر أئمة أعلاما ، أخذنا عنهم ، بعض ما أخذوه منه ، وجزاه الله
عنا وعنهم كل خير .

وقد كان الناس ، يفدون الى محافل شيخنا الأكبر قطب عصره ،
ومجدد قرنه سيدى الغوث الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه المبارك
بالزقازيق ، وهو مربى شيوخى الأجلاء الأفذاذ ، فيطلبون اليه أن يأذن
لتلميذه الملمه الشيخ على عقل أن يخمس لهم أبياتا من الشعر أو يشطرها ،
أو يسمعهم قصيدة كاملة على وزنها ، أو يفسر لهم آية يختارونها من كتاب
الله ، فكان الشيخ الأكبر يقول له ، سمعت يا على ، فيقول نعم سمعت
يا سيدى ، فيأمره بالاجابة ، فيطرب السامعون لما يفيضه الله عليه من
الهامة ، وكان سيدى الشيخ الأكبر يمزح معه أحيانا ، ويقول له : قل ،
انك لا تأتينى بشيء من بيت أليك ، وكان سيدى الشيخ عبد السلام
الجلوانى يمتدح لى سيدى الشيخ على عقل وقال لى يا فلان (الشيخ على
من أساطين الطريق) .

ومع الهامة الذى آتاه الله من فضله ، فقد رأينا من أستاذنا العارف
بالله سيدى الشيخ على عقل ، حرصا على متابعة كتب السنة ، وكان رضى

الله عنه يحب صحيح الترمذى ، ويحفظه عن ظهر قلب ، وكان يقول لى ، لو كان الأمر بيدى لحملت الأزهر على تدريسه ، كما يدرس صحيح البخارى ، وكان يعلل حرصه على قراءة كتب السنة بقوله لا أحب أن يعاتبنى النبى صلى الله عليه وسلم فى ترك الاطلاع على سنته يوم القيامة

وكننت اذا ذهبت الى الاسكندرية ، أحضر له درسه العام الذى يلقيه على المصلين بين المغرب والعشاء ، وأحضر له درسه الخاص ، الذى يلقيه على بعض الخواص من أحبابه بعد انصراف المصلين ، فكنت اقرأ له (لأنه رضى الله عنه كان كيف البصر) ويتولى هو الشرح فيأتى لنا بالعجب العاجب فى شروحه ، من فيض الهامة ، ثم نمضى معه بعد هذا الدرس الخاص ، الى مجالس المريدين ، فينشدنا من حكمه ، ما ترق به قلوبنا ، وما تشتد به أشواقنا ، ثم تبدأ أسئلة العلم ، فيسأل من يريد فيما يريد ، وينساب الشيخ انسياب البحر اذا فاض ، وكان يحب أسئلتي ، وكننت أطرب لاجابته ، وأناقصه فيها لأزداد طربا .

وأذكر على سبيل المثال ، ما دار بينى وبينه رفع الله قدره فى الأولياء فى أمر التشهد فى الصلاة ، فقلت له انى أحب أن أذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيادة فى التشهد وبعض العلماء يذكرون أنه صلى الله عليه وسلم قال لا تسيدونى فى الصلاة ، فأجابنى رضى الله عنه ، بأن هذا القول ليس بحديث واللغة العربية تقول سود لا سيد ، ثم قال : اذكره صلى الله عليه وسلم بغير سيادة فى التشهد عند قولك أشهد ألا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، واذكره بالسيادة كما تحب بعد ذلك ، فقلت له وما السبب ؟ فسكت قليلا ثم قال هكذا علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقلت له ، وكيف كان ذلك ، فقال : رأيتنى فى المنام أصلى ومولانا رسول الله يراقبنى فى الصلاة ، فلما جلست للتشهد قلت على مسمع منه صلى الله عليه وسلم : أشهد ألا اله الا الله وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، فراجعنى صلى الله عليه وسلم وقال أشهد ألا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقلتها كما علمنيها صلى الله عليه وسلم ، ثم

استطردت قائلاً على مسمع منه صلى الله عليه وسلم ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد فسكت ولم يراجعنى .

فسألت ، وماذا فهمت من مراجعتك لك فى الأولى ، وسكوته فى الأخرى ، فقال فهمت أنه حين يقرن فى الشهادة بربه ، لا يود أن يذكر بالسيادة أدبا مع الله وبه ، وحيث انفرد فلا يمنع أحدا من أبنائه المؤمنين من تكريمه ، لأنها قرينة إلى الله تعالى .

فانظر أيها القارئ كيف يلحظ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه الشريفة أهل التقوى ، ويعنى بتوجيههم ، وهذا ما يكشف لك السر فى سبق السادة الصوفية ، فانهم على صلة خاصة بالله ورسوله ، وان كانوا بيننا فى ظواهرهم البشرية يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ، لكنهم يختلفون عنا فى البواطن ، ويا سعادة من صحبتهم ، ونهج منجهم ، وثبت على قدمهم ، حتى نشرب مشربهم ، وتناول منالهم ، ونحيا حياتهم ، وهى حياة الرضا ، التى يصح بها البدن من تعب أعصابه ، والقلب من قلقه واضطرابه « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ، ومعلوم أن الجسد يمرض باضطراب النفس ، والدين يضعف بترك الطاعات وإتيان الشهوات ، وليس لله حاجة فى طاعتنا ، وانما فرضها الله علينا لنفعمنا العاجل والآجل ، وهو غنى عنا وعنهما (والله الغنى وأنتم الفقراء) ولهذا كان القطب الذى دار عليه القرآن الكريم كله هو قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) وهذا ما يفسر لنا قول سيدى الشيخ رضى الله عنه فى آخر عبارته ، وتستفيد فى الصحة اذا ذهبت فاستفد بالتقوى اذا أقمت ، والاقامة فى التقوى هى الثبات عليها والعمل بالحديث الشريف (اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) .

ويقول العارفون ان الأنوار الظاهرة في أولياء الله انما هي من اشراق
أنوار النبوة عليهم ، ويوضح لنا سيدنا العارف بالله ابن عطاء الله السكندري
ذلك ، فيقول رضى الله عنه ان مثل الحقيقة المحمدية كالشمس ، وأنوار
قلوب الأولياء كالأقمار ، وانما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته
اياها فاذا الشمس منيرة نهارا ومضيئة أيضا ليلا لظهور نورها في القمر
الممدود منها ، فاذا هي لا تغروب لها ، ويعقب سيدى ابن عطاء الله قائلا :
وأين أنوار الكواكب من أنوار قلوب أوليائه ، أنوار الكواكب تنكدر
وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها ، ويقول رضى الله عنه فى هذا المعنى
شعرا :

أمرت قب النجوم من السماء	نجوم الأرض أبهى فى الضياء
فتلك تبين وقتا ثم تخفى	وهذى لا تكدر بالخفاء
هداية تلك فى ظلم الليالى	هداية هذه كشف الغطاء

ومن فضل الله على الأمة المحمدية ، أن يقوم فيها دعاة الحق جيلا بعد
جيل ، فيهدون الناس بأمر الله الى طريق الحق على أساس الكتاب والسنة
والجماعة ، وذلك مصداق لقول مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فى
كل قرن من أمتى سابقون) واقوله تعالى (ثلة من الأولين وقليل من
الآخرين) رضى الله عنهم أجمعين .

أشراجتماع الأشباح ف الأرواح

— ٢٧ —

« أهلا وسهلا بكتآبك أقيم ، الذى أزال وحشة البعد ، خصوصا وأننى لم أحظ هذا الأسبوع بلقاءكم ، وقد أصبح القلب يحن الى اللقاء دائما ، لتتمتع الأرواح بقاء الأشباح وان كانت مجتمعة ، فلهه درك ، والله كتابك هذا ، وأسأل الله أن يمنحك التقوى الشابة والقوة وسعادة الدارين . »

بهذه الكلمات الرقيقة ، وجهنى شيخى العارف بالله ، سيدى عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى أهمية اجتماع المريدين بشيخهم ، لتتمتع الأرواح بقاء الأشباح وان كانت مجتمعة على محبة الله فى عالم الروح .

وقد كان السادة الصحابة ، وضوان الله عليهم ، يحرصون على الاجتماع بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واذا كانوا معه على أمر جامع ، لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، وخيره الله تعالى فى أن يأذن أو لا يأذن لمن شاء منهم ، « فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله » وفى قوله تعالى « واستغفر لهم الله » اشارة الى أن الأولى بهم ألا يتركوا الاجتماع به صلوات الله وسلامه عليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وقد نهج السادة الصوفية ذلك النهج ، فلا يتركون الاجتماع بشيخهم الا باذن ، وهو مخير فى أن يأذن أو لا يأذن لمن يشاء من المريدين ، وانا الآن نعيش فى ذكرى الاجتماع بشيخنا ، وكأنها كانت أحلام نائم ، وحدث عن الصفاء الذى كنا نلقاه فيها ، وعن الفيض الذى كان يغمرنا ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، ويد الله مع الجماعة « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

ويدلنا على أثر اجتماع الأشباح فى الأرواح ، ما قاله سيدنا أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، بعد أن دفنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال : والله ما كدنا ننفض أيدينا من دفنه صلى الله عليه وسلم ، حتى أنكرنا قلوبنا . فقد أحسوا بالفراغ الكبير ، والوحشة الشديدة ، بفراقه صلوات الله وسلامه عليه ، وإن كانت أرواحهم ملازمة لروحه ، وقلوبهم مملوءة بحبه ، صلوات الله وسلامه عليه .

ويقول الامام الشعرانى رضى الله عنه ، ان تعظيم كل واحد ، انما يكون على قدر معرفته به سبحانه وتعالى ، ولولا تمايز الرتب لكان كل من صلى وصام كأبى بكر الصديق رضى الله عنه لأنه فعل كفعله .

وأنت ترى من ذلك أن درجات الكرامة عند الله ، تتفاوت بتفاوت الفهم عن الله ، فليس فهم الأنبياء صلوات الله عليهم ، كفهم الأولياء رضى الله عنهم ، ولا فهم الأولياء ، كفهم آحاد الناس ، وقد روى الحاكم مرفوعا « من كان لا يعلم منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » .

والشيوخ العارفون بالله ، ليسروا لما خلقوا له من دعوة الناس الى الله بالمقال والحال ، وأعلمنا سبحانه انه يدعو يوم القيامة كل أناس بامامهم « يوم ندعو كل أناس بامامهم ، فمن أوتى كتابه يمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتىلا » ويقول امامنا الأكبر على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى هؤلاء الشيوخ العارفين : لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، اما ظاهرا مشهورا أو خائفا مغبورا ، لئلا تبطل حجج الله وبياناته ، وكم هم ، وأين أولئك ، والله انهم الأقلون عددا ، والأعظمون عند الله قدرا .

ويقول فيهم عبقرى الصوفية ، جلال الدين الرومى ، فيما ترجمه عنه من الفارسية الى العربية ، صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

« سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، ان الهام النحل هو الشهد ، والهام حشرة القز نسج الحرير ، والهام البلبل أغاني السحر ، والهام رجال الله ، نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض صدقوهم هم مصاييح الدجى أكرمهم هم مفاتيح الرجا »

« اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » .
والنفس مجبولة بطبعها البشري ، على الحركة فى طلب الشهوات ،
والله تعالى أمر المؤمن بالكف عنها ، وفى ذلك ابتلاؤه فى هذه الدنيا ،
فنفسه تتحرك فى ميدان المخالفة ، والله تعالى يأمرها بالسكوت والطاعة ،
ويحذوها من عواقب الحركة فى معصيته ، ولما كان المؤمن لا يقوى وحده
على مغالبة نفسه وهواه ، لزمه أن يستعين فى تربية نفسه ، بإمام من رجال
الله أتقى منه ، يعاونه فى جهاد نفسه وقتل هواها ، حتى تستقيم وتسلك
سبيل الرشاد . والتعاون على البر والتقوى من قواعد الدين الأساسية
« وتعاونوا على البر والتقوى » .

ويقول سيدى محبى الدين بن عربى فى لزوم الشيخ فى تربية المرید :
من لم يأخذ الطريق من الرجال فهو ينتقل من محال الى محال ، كما يقول
الشيخ من أخذ منك وكشف عنك ، الشيخ من حمل عنك المشقات وأشهدك
منازل القربات ، الشيخ من أمات نفسك قبل أن تموت ، وجال بروحك فى
عالم الملكوت ، الشيخ من نقل اسمك ومحا رسمك ، الشيخ من أطلعك على
حالك لا من أخذ من مالك .

وروح المریدین تسقى من اجتماعهم بشيخهم ، بسر الهى يعطيه الله
تعالى للشيخوخ العارفين فى أرواحهم ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من
يشاء ويقول تعالى « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى
الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما
كانوا يعملون » كما يقول سبحانه « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على
بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ويعبر السادة الصوفية عن هؤلاء الشيخوخ العارفين أحيانا بالفقراء ،
ويقصدون بذلك أنهم فقراء الى الله أغنياء عن غيره ، واليههم يشير سيدى
أبو مدين التلمسانى فى قوله :

ما لذة العيش الا صجة الفقرا	هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهم وتأدب فى مجالسهم	وخل حظك مهما قدموك ورا
متى أراهم وأنى لى برؤيتهم	أو تسمع الأذن منى عنهمو خبرا

قوم كرام السجايا حيثما جلسوا يبقى المكان على آثارهم عطرا
يهدي التصوف من أخلاقهم طرفا حسن التألف منهم راقنى نظرا
لا زال شجلي بهم فى الله مجتمعا وذنبنا فيه مغفورا ومغتفرا

وقد بين لنا رضى الله عنه ان الاجتماع بهؤلاء الشيوخ يجمع شمل
المريدين على الله سبحانه ، وهذا أمر طبيعي ، لأن الاجتماع بهم يحقق
وحدة الهدف ، ووحدة الفكرة فى ميدان التوحيد ، ويقول سيدي
أبو القاسم الجنيد ، وهو سيد الصوفية فى القرن الثالث الهجرى : أشرف
المجالس وأعلاها ، الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد .

ولأثر تلك المجالس فى التربية الصوفية ، يحاسب الشيوخ المريدين
عند التغلف عنها ، وقد اقتطع أحد أتباع سيدي المرسى أبى العباس عن
الاجتماع به فقال له رضى الله عنه : لم تنقطع عني ، فقال المريد ، يا سيدي
استغنيت بك ، فقال له معلما : ما استغنى أحد بأحد ، وما استغنى أبو بكر
الصديق رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينقطع عنه
يوما واحدا .

وقد قيل لابن السماك رضى الله عنه : ما الكمال ؟ فقال : الكمال ألا
يعيب الرجل أحدا بعيب فيه مثله ، حتى يصحح ذلك العيب من نفسه ،
فانه لا يفرغ من اصلاح عيب حتى يهجم على آخر ، فتشغله غيوبه عن
عيوب الناس ، وألا يطلق لسانه ويده ، حتى يعلم أفى طاعة أو معصية ،
وألا يلتبس من الناس الا ما يعلم أنه يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم
من الناس باستشعار مواراتهم ، وتوفية حقوقهم ، وأن ينفق الفضل من
ماله ، ويمسك الفضل من قوله .

وبهذا المسلك الذى بينه ابن السماك رضى الله عنه ، بلغ السادة
الصوفية قمة الأخلاق العالية ، وأخذوا بيد الناس فى الصعود اليها ، وقد
رأيت صورة ذلك الكمال فى شيخى رضى الله عنه ، وقد نفعنا الله بصحبته
فى ديننا كثيرا ، وإن لم نبلغ ما بلغ ، فنرجو أن نكون من السالكين على
الدرب ، وقد تحققنا بصحبته من صدق ما قاله الامام الصوفى الكبير سيدي

سهل بن عبد الله التستري رضى الله عنه : ان الدين الحى هو ما صبت
الصوفية حارا فى النفس الانسانية .

على أن المريدين فى اجتماعهم بشيخهم ، يتفاوتون فى انتفاعهم من
صحبه ، بتفاوت صفاء الفطرة ، وحسن الاستعداد فى الأخذ عنه ، دون
الاكتفاء بالسماع منه ، وذلك مرهون بتقدير العزيز العليم ، ولكنه سبحانه
ربط الأسباب بآثارها ، ومن جد وجد ، وينصحن سيدى ابن عطاء الله
السكندرى فيقول :

« ليس شيخك من واجهتك عبارته ، انما شيخك من سرت فيك
اشارته ، وليس شيخك من سمعت منه ، انما شيخك من أخذت عنه ،
وشيخك هو الذى يجلو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك حتى
وصلت اليه ، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، وزج بك فى نور
الحضرة وقال لك ها أنت وربك » .

ويشير أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل الى فضل شيوخنا
رضى الله عنهم فيقول فى كلام طويل من الهامه الفورى الذى نقلته عنه :

أبو خليل أعز الله سيرته	محمد من لوجه الله داعينا
شهم أشم قوى الجأش ذو همم	مصرف سيد بالحق ينجينا
أعطاه مولاه نورا لا حدود له	فبين العلم والايمان والدينا
فكان بالفيض والالهام آيتنا	للسالكين وكم أحيا مريدنا
وكم له خلفاء قال قائلهم	الى هنا تنتهى روح المجدين
أجلهم منزلا أعلاهم ثقة	أرضاهم خلقا أزكا هم ديننا
مؤدب ما رأينا فى مجالسه	الا الكمال وسهل اذ يناجينا
عبد السلام وزكى الله تربته	بالطيب والمسك وازدانت رياحنا
اللهم أجزمه عنا خيرا كثيرا ، واحشرنا فى زمرةهم مع الذين أنعمت	
عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .	

الحج

— ٢٨ —

« وصلنا بمون الله وفضله وكرمه الى مكة المكرمة ، وطفنا وسعينا — فسأل الله ان يتقبل أعمالنا — وقرأنا لكم الفاتحة ، ودعونا لكم بخير عند الملتزم ومقام ابراهيم ، ودخلنا الكعبة ، وصعدنا من باب التوبة الى ظهر الكعبة ، ولكننا لم نبلغ الظهر ، لانتى من الخشية لم استطع أن أبلغه » .

جاءت تلك الكلمات الطيبة ، فى رسالة كريمة ، بعث بها من مكة من نحو ثلاثين عاما ، شيخى العارف بالله ، سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى نجله العارف بالله ، السيد عبد المنعم الحلوانى ، مد الله فى عمره .

وعلما سيدى الشيخ فى كلماته تلك ، ان فرد الفضل لله تعالى ، فى كل نعمة تنقلب فيها ، فى ديننا أو دنيانا ، مصداقا لقوله تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله » ، ويزداد يقين الصالحين من عباد الله المخلصين ، فيرون فضل الله عليهم فى الحرمين ، كما يرونه فى العطاء ويقولون اذا منعك لم يمنعك من بخل ، انما يمنعك من عطاء ، ولكن لا يفهم العطاء فى المنع ، الا صديق يتذوق معنى قوله تعالى « قل كل من عند الله » ، والله تعالى يرى لعبده من الخير ما لا يراه العبد لنفسه ، ذلك بأن الغيب لله يشهده سبحانه وتعالى بعلمه ، بينما ينحجب عن العبد فلا يراه ، وهذا ما يفسر لنا قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

والملتزم واقع بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، يلتصق الطائفون به ، رافعين أكف الضراعة لرب البيت العتيق ، الذى جعله الله مثابة للناس وأمناء ، فيسألونه تعالى ، بعد أن طافوا بالبيت منيين ، ما يحتاجونه فى دينهم أو دنياهم ، لأنه تعالى له الأولى والآخرة وييده كل الجود فى هذا الوجود ، وهو أقرب الى عبده من حبل الوريد .

ومع أنه تعالى يعلم حاجة العبد قبل السؤال ، لكنه جعل الدعاء مظهرا مشروعا من مظاهر العبودية ، ليشعر العبد باقتناره الى ربه ، فى كل أمره ، ويخرج من حوله وقوته ، الى حول الله وقوته ، ويدرك أنه لا حول له ولا قوة الا بالله ربه ، ولقد علم سبحانه سيدنا موسى عليه السلام ، ان يسأله حتى فى ملح عجيبه ، أو شسع نعله .

ودعاء المؤمن لأخيه المؤمن مسنون شرعا بدليل قوله تعالى :

« والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان »

وقد استأذن سيدنا عمر رضى الله عنه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ان يذهب الى مكة معتمرا ، فقال له صلى الله عليه وسلم « لا تنسنى يا أخى من دعائك » فكما يدعو الأعلى للأدنى ، يطلب الأعلى أن يدعو له الأدنى ، اظهارا للعبودية والافتقار بين يديه سبحانه « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد » .

وقد التصقت مرة بالملتزم ، وتعلقت بأستار الكعبة ، وهممت بالدعاء بما يفتح الله به على ، فوقع فى قلبى عندئذ قول أستاذى العاوف بالله سيدى الشيخ على عقل فى الهامة الارتجالي الذى تلقيناه عنه :

انى على أعقابكم	لم أرض غير الحب مشرب
حريتى رق لكم	وهى المقام وذلك أقرب
وأدلتى أنى ضعيف	والضعيف عليك يحسب
قالوا بأنك لم تكن	فيما تقرره منسب
فأجبتهم أنا نسبتى	عبد على الأبواب أحسب

ومرة أخرى تذكرت قول المرحوم السيد اسماعيل صبرى :

أنا يا الهى عند بابك واقف لا أبتغى عنه الزمان عدولا
ما جئت أطلب أجر ما قدمته حاشا لجودك أن يكون قليلا

والحق الذى لا شبهة فيه ، ان النفس البشرية ، تصفو من كدوراتها ورعوناتها ، فى بلاد الحجاز ، التى أشرقت بنور ربها حين ولد فيها أعظم المرسلين شأنا ، وأعمهم رسالة ، صلوات الله وسلامه عليه وآله وأيده الله فى نشر رسالته الكبرى ، بالمعجزات الباهرات ، والآيات البينات ، وجعل فى قمتها القرآن الكريم الناطق بقوله الخالد :

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأسمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

ومن ثم كان البيت الحرام ملتقى المؤمنين من كل فج عميق ، لا يفرق بينهم لون أو جنس أو لغة أو مقام دنيوى ، وما أروع من اجتماع على الوحدة والاخاء والمساواة .

وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنزل اليه من ربه ، ومنه آيات الحج الدالة على مزيته وفضله ، حيث هو آخر القواعد الخمس التى بنى عليها الاسلام ، وتم به البناء « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » وهو فريضة على من استطاع اليه سبيلا أراد الله ان يكرم عباده الساعين الى مرضاته ، والحاجين البيت الذى شرفه فنسبه اليه دون بقاع الأرض ، وان كانت كلها له سبحانه ، وفى قبضته ، وقال مشجعا على تأدية الفريضة فى خطابه لسيدنا ابراهيم خليله عليه السلام « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا نفهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » .

وقد كان الأولون من أسلافنا الصالحين يكررون الحج مرات لمنافعه ،
وان كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حج مرة واحدة ، واعتمر
أربعا ، حتى لا تلزمنا فريضة الحج أكثر من مرة واحدة ، وكانوا كذلك
يمشون الى بيت الله على الأقدام ، وان كانت معهم دوابهم ، جهادا منهم
فى سبيل الله وتعظيما للبيت ورب البيت ، وسبحان من أدبهم فأحسنه
تأديهم .

أما الخشية التى أشار اليها سيدى الشيخ ، التى حالت بينه وبين
الصعود الى ظهر الكعبة ، فهى من علامة تقواه الراسخة فى قلبه وروحه ،
ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، وقد قال الشهيد الحلاج
حججت مرة فرأيت الكعبة ولم أر رب الكعبة ، وحججت الثانية فرأيت
الكعبة ورب الكعبة ، وحججت الثالثة فرأيت رب الكعبة ولم أر الكعبة .

والحاج انما يمتثل أمر الله فى حج البيت الحرام ، وتأدية المناسك
هنالك كما رسمها الله فى شرعه ، وأخذناها عن مولانا رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، والسعى اذن هو سعى خالص لله تعالى وحده ، وان بدا فى
ظاهره أنه سعى للبيت الحرام ، لكن البيت لم يدعنا لحجه ، وانما الله هو
الداعى بل الأمر ، ومن هنا نعلم أن الدين له ظاهر وباطن ، وان شئت قلت
له شريعة وحقيقة ، وهما معا علم الدين الصحيح ، فالشريعة هى تنفيذ
الأوامر ، والحقيقة هى مشاهدة الأمر ، ولا يتم الدين للمؤمن الا بهما معا ،
بحيث يكون مقيدا بالشريعة ومحسا بالحقيقة ، ولهذا قال بعض العارفين .

إليك حجى لا للبيت والحرم ولا طوافى بالأركان والجدر

لأنه كان يشهد ربه ويراقبه ، وهو يؤدى مناسك الحج ، وقد جاء
الجمع بين الشريعة والحقيقة فى قوله تعالى « اياك نعبد وإياك نستعين » .

وخشية القلوب تلازم العلماء بالله تعالى ، لذلك قال سبحانه وتعالى
« انما يخشى الله من عباده العلماء » ، أى العلماء الربانيون : لأنهم أولياؤه
المنقون « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » أى أخشاكم لله وأخوفكم منه ،

وهو خوف اجلال وهيبة ، لا خوف من عذاب وقسوة ، لأنهم واثقون من رأفته ورحمته سبحانه ، ولكنهم يخافون مقامه ، ويحذرون حجابيه ، لأن حجاب الحبيب ذل ما بعده ذل ووصله عز ما بعده عز ، وهذا يفسر لنا ما قاله سيدنا عبد الله بن مسعود حين مات سيدنا عمر بن الخطاب : لقد ذهب تسعة أعشار العلم ، قالوا : تقول ذلك وفينا جلة الصحابة ، قال : ليس العلم الذى تعنون انما أقصد العلم بالله .

والخشية من هذا الوجه ولاية لله لأن الولي عبد تحقق فى العبودية ، فكان على القدم المحمدية الذى شرفه الله تعالى فى قوله : « سبحانه الذى أسرى بعده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : « اعلم ، رحمتك الله تعالى باقباله عليك وجعل أنواره واصلة اليك أنهما هما ولايتان ، ولي يتولى الله وولى يتولاه الله ، قال الله عز وجل فى الولاية الأولى « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » ، وقال تعالى فى الولاية الثانية « وهو يتولى الصالحين » ، وهى التى خرجت للعبد من خزائن المن على بساط المحبة ، وأما الولاية الأولى فولایتك الله تعالى خرجت من المجاهدات وولايتك لرسوله خرجت من متابعة سنته ، وولايتك للمؤمنين خرجت من الاقتداء بالأئمة ... فافهم ذلك .

يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه : « هما ولايتان ولاية الصادقين باخلاص العمل لله تعالى والقيام بالوفاء مع الله تعالى طلبا للجزاء من الله تعالى ، وولاية الصديقين بالفناء عما سوى الله تعالى والبقاء فى كل شئ بالله تعالى ، ويقول أيضا رضى الله عنه : « مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله ، والقناعة بعلمه ، والاعتناء بشهوده ، وعلى الفرار من الخلق ، والانفراد بالملك الحق ، واخفاء الأعمال ، وكنتم الأحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم ، حبا فى اخلاص أعمالهم لسيدهم ، حتى اذا تمكن اليقين ، وأيدوا بالرسوخ والتمكين ، وتحققوا بحقيقة الفناء ، وردوا الى وجود البقاء ، فهناك ان شاء أظهرهم هادين لعباده اليه ، وان شاء سترهم

باقتطاعهم عن كل شيء اليه ، وظهور الولي ليس بإرادته لنفسه لكن بإرادة الله له » .

وقد كان تلاميذ سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني يلمسون خشيته لله ووصفوه بأنه كان من المختبين ، وقد قال الله تعالى في وصف عباده المختبين :

« وبشر المختبين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون » .

وكل هذه الصفات كانت بارزة فيه رضى الله عنه ، وقد قال لى مرة فى معرض الصبر على البلاء : أنا والشيخ على تأتينا المصائب فلا تتزحزح . وهذا الثبات فى الصدمات لا يكون الا لأهل التمكن الذى أشار اليه كلام سيدي ابن عطاء فيما تقدم .

ويقول الامام القرطبي فى تفسيره للآية المتقدمة : هذه الآية نظير قوله تعالى : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » .

هذه حالة العارفين بالله ، الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله الجاهل العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ، ومن النفاق الذى يشبه نفاق الحير ، فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم ان ذلك جد وخشوع انك لم تبلغ ان تساوى حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله ، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفا من الله ، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقته ، قال تعالى :

« واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكثبنا مع الشاهدين » .

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ، فمن كان مستنفا فليستن ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون ، فهو أحسنهم حالا ، والجنون فنون .

أقول ومن هذا نعلم ان الايمان درجات ، ويزيد وينقص ، لا من حيث جوهره الفرد ، ولكن من حيث متعلقاته ، التي ترتبط بها مواجيد القلوب وأحاسيسها ، وقد سئل الامام الحسن البصري رضى الله عنه فقل له ، يا أبا سعيد ، أمؤمن أنت ، فأجاب الايمان ايمانان ، فان كنت تسألني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا به مؤمن ، وان كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » الى قوله « أولئك هم المؤمنون حقا » فوالله ما أدري انا منهم أو لا .

وقال أبو بكر الواسطي رضى الله عنه : من قال أنا مؤمن بالله حقا ، قيل له الحقيقة تشير الى اشراف واطلاع واحاطة ، فمن فقد بطل دعواه فيها ، ويعقب على قوله الامام القرطبي رضى الله عنه فيقول ، يريد بذلك ما قاله أهل السنة : ان المؤمن الحقيقي من كان محكوما له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من سر حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقا غير صحيح .

ويحدثنا الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه عن أولياء الله المتقين فيقول :

« .. ثم رأيت الناس أصنافا ، فمنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاءه عسير ، ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل فالبعد عنه غنيمه ، ومنهم المتشبه بالعلماء ، مشغوف بدنياء مؤثر لها ، ومنهم عالم منسوب الى الدين ملتصق بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا ، ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل ، ومنهم متشبه بالنسك ، متجر بالخير ، لا غناء عنه ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه ، ومنهم منسوب الى العقل والدعاء ، مفقود الورع والتقوى ، ومنهم متوادون على الهوى متفقون ، وللدنيا يتبادلون ورياستها يطلبون ، ومنهم شياطين انس عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء بالله ، العالمين برضوانه ،
الورعين عن محارمه المتأسين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، المؤثرين
الآخرة على الأولى ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرسا كما
قال صلى الله عليه وسلم : « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ
فطوبى للغرباء » ..

فقيض لى الرءوف بعباده قوما وجلت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام
الورع ، وإثار الآخرة على الدنيا ، ووجبت ارشادهم ووصاياهم موافقة
لأفاعيل أئمة الهدى ، مجتمعين على نصيح الأمة ، لا يرجون أحدا فى
معصيته ، ولا يقنطون أحدا فى رحمته ، يرضون أبدا بالصبر على البأساء
والضراء والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحبون الله تعالى الى
العباد ، بذكرهم أيا ديه واحسانه ، ويحثون العباد على الانابة الى الله تعالى ،
علما بعظمة الله تعالى وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ،
علماء بما يجب ويكره ، ورعين فى البدع والأهواء ، تاركين التعمق
والاغلاء ، مبغضين للجدل والمراء ، متورعين عن الاغتاب والظلم والأذى ،
مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى
مطاعهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين
للشهوات .

فأصبحت راغبا فى مذهبهم ، مقتبسا من عوائدهم ، قابلا لآدابهم ،
مجا لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئا ، ولا أؤثر عليهم أحدا ، ففتح الله لى
علما ، انفتح لى برهانه ، وأثار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقر به أو
اتحلّه ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ،
وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على
القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك انى لا أدرك
شكره أبدا .

ألا رضى الله عن أسلافنا الصالحين ، وعن شيوخنا المباركين ، الذين
رأينا فيهم أمثلة السابقين الأولين « أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم
أولو الألباب » ..

تحية الروح

- ٢٩ -

« تحيتى لروحك ، أكبر من تحيتى لشبحك ، تحية الجسم تحية ظاهرة ، أما تحية الروح فتحية باطنة ، وتشعر بها الأرواح التى من جنسها ، والتى شربت من مشربها ، تجدها وان تفرقت مساكنها فى الدنيا ، فانها أسراب ظاهرة فى عالمها فى الحياة ويوم القيامة ، تعرف ربها ولا تعرف سواه » .

بهذه السطور صدر سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى ، قدس الله سره ، رسالة بعث بها الى تلميذه الصالح المبارك ، الصديق المفضل ، السيد سالم جمعة ، مد الله فى عمره ، وزاده من فضله ، وكان أثيرا عند الشيخ ، وقد كاتبه الشيخ كثيرا من القاهرة ، بعد أن انتقل عمل الشيخ اليها ، وهو يحتفظ برسائل الشيخ فى عناية تامة .

وقد تفضل فأعارنى تلك الرسائل ، لأمتع السادة القراء بنشر بعض روائعها ، كما فعلت بالرسائل التى حظيت أنا بها فى القاهرة حين كان عمل الشيخ بالاسكندرية .

وعبارة الشيخ المتقدمة تفيد أن تحية الجسد ، قد لا تكون صادقة ، أما تحية الروح فتكون صادقة ييقن ، لأن الروح تنجذب لأهل مودتها انجذابا لا غل فيه ولا غش ، اذا ترابطت الأرواح فى محبة الله سبحانه وهو الذى يعلم السر وأخفى .

وقد بين القرآن الكريم ، الفرق بين تحية الجسد ، وتحية الروح ، فقال تعالى فى تحية الجسد مثلا (اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) .

وقال في تحية الروح مثلا :

ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

ولما كان التصوف قائما على تربية البواطن ، فان سيدى الشيخ يوجهنا الى العناية بالروح ، وتهذيبها في جنب الله ، حتى تكون رابطة المؤمنين ، رابطة روحية ، لا نفاق فيها ، ولا مدهانة ، فاذا ذاق المؤمن معرفة ربه ، عامل ربه سبحانه في عباده ، فأخلص في صلته بهم ، ارضاء لمولاه جل جلاله ، ولذلك قال الشيخ رحمه الله في ختام عبارته : تعرف ربها ، ولا تعرف سواه .

ولسيدى ابن عطاء الله السكندري ، رضى الله عنه ، كلام نفيس في معرفة الله يقول فيه :

« ان معرفة الله فطرية في النفس ، ويستند في ذلك الى قوله تعالى : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » .

« فالله تعالى قد عرف الانسان به ، وتجلى له ، كما استنطقه وآلهمه الاقرار بربوبيته ، فشده الانسان ووحده ، وأخذ الله عليه عهدا بذلك ، وذلك كله في عالم آخر غير هذا العالم ، هو عالم الذر قبل وجود الأرواح البشرية في الأبدان .

« فلما هبطت الأرواح في الأبدان ، احتجبت المعرفة الفطرية بالله ، بحجاب البشرية الكثيف ، فستر الله بذلك سر خصوصيته ، ومن هنا كانت المعرفة بالله أعسر المعارف .

فانه لا مثل لله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ، ومع هذا فرض على عباده جميعا معرفة ذاته وأسمائه وصفاته .

وفصل ذلك فيقول رضى الله عنه :

« والمعرفة بالله ، قد تكون اثبات وجوده ، وتقديسه عما لا يليق به ،
ووصفه على ما هو عليه ، وبما وصف به نفسه ، وهذه معرفة عامة المكلفين
وتسمى بالمعرفة العامة » .

« وقد تكون حالا يحدث عن شهود ذوقى ، ويكون العارف هو
من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله ، وتسمى هذه المعرفة
بالمعرفة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية ، التى لا تستند الى العقل ، وانما
الى الذوق » .

ويرى سيدى ابن عطاء الله ، رضى الله عنه ، أن القلب كلما زهد فى
زخرف الدنيا الفانى ، ونهى المؤمن النفس عن هواها ، وازداد ايمانه ثم
توحيده ، امتلأ القلب بالتوحيد تماما ، وشرفت فى الملائكة صفاته ،
وعلت وبسبب فى الملائكة الأسفل معرفته ، واكتملت بنور اسم الذات
بصيرته ، وتخلق بأخلاق الله ، وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونبهته ،
وصار محققا مستبصرا ، فانيا فى شهود المذكور عن ذكره .

ثم يقول رضى الله عنه : وفى هذا القلب ورد الحديث القدسى
« لا يسعنى عرشى ولا كرسى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى » وقلب
الانسان لا يسع الله مساحة ولا خيالا وحلولا ولا حسا ولا حكما ، وانما
يسعه توحيدا وايمانا وعلماء ومعرفة وايقانا ومحبة واخلاصا ، فضلا من
الله وتخصيصا .

وأنت ترى من كلامه المتقدم أن معرفة الله مذاقا وشهودا ، لا تكون
الا بعد قطع عقبات النفس أو كما يقول السادة الصوفية قطع العلائق
والعوائق ، وهى لا تنقطع الا بنهى النفس عن هواها ، وعندئذ تصفو من
كدوراتها ورعوناتها ، وتتخلّى عن الرذائل ، فان تم لها ذلك فقد تحلت
بالفضائل ، لأن التحلية لا تكون الا بعد التخلية ، فان زالت نقطة الخاء
المعوقه جاءت الحاء فكانت حياة المؤمن حسنة فى الدنيا وحسنة فى
الآخرة .

« فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار • أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » •

والشيطان خبيث الطوية ، وهو يجر الناس الى المهالك ويوهمهم أنها طريق الخير والسعادة ، وكم زلت معه أقدام علماء ، فأساءوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، مثل هؤلاء الذين قلدوا الفلاسفة فى اثبات وجود الله عن طريق العقل المجرد ، وجادلوا فى عقيدة التوحيد فى الكليات . والجزئيات ، وبحثوا فى قضاء الله وقدره ، فشغلهم الجدل عن العمل ، وشغلوا غيرهم بالرد على مفترياتهم وترهاتهم ، ولو أنهم سلكوا سبيل الصحابة الأكرمين ، ما ضيعوا أوقاتهم وأوقات غيرهم فيما لا ينفع ، بل فيما يضر ، فقد أقحموا أنفسهم فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض •

وقد قطع الله على عباده سبل البحث فيما لا تدركه العقول ، فقال تعالى :

« ليس كمثله شئ وهو السميع البصير »

وفتح لهم التفكير فى آفاق قدرته وشهوده فى خلقه وآياته :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » •

ومن هنا قال السادة الصوفية : ما خلق الكائنات لتراها بل لترى فيها مولاها •

وقد رأى فى المنام سيدى الامام جعفر الصادق رضى الله عنه سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فيما سأله عن حقيقة التوحيد فأجابه صلوات الله وسلامه عليه وآله :

« كل ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك » •

وهو القول الفصل فى الموضوع •

وقد سئل مولانا الامام على كرم الله وجهه عن القدر مرة فقال :
« طريق مظلّم فلا تسلكوه » ، وسئل ثانية فقال : « بحر عظيم فلا تلجوه »
ثم سئل ثالثة فقال « سر الله فلا تتكلفوه » .

ويقول حفيده سيدى جعفر الصادق رضى الله عنه : « ان الله تعالى
أراد بنا شيئا ، وأراد منا شيئا ، فما أرادنا بنا طواه عنا ، وما أرادنا منا
أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أرادنا بنا عما أرادنا منا » . وهو كلام نفيس
كما ترى فتعلمه وعلمه .

وقال رضى الله عنه لزرارة بن أعين ، يا زرارة أعطيك جملة فى القضاء
والقدر ، قال نعم جعلت فداك . قال : « اذا كان يوم القيامة ، وجمع الله
الخلائق ، سألهم عما عهد اليهم ، ولم يسألهم عما قضى عليهم » .

ويقول جده الامام على كرم الله وجهه معلما لنا فى ترك القول بالرأى
فى أمور الدين الذى شرعه الله تعالى : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل
الخف أولى بمسحه من أعلاه ، ولكنى رأيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يمسح أعلاه .

وما أروع كلمة أماننا مالك بن أنس رضى الله عنه : « لا أحب من
الكلام الا ما كان تحته عمل » . وما أصدق السادة الصوفية حين قالوا :
العقل آلة للعبودية يعرف به العبد ما عرف ، وليس بألة للاشراف على
الربوبية .

وقد كان ابن بشار الفقيه ، فى بادىء أمره من المعترضين على السادة
الصوفية ، فلما التقى بالامام الشبلى (تلميذ الإمام الجنيد) واقتنع بعد
مناقشته بأنه على نور من ربه ، ذهب الى الفقهاء متغير الوجه وقال لهم ،
ذهب الصوفية بالخير كله وأضعنا عمرنا فى المجادلات .

ويقول أبو الوفا بن عقيل رضى الله عنه : أنا أقطع أن الصحابة ماتوا
وما عرفوا الجوهر والعرض ، فان رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وان
رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت .

• ويقول سيدى محيى الدين بن عربى ، وهو شيخ التصوف الاكبر ، فى الفتوحات المكية : ومن العجب أن الله تعالى يخبر بشئ عن نفسه فى كتابه المحكم ، فيأتى الإنسان بعقله القاصر فيقول ان عقلى يرد ذلك ، وفكرى لا يحتمل ذلك ، وانما يجب التأويل ، أليس عاقبة هذا التأويل أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالقا غير ما فى كتاب الله •

يقول العالم العارف الحجة سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : ترى أحدهم يخوض فى الكلام على الذات ، وينسى ما كلف به من الزهد والورع وجهاد النهار ، وقيام الليل ، والخوف من الله تعالى ونحو ذلك ، حتى كأن الاسلام لديهم محض كلام من غير عمل .

هذا ، ويعلمنا سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، فى كلماته المتقدمة ، ان محبى الله ، يشربون من المشرب الأصفى ، فتتجانس أرواحهم وتتلاقى على بساط واحد ، هو بساط المحبة ، الذى يجمعهم أسرابا فى الدنيا على حبيب واحد ، وان تباعدت ديارهم وأشباحهم ، كما يجمعهم فى الآخرة وان اختلفت ألسنتهم وألوانهم حين يدخلهم سبحانه الجنة ويخاطبهم :

« ادخلوها بسلام آمنين »

• عرفوه سبحانه فى دنياهم بأن لا اله الا هو ، فلم يعبدوا الا اياه ، ولم يعرفوا سواه ، فأثروه على ما تهوى الأنفس ، وقهروا فى سبيله عقبات النفس والشیطان ، وعلم سبحانه ما فى قلوبهم من المودة الخالصة ، فأثرهم بحبه ، واختصهم برحمته ، فنالوا السعادة الأبدية التى قدرها لهم فى سوابق أزله ، فكانت لهم جنتان : جنة فى الدنيا هى جنة المعرفة وجنة فى الآخرة هى جنة الزخرفة :

« ولمن خاف مقام ربه جنتان » •

وقد جاء فى الحديث الشريف : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » • فالأرواح فى هذا الائتلاف أشبه بالطيور التى تطير مع جنسها أسرابا، كما تدل عبارة سيدى الشيخ، ويؤيد

صحة ذلك قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

وبين الشيخ وتلميذه ، تجاوب روحى ، منشؤه تجانس الروحين ، فالشيخ يربى فى طريق الله ، والتلميذ يتربى على يديه فى جنب الله ، ولما كانت روح الشيخ أقوى فى اليقين بالله ، فان روح التلميذ تتجذب اليها بدافع رغبتها فى طلب الله ، وذلك أشبه بانجذاب الظلمان الى مورد الماء الفرات ليروى ظمأه .

ولهذه الجاذبية القائمة بين الشيخ وتلميذه أثر كبير فى التربية القلبية ، لأن الشيخ يخلص فى تربية التلميذ اخلاص الأب لابنه بل وزيادة والتلميذ يأخذ عن شيخه باعتقاد واقتياد ، فيتقدم التلميذ فى ايمانه ويقينه شيئا فشيئا ، ويرفعه الله درجات بعد درجات ، وربما الى نهاية المقامات ، ان كان مرادا من الله لذلك الميراث . وهذا كله قائم على أن التلميذ وفق فى اختيار شيخه ، فراعى أن يكون من العارفين بالله وأن يكون التلميذ من المخلصين والراغبين الجادين فى طلب الله ، لانه لا بد للمريض من طبيب حاذق يدرك العلة وعلاجها ، ولا بد للعليل من طاعته فى علاجه ان أراد الشفاء من دائه .

وقد قال سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى لتلميذه القطب المبارك سيدى المرسى أبى العباس رضى الله عنهما : يا أبا العباس ما صحبتك الا لتكون أنت أنا ، وأنا أنت ، فانظر رعاك الله ، كيف يكون الامتزاج بين الروحين المتجانسين ، ويحدث سيدى المرسى عن شيخه رضى الله عنهما فيقول :

« وقد صحبت رأسا من رءوس الصديقين ، وأخذت منه سنداً ، لا يكون الا لواحد بعد واحد ، والشرح يطول ، وبه أفنخر ، واليه أتسب ، وهو أبو الحسن الشاذلى ، وكان لا يصحبه أحد الا ففتح عليه فى يومين أو ثلاثة ، فان لم يجد شيئا بعد ثلاثة أيام فهو كذاب ، أو يكون صادقا وقد

أخطأ الطريق ، ودليله من كتاب الله عز وجل « قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » •

وبين سيدى واستاذى الشيخ على عقل رضى الله عنه ضرورة الشيخ فى تربية القلوب بقوله فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

وعندى ان الأمر ليس بهين فلا بد من سوق القلوب لمن يدرى
اذا لم يكن للنفس شيخ له هدى يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها على موجة التيار ما نورها يسرى

ونستشف من كلمة سيدى وشيخى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، ان ائتلاف الأرواح الصافية ، لا يكون فى الدنيا فحسب ، بل هو كذلك فى الآخرة ، ويؤيد ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« واذا النفوس زوجت »

أى اقترن كل جنس منها بما يشاكله ولذلك يتعاون الاتقياء يوم القيامة ، ويشفع بعضهم لبعض ، بدليل قوله تعالى :

« الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » .

ويتحسر أهل الكفر حين يرون تلك الشفاعة النافعة بين المؤمنين فيقولون فى حسرتهم :

« فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » •

وستتقطع رابطة الكفار فى الآخرة ، لأنها قامت فى الدنيا على شفا جرف هار ، ارضاء للشيطان ، واغصابا للرحمن ، وسوف لا تتقطع بينهم الروابط فحسب ، بل ان العداوة ستعلن بينهم ، وهو ما تحكيه الآية الكريمة :

« وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » •

أما يقوله سيدى الشيخ رضى الله عنه : تعرف ربها ولا تعرف
سواه ، فيوجهنا الى أن ما سوى الله فى حكم العدم ، لأنه سينتهى بالفناء
الذى كتبه الله عليه ، ووجوده فى الدنيا إنما هو عدم حكما ، وفناؤه
عند قيام الساعة عدم فعلا :

« كل شىء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » •

لذلك فنيث نفوس السادة الصوفية عن المحسوسات التى غفل بها
غيرهم ، لأنهم أهل الله وخاصته ، واستمتع بعد ذلك الى ما يقوله فيهم امام
جليل من أئمتهم ، وهو سيدى أبو الحسن الشاذلى ، فهو يقول فى وصفهم
رضى الله عنه وعنهم :

« أما أهل الله وخاصته ، فهم قوم جذبهم عن الشر وأصوله ،
واستعملهم بالخير وفروعه ، وحجب اليهم الخلوات ، وفتح لهم سبيل
المناجاة فتعرف اليهم فعرفوه ، وتحجب اليهم فأحبوه ، وهداهم السبيل
اليه فسلكوه ، فهم به وله ، لا يدعهم لغيره ، ولا يحجبون عنه ، بل هم
محبوبون به عن غيره ، لا يعرفون سواه ، ولا يحبون الا اياه » أولئك
الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

الا رضى الله عن شيوخى المارفين ، الذين أوردونى مواردهم ،
وأذاقونى مشاربهم ، وما أعذبها من موارد ، وما أصفاها من مشارب •

« أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » .

التوكل على الله

- ٣٠ -

كتب شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى الى تلميذه المبارك السيد سالم عمر جمعة رسالة من القاهرة محررة فى ٢٩ يونية ١٩٤٠ وكانت رعى الحرب العالمية الثانية دائرة واستهدفت بلادنا العزيزة الى غارات الطائرات الألمانية التى كانت تقصد القوات البريطانية فى مصر وجاء فى تلك الرسالة الدعاء الطريف الآتى :

.. أما أنا فمتوكل على الله ، وهو المسلم اللهم انى اسألك الثبات على الايمان ، حتى يكون قلبى فى أمان ، اللهم املاؤه حبا فيك حتى يكون راضيا بقضائك ، موقنا أنه لا حركة ولا سكون الا بأمرك وقدرك ، سبحانك لا شريك لك ، لك الأمر من قبل ومن بعد .

اللهم انى أسألك بحبيك المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، أن تبث الايمان فى قلبى بثا ، فتجعله فى أعضائى وأحشائى وفؤادى وروحى منبثا » .

« اللهم جنبنى الهموم ، وادفع عنى جيش الشيطان ، فلا تجعل له على سبيلا ، واجعل قلبى شديد الايمان بك ، فلا يعبأ بحرب الشيطان ومعداته ، ولا بندقياته ولا رصاصاته فلا يتعتعه تعتيعة ، ولا يخوفه بعبية ، لا طبنجة ترعجه ، ولا مدفع يفجعه ، ولا يهيمه المفرقات ، ولا تدهشه المتروليوزات ، لا رشاشة ترشه ، ولا دبابة تفشه ، لا بارجة ترجه ، ولا لغم يزجه ، ولا مغناطيس يجذبه ، ولا غواصة تضربه ، ولا نسافة تنسفه ، ولا قاذفة تقذفه ، ولا طرادة تطرده ، ولا مدمرة تفسده ، ولا غارة تكربه ، ولا صفارة ترعبه ،

لا كمامة تخنقه ، ولا غاز يحرقه ، لا طيارة تناوئه ، ولا مظلة تفاجئه ، لا قنبلة تفرعه ، ولا شظايا تفجعه ، لا طابية تقوى عليه ، ولا حصن يقوى لديه ، ولا خط من الاستحكامات يعوقه ، ولا رباط من رباط الخيل يفوقه ، ولا سيف عليه يصول ، ولا عدو عليه يجول ، بل هو بقوة الله يصول ويجول ، ففوة الله هي الحصن الحصين ، والركن المكين ، وهي القوة والعدة ، وهي الجبل المتين ، فاجعلنا يا مولانا بها متمسك ونفوز ومن جميع المصاعب نجوز •

« قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » • • ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم •

« أسأل الله لى ولكم العافية ، والوثوق بالله ، وأن يجعلنا واياكم من المطمئنين به ، المتمسكين بحبه وحب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يهدينا واياكم سواء السبيل » •

أرأيت أيها القارئ العزيز ، كيف ينساب الالهام فى رسالة من الشيخ لتلميذه ، يعلمه فيها الثقة بالله سبحانه ، والتوكل عليه ، واللجوء اليه ، والاستعانة به ، والاعتصام بكهفه والاحتباء فى حصنه ، والانحياز لحرزه الحريز وركنه الركين ، وكيف لا وهو القائل القول الكريم « أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أله مع الله ، قليلا ما تذكرون » •

وقد يشتهب الأمر على البعض فى معنى قوله تعالى « المضطر » فيقول فى نفسه ألا يستجيب سبحانه لغير المضطر دعاءه والجواب : كل العباد مضطرون اليه سبحانه فى جميع الأحوال ، فى الشدة أو الرخاء أو الحرب أو السلم ، أو الخوف ، أو الأمن ، لكن عوام المؤمنين لا يحسون بالاضطرار الا عند الشدة أو الخوف أو المرض ، أو الفقر الخ ، أما خواص المؤمنين فيحسون أنهم مفتقرون اليه أبد الأبدى ، وفى كل حال وحين ، ذلك بأن الرخاء قد يتبدل ولا يدوم ، والأمن قد يزول ، بل ان الايمان قد يسلب ، لأنهم يقولون انه قد يكون هبة من الله ، وللواهب أن يسترد ما وهبه ، ولا

يقطع الخواص أن ايمانهم بالله عطية منه لا تسلب ، لأن صفة العطية مطوية عنهم فى حجب الغيب ، ولا يعلم الغيب الا الله سبحانه وتعالى ، وهذا هو وجه الخوف عند العارفين •

وذلك ما يفسر لنا وجه الخوف من الله ، الذى خافه سادتنا المبشرون .
بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما هو الا من سبو معرفته بالله تعالى ، وعلى قدر معرفته سبحانه يكون الخوف ، كما تكون المحبة الخالصة •

وقد ورد فى الحديث الصحيح فيما رواه الامام البخارى : « الدعاء مخ العبادة » وانما كان مخ العبادة ، لأنه مظهر من مظاهر العبودية لأن العبد الداعى يخرج بالدعاء من حوله وقوته الى حول الله وقوته ومع أن الله تعالى يعلم من العبد سره وجهه ويعلم حاجته قبل أن يدعو بها ، لكنه يحب أن يسأله عبده حاجته ليعود العبودية ، مذاقا ، وشهودا ، كما يعتقدها العبد ايمانا واعترافا ، وعندئذ يكون عبدا ذائقا مطيعا ، اذا قال له ربه يا عبدى قال له لبيك يا ربى ، فصدق فى الامتثال ، وأخلص فى الطاعة بالمقال والحال •

ولهذا كان الامتناع عن الدعاء استكبارا يعاقب الله عليه المستعينين عن دعائه حيث يقول جل شأنه « .. ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » •

وقد روى ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من فتح له باب الدعاء ، فتحت له أبواب الرحمة ، وما سئل الله تعالى شيئا أحب اليه من أن يسأل العافية ، وان الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، ولا يرد القضاء الا الدعاء ، فعليكم بالدعاء » والى هذا الحديث الشريف يشير سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى « والد شيخى رضى الله عنهما » وكانوا قد عينوه قاضيا ، ولم يرد أن يتولى وظيفة القضاء ، فدعا ربه ملحا أن يصرفها عنه ، فاستجاب الله له ، فقال رضى الله عنه فى ذلك :

قلدونى القضاء وهو شهير فى الورى أنه أبو التبعات
فلزمت الدعاء حتى تلاشت والقضا قد يرد بالدعوات

وعند العارفين ، أن كل دعاء مجاب ، لكن الاجابة ، تكون بالشكل
الذى يرى الله فيه مصلحة عبده ، فقد يصرفه عما طلبه ، ليعطيه
خيرا منه ، وقد يدخر له ثوابا آخرويا ، خيرا من طلبه الدنيوى ، وقد يجيبه
الى ما طلب بالذات ، فان لم يجبه فليعتقد أن ذلك لخير علمه الله وأراده ،
وهم يقولون اذا منعك لم يمنعك من بخل ، انما يمنعك ليعطيك ، ولكن
لا يفهم العطاء فى المنع الا صديق من الصديقين وخير الدعاء المأثور ، وما
ورد فى الكتاب أو السنة ، أو آثار الصحابة ، أو عباد الله الصالحين ، الذين
استناروا بنور الحق ، فآلهمهم الله كلمات التقوى فى مناجاتهم ودعواتهم
« واتقوا الله ويعلمكم الله » والهام الصالحين هؤلاء انما هو من كلمات الله
التى لا تنفد ، والعلم نور يقذفه الله فى القلوب •

وانك لتلمس الالهام العالى فى دعاء سيدى الشيخ ، وان كساه ثوب
الفكاهة بأدوات الحرب المدمرة ، ولعله أراد أن يؤنس تلميذه فى خوفه ،
وينقله على جناح الدعابة الى الجد فى الثقة بالله والاعتماد عليه سبحانه فى
حفظه من الضر ، كما قال سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام « فالله خير
حافظا وهو أرحم الراحمين » ، ومزاح العارفين جد كما هو معروف •

ومن المناجاة الرائعة لسيدى الامام على زين العابدين رضى الله عنه

قوله :

« اللهم لك قلبى ولسانى ، وبك نجاتى وأمانى ، وأنت العالم بسرائرى
واعلانى ، فأمت قلبى عن البغضاء ، وأصمت لسانى عن الفحشاء ، وأخلص
سريرتى وعلايتى من علائق الأهواء ، واكفنى بأمانك عواقب الضراء ،
واجعل سرى معقودا على مراقبتك ، واعلانى موافقا لطاعتك ، وهب لى
جسما روحانيا ، وقلبا سماويا ، وهمة متصلة بك ، ويقينا صادقا فى حبك »

ومن دعوات سيدى على الخواص رضى الله عنه :

« اللهم انى أستغفرك من كل ذنب قوى عليه بدنى بعافيتك ، ونالته
يدى بفضل نعمتك ، وانبسطت اليه بسعة رزقك ، واحتجبت فيه عن الناس .
بسترى ، واتكلت فيه على أناتك وحليفك ، وعولت فيه على كريم عفوك » .
« اللهم انى أعوذ بك أن أقول حقاً فيه رضاك والتمس به أحدا سواك
وأعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشيننى عندك . وأعوذ بك أن أكون
عبرة لأحد من خلقك ، وأعوذ بك أن يكون أحد من خلقك أسعد منى فيما
علمتنى » .

وقد يتسلك بعض السادة القراء العجب اذا علموا أن سيدى عليا
الخواص صاحب ذلك الدعاء كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن الله تعالى
اذا اتخذ من عباده ولياً ، علمه ما لم يكن يعلم ، بل جعله للناس اماماً بعلمه
من فضله وقد تتلمذ عليه الامام الجليل سيدى عبد الوهاب الشعرانى ، الذى
كان عالم زمانه ، ووحيد نسجه ، ولقبه بشيخ الخواص سيدى على
الخواص ، وسبحان من يؤتى ملكه من يشاء ، فقد علم آدم الأسماء كلها ،
وجعله معلماً للملائكة فى السماء وشتان بين علم الرواية وعلم الدراية ،
وصلوات الله وسلامه على مولانا رسول الله الذى أوتى العلم عطاء من ربه ،
وهو النبى الأمى ، فصار يقاس علم العلماء بما علموه من علمه ، وما يؤتاه
الأولياء الأميون فى أمته من العلم انما هو معجزة له صلوات الله وسلامه
عليه قبل أن يكون كرامة لهم ، لأنهم انما يكرمون بالخوارق جزاء لمتابعته
فى حسن نية ، وقوة عزيمة ، فقد سبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة
التقوى ، وجعلهم حجة للناس فيما بينهم وبين الله تعالى .

وفى هذه المناسبة نود أن ننبه الى أنه ليس من لازم الولى الكرامة
ولا الاخبار بالغيب ، والعارفون يقولون ما ثم كرامة أعظم من الاستقامة
ويقول سيدى المرسى أبو العباس رضى الله عنه : ليس الشأن أن تطوى لك
الأرض فتصير فى مكة أو غيرها من البلدان ، ولكن الشأن أن تطوى لك
أوصاف نفسك فتكون مع الله ، غير اننا نقول انه ليس من الانصاف انكار
وقوع الكرامات ، لأن ذلك الانكار يعارض نصوصاً صريحة فى كتاب الله

عز وجل ، فقد أكرم الله السيدة مريم عليها السلام برزق كان يأتيها من عند الله ، وأكرم أهل الكهف بالنوم قرونا في رحمة الله ثم قاموا فقالوا لبثنا يوما أو بعض يوم الخ ، ولا حرج على فضل الله ، وقدرته تعالى لا تقبل الشك ، كما أن الأسباب تقيدنا ولا تقيدنا لأنه سبحانه خالق الأسباب والمسببات ، وما أراد أن يكون بأسباب وبغير أسباب وفق ما شاء وقدر ، وإن وقعت للولي كرامة فإننا نتبع عطاء من الله لتأييده في الدعوة إلى الله ، وقد يستحي منها الولي ، ويقول سيدي أحمد البدوي : "إن الولي يستر كرامته كما تستر المرأة خرقه الحيض ، وقد قال سيدي الشيخ عز الدين بن عبد السلام وكان شيخ الاسلام في زمنه - بعد أن اجتمع بالامام سيدي أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه - من عظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم أساس ما يقع على أيديهم من الكرامات ، ولا يقع شيء من ذلك لفيقه ، إلا أن سلك مسلكتهم كما هو مشاهد . وأقول بعد ذلك كم وكم شاهدنا من كرامات لشيخنا سيدي عبد السلام الحلواني رضى الله عنه وكان هو لا يبالى بها وكأنها لم تكن ، لا بل اتنا شاهدنا ونشاهد كثيرا مما يقع منها لبعض المريدين الصادقين ، وأنكار المستفيض عناد أو سذاجة .

هذا وقد سأل سيدي الشيخ ربه في صدر دعائه الثبات على الايمان، حتى يكون قلبه في أمان ، كما سأل أن يملأ قلبه حبا فيه سبحانه حتى يكون راضيا بقضائه موقنا أنه لا حركة ولا سكون الا بأمره وقدره ، وذلك شأن العارفين الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، وقد قال تعالى فيهم « طوبى لهم وحسن مآب » ولا عجب أن يكون ذلك مشرب الشيخ فقد هيأته العناية ليكون للناس مربيا من الطراز الأول ، فنشأ في بيت علم وعمل ، فدرج عليهما منذ الصبا الباكر ، وقد فقهه أبوه العالم العارف سيدي الشيخ الحلواني الخليجي الذي كان يلقب بالشهاب ، ولقنه طريق الصوفية ، وتكمل بعد ذلك على يد القطب الكبير سيدي الحاج محمد أبي خليل صاحب الطريقة الخليلية المباركة وقد عنى به عناية خاصة لما رآه فيه من المواهب العالية حتى كان يرحب به قائلا « أهلا بالولي الكامل » .

واذا رسخ الايمان فى القلب ، رضى بما جرى به القضاء ، وذاق برد
الرضا والتسليم ، فلا يتزعزع بالحوادث ، ولا يتزعزع بها عن يقينه الثابت
فى الله بأنه لا حركة ولا سكون الا بأمره سبحانه وقدره ، وهذا السكون
لمجارى الاقدار انما هو عطاء الله لأصفيائه وأوابيائه ، وهم يتخطون به
الحدود المركوزة فى الطباع البشرية وتلك فيهم قوة خارقة ، ويجب علينا
نحن عوام المؤمنين أن نتشبه بهم ، وقد أخذ هؤلاء الخواص هذا النهج عن
سيد المرسلين صلوات الله عليه وآله وسلم ، فقد قال مثلاً عند الشدة التى
لقيها فى الطائف حين ذهب الى ثقيف يستنصر بهم على أهل مكة ، فلم
ينصروه ، بل آذوه وضربوه بالحجارة حتى أدموا قدميه ، فقال فيما قال
صلوات الله عليه وآله وسلم .. ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ..
وفى ذلك الرضاء المطلق بالقضاء وان كان مرا ..

ولسیدی الشیخ أحمد الحلوانی رضى الله عنه كلام نفيس فى القضاء
يقول فيه :

على كل الورى يجرى القضاء	وليس خلاف ما حتم القضاء
فليس يسوقنا الا القضاء	وليس يعوقنا الا القضاء
يحركنا يسكننا القضاء	يجمعنا يفرقنا القضاء
يقربنا يبعدنا القضاء	يقدمنا يؤخرنا القضاء
يحلينا ويخلينا القضاء	ويعطينا ويمنعنا القضاء
وينطقنا ويسكتنا القضاء	ويطوينا وينشرنا القضاء
ويخفضنا ويرفعنا القضاء	ويقبضنا ويسطنا القضاء
ويحزننا ويبهجن القضاء	ويكينا ويضحكن القضاء
ويفقرننا ويغنينا القضاء	ويسقمنا ويشفين القضاء
ويلهننا ويذهلنا القضاء	ويسلمنا وينصرنا القضاء
وينشرنا ويحشرنا القضاء	وفصل بالقضا فينا القضاء
فأن وقع الجفا فهو القضاء	وان حصل الرضا فهو القضاء
فأنت الله منك لنا القضاء	وما لسواك ينتسب القضاء
الهي الطف بنا فيما القضاء	به يجرى اذا انحتم القضاء

وهاكم نفحة من نفحات سيدي الامام أبي الحسن الشاذلي ، وهي
بعض ما جاء في حزب البر المعروف بالحزب الكبير ، فقد قال في مناجاته
رضي الله عنه :

« اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم
بين عبادك ، فهنيئاً لمن عرفك فرضى بقضائك ، والويل لمن لم يعرفك ، بل
الويل ثم الويل لمن أقر بوحدانيتك ولم يرض بأحكامك .. »

« ولقد شكّا اليك يعقوب ، فخلصته من حزنه ، ووددت عليه ما ذهب
من بصره ، وجمعت بينه وبين ولده ، ولقد ناداك نوح من قبل فنجيته من
كربه ، ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفت ما به من ضره ، ولقد ناداك
يونس فنجيته من غمه ، ولقد ناداك زكريا فوهبت له ولداً من صلبه بعد
يأس أهله وكبر سنه ولقد علمت ما نزل بإبراهيم فأثقتته من نار عدوه ،
وأنجيت لوطاً وأهله من العذاب النازل بقومه » .

« فما أنا ذا عبدك ، ان تعذبني بجميع ما علمت من عذابك فأنا
حقيق به ، وان ترحمني كما رحمتهم ، مع عظيم اجرامي فأنت أولى بذلك ،
وأحق من أكرم به ، فليس كرمك مخصوصاً بمن أطاعك وأقبل عليك ، بل
هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك .. »

اللهم اجز عنا سلفنا الصالح خيراً كثيراً ، واحشرنا معهم ، عطاء من
عندك ، وتحت لواء خاتم المرسلين سيدنا ومولانا محمد سيد الأولين
والآخرين ، صلى الله عليه وسلم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ،
آمين .

أثر الشيخ في التربية

— ٣١ —

أرسل شيخى العارف بالله ، سيدى عبد السلام الحلوانى — رضى الله عنه — الى تلميذه الصديق الوفى المبارك الصالح السيد سالم عمر جمعة رسالة كريمة جاء فيها :

« .. ولما لم أجد فى ذهنى كلاما ، أمسكت بكتاب أمامى ، عسى الله أن يفتح على بالمطالعة ، فاذا به مختار الصحاح ، فقلت يا للعجب ، هذا مختار الصحاح وهو لا يصلح لثلى المكسر ، لكن على الله الجبر .. افتحه عسى أن تجد فيه شيئا ينفعك » .

ففتحته فوق نظرى على مادة « مدد » فقلت لنفسى عال ، هذا ارشاد لطلب المدد من الشيخ ومن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومن الله — سبحانه وتعالى — فمددت يدي عسى أن أجد المادة ، وهى الزيادة المتصلة ،

« وفى الحقيقة ، مد الله فى عمرك ، وزاد فى نعمتك ، ان التوفيق فى الذكر والعمل الصالح ، لا يكون الا اذا أخلى الانسان قلبه ، ولو بعد صلاة المغرب ، واستجمع نفسه بالحضور فى حضرة الشيخ ، واستأذنه فى عمل الآخرة الذى يريده ، سواء كان ذكرا أو وردا أو قرآنا ، وطلب منه المدد ، ثم استأذنه واستحضر النبى صلى الله عليه وسلم وطلب منه المدد ، ثم استأذنه خاشعا فى حضرة الله وطلب منه المدد والاذن فى الجلوس فى حضرته لأداء الطاعة ، ثم يتندى بطاعته الى أن ينتهى فيقول :

« اللهم ان ذكرك لا يمل ، فارحمنا يا الله ، دستورك يا الله ، ثم يلتفت الى النبى — صلى الله عليه وسلم — ويقول : دستور يا رسول الله ، ثم يلتفت ويقول : دستور يا شيخى ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

« فى هذه الحالة يرى أنه حصل له مد ، أى سيل من النهر أو أنهر ،
 وشعر بسرور لا يقدر ، وانفتحت له البصيرة ، وصار يرى ببصيرته ، وامتد
 بصره الى بعيد ، فأنت رجل مديد القامة والباع ، سريع الاتباع ، للنبي
 المطاع ، حفظك الله وجعلك له من الأتباع ، فى الدنيا ويوم الأسماع » •
 والقارىء العزيز يرى أن كلام سيدى الشيخ لتلميذه ، وإن لابسته
 دعاية طريفة ، إلا أنه هو الجد كل الجد ، وإن يعجب القارىء فليعجب من
 التوفيق الذى حاله ، فانه ما كاد يفتح مختار الأصحاح حتى وقع نظره على
 مادة « مدد » التى فتحت له الباب الذى أقامه الله فيه ، من تعليم المريدين
 وتفقيهم وارشادهم ، وكل ميسر لما خلق له « فأما من أعطى واتقى •
 وصدق بالحسنى • فسنيسره لليسرى » •

وطالما اعترض المعترضون على كلمة « مدد » التى يتمسك بها السادة
 الصوفية ، من باب الأخذ فى أسباب الهدى ، ويظن المعترضون عليهم ،
 جهلا أو تعنتا ، أنها سؤال لغير الله من عباده ، وليس السادة الصوفية ،
 بالذين يجهلون الى هذا الحد ، فهم الذين أذاقوا الناس منهل التوحيد
 العذب الفرات ، وآثروا الله تعالى على ما سواه .. وقالوا فيما قرروا من
 مبادئهم التى لقنوها لمريديهم جيلا بعد جيل : من أنس بسواه فهو
 مستوحش منه ، ومن ذكر غيره فقد غفل عنه ، ومن عول على سواه فقد
 أشرك به •

وهم ولا شك أساتذة التوحيد المذاقى ، وإن لم يتوسعوا بالجدل
 العقيم فى التوحيد الكلامى ، الذى جارى فيه أهل الكلام فلاسفة اليونان
 وغيرهم دون جدوى •

ولدقة الموضوع ، والتباسه على كثير من الناس ولأن بعض المعترضين
 انما يدفعهم للاعتراض على الصوفية ، غيرتهم على توحيد الله تعالى وهو
 أعز ما تنعم به فى الدنيا والآخرة ، نقدم بعض الشرح فى بساطة ، حتى
 يزول ان شاء الله الالتباس ، وتطمئن القلوب الى الحق الذى لا مرية فيه
 هناك معرضان ، معرض توحيد الله سبحانه ، ومعرض الأسباب
 التى أثبتها الله بحكمته حيث جعل لكل شىء سببا ، أما المعرض الأول فهو

معرض التوحيد والله سبحانه ينفرد به ، ولا يجوز أن يشرك العبد معه أحداً من خلقه مهما علا قدره وسما فضله ، وأما المعرض الثاني فهو معرض الأسباب التي تؤتي ثمرتها باذن مسيبيها سبحانه وتعالى ، وهذه لا يجوز الانكار على اتخاذها ، كما لا يجوز الخلط بينها وبين مسيبيها ، واذا اتخذ العبد الأسباب فيجب أن يشهد ربه مع اتخاذها ويعلم أنها لا تؤتي ثمارها الا باذنه واراادته •

وتوضح ذلك بجلاء الأمثلة الآتية : ففي معرض التوحيد نقول الله خالق كل شيء ، ولا أحد معه ، ونقول « أفمن يخلق كمن لا يخلق » وكذلك نقول ان الله هو المميت ، ومالك الموت هو مالك الحياة ، ولا شريك له فيهما . لكننا في معرض الأسباب نقول ان الله يخلق بأسباب ، فيلتقي الذكر بالأنثى ويتخلق الجنين في أطواره الى أن يخرج من الرحم بشرا سويا • • فان أنكرت أن أبوى سبب خلقتي فقد أنكرت أمرا واقعا لا شبهة فيه ، ومع اني اعترف بأنهما سبب خلقتي وميلادي ، فاني أقول واعتقد أن الله هو الذي خلقتني ولا أقول خلقتني أبى وأمى ، وانما أقول ولدني أبى وأمى ، وبهذا أشهد ربي في أسباب الخلقة ولا أنظر للأسباب وحدها •

كذلك نقول الله يتوفى الأنفس ، لكنه حين يتوفاها — سبحانه — يقيم لوفاتها سببا هو ملك الموت فيقبضها عند انتهاء أجلها بأمر الله ، فاذا قلت في معرض التوحيد ان الله توفي فلانا فقد صدقت ، واذا قلت في معرض الأسباب أن ملك الموت قبض روح فلان فقد صدقت ، وليس في نسبة الامانة لعزرائيل — عليه السلام — خروج عن التوحيد لأنه انما يميت الأحياء بأمر ربهم عندما يأذن الله له :

« قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون » •

وفي معرض التوحيد يقول الحق — جل وعلا — لرسوله الكريم — صلى الله عليه وسلم — : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » • وفي معرض الأسباب يقول له — صلوات الله وسلامه عليه — وآله « وانك لتهدى الى صراط مستقيم » .. أى تهدي من أراد الله •

هدايته .. وفى الجمع بين عطاء الله وأسبابه على يده - صلى الله عليه وسلم - يقول الله سبحانه وتعالى : « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله » .. فليس الرسول - صلى الله عليه وسلم - شريكا لله فى عطائه وانما سيقى النعم من الله تعالى بسببه وعلى يده - صلى الله عليه وآله وسلم - لسيدنا زيد بن حارثة ، فقد أسلم على يده ، واعتق بفضله ، وتزوج باختياره - صلوات الله وسلامه عليه وآله وسلم - فكان منعما عليه من باب الشبيبة التى أرادها الله سبحانه بحكمته ، فهو يخلق البعض البعض ويرزق البعض البعض .. ويعين البعض البعض ويعلم البعض البعض الخ .

والشيوخ العارفون بالله ، نواب عنه - صلى الله عليه وسلم - فى هداية الخلق وإرشادهم فى جنب الله ، لأن الله - سبحانه - ختم الرسالات بالرسالة المحمدية فكانت مسك الختام ، فصار العلماء الربانيون فى هذه الأمة يقومون مقام الأنبياء فى الأمم السابقة فى تفقيه المؤمنين وتبصيرهم فى أمور دينهم بالأقوال والأفعال والأحوال على منهج الشرع الشريف .

فاذا استرشد مرید بشيخ من هؤلاء ، فقد أخذ فى سبب من أسباب الطاعة التى أمر الله بها .. وجعل لها أئمة يدلون عليها : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .. كما قال تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

واتصال المرید بشيخه اتصال روحى ، لا تفصله الجدر ولا المسافات ، وإذا كانت الجدر والمسافات لا تفصل أصوات الأثير المادية فكيف تفصل بين الأرواح المتعاونة فى ساحة الملكوت وهى ساحة الأنوار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء .

وطريقة الذكر التى أرشد اليها سيدى الشيخ انما هى لأهل الجدر من رجال الطريق ، لأن بعض الناس يذكرون ذكر العادة دون استجماع

كاف أو حضور كامل وهو ذكر حسنات ، أما الخواص فيذكرون ذكر درجات ، فيجمعون القلب على الله بأسباب الجمع ، فيأتسون بروح شيخهم لأنه بابهم الى مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويأتسون بروحه - صلى الله عليه وسلم - لأنه بابهم الى الله تعالى ، وبهذا الاستئناس يقوى مددهم من الله بأسبابه ولا يستطيع الشيطان أن يقطع عليهم الطريق ، لأنه لعين يقعد بكل صراط مستقيم ليصد عن سبيل الله ، والطريق تحتاج لرذ كيده الى الرفيق ، والشيخ انما أقامه الله حيث أراد له دعوة الناس الى الحق ، فهو معان منه سبحانه فيما أقامه فيه ، ومولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انما هو البحر الزاخر الذي يستمد منه هؤلاء الشيوخ وعنه يصدررون ، قد علم كل أناس مشربهم .. فاذا أنس المريرد بروح شيخه وبروح النبى - صلى الله عليه وسلم - فانما يقصد الفتحة من بابه وهو يشهد ربه ويذكره ، ويستعين بالمدد العالى على النفس والشيطان ، واعداد السلاح لقتال الأعداء لا يتنافى مع اعتقاد أن النصر من عند الله ، فقد قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » •

وفى حين يقول تعالى ذلك فى معرض الأسباب ، يقول فى معرض التوحيد « فلم تقتلوههم ولكن الله قتلهم » ولكنه - تعالى يقتلهم بأيدينا من باب السببية « قاتلوههم يعذبهم الله بأيديكم » .. وأثر الروح فى الروح أشد من أثر السلاح فى الأعداء ، فان الروح تتعدى بأثرها لا فى الأرواح بل قد تتعدى باذن الله الى الجماد والحيوان ومن ذلك تسبيح الجبال والطير كأثر لتسبيح سيدنا داود - عليه السلام - قال تعالى : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » .. وسبحان الفعال لما يشاء •

وقد كان سيدى الشيخ يجمع لفيها من المريدين بين المغرب والعشاء ويعلمهم الذكر بالكيفية السابقة ، وكان لى شرف حضور تلك الجلسة ، وعندما تحين صلاة العشاء يأمر الشيخ باقامة الصلاة ، وكان يبارك لنا فى هذه الجلسة فنذكر فى حضور واستجماع أضعاف ما كنا نذكره فرادى :

ويد الله مع الجماعة ، والأرواح القوية تسقى بمددها الأرواح الضعيفة ، كما ينساب الماء من الأرض المرتفعة إلى الأرض الواطئة ويرويهما •

وكان سادتنا الصحابة يجلسون بين يديه — صلى الله عليه وسلم — كأنما على رؤوسهم الطير ، وكانوا بعد تفرقهم يحسون بالفارق في وجدانهم وهم بين يديه وحين ينصرفون ، لأن اجتماع الأشباح له أثر في مد الأرواح وإن كانت متصلة بغير الأشباح ، وسبحان من ربط بين الظاهر والباطن وبين القلب والقالب •

ولقد حدث حنظلة بن الربيع — كما جاء في الصحاح — فقال : نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا رأينا عين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا — أى لاعبنا وعالجنا — الأولاد والزوجات والضيعات ونسينا كثيرا •

وقد بلغ من حرص سيدنا حنظلة — رضى الله عنه — على أن تدوم عليه الحالة الروحية السنية ، أن اتهم نفسه بالنفاق حين فارقت بفرار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد لقيه سيدنا أبو بكر — رضى الله عنه — فقال له : كيف أنت يا حنظلة ، فقال نافق حنظلة ، قال : سبجان الله ماتقول؟ قال نكون عند رسول الله يذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا رأينا عين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأولاد والزوجات والضيعات فنسينا كثيرا ، فقال سيدنا أبو بكر — رضى الله عنه — : انى أجدر مثل ذلك •• انطلق بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فانطلقا •• فذكرنا له ذلك فقال : « والذي نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر ، لصافحتكم الملائكة في فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ولكن يا حنظلة ساعة وساعة •• ولكن يا حنظلة ساعة وساعة •• ثلاث مرات •• أخرجه مسلم والترمذى •

والحكمة ظاهرة في قوله صلى الله عليه وسلم : ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ، فإنا متعبدون بالتكسب والسعى على المعاش ، ولا بد من التفرغ بعض الوقت لهذا الكسب ، ولإدارة شؤونه •• وشؤون الأسرة وهو سعى مشكور ومأجور •• مادام العبد يراعى فيه وجه الله ويتقيه ، وما يلقاه

المؤمن من مدد النور في الجلسات الرحمانية يعاونه في رعاية جانب الله في أوقاته الأخرى .. ومع أن الأجيال التي تلت جيل الصحابة الكرام - رضى الله عنهم - لم يكن لهم شرف صحبتته بشخصه الجليل ، فانهم لم يحرموا من الاتصال بروحه الشريفة - صلوات الله وسلامه عليه - وكيف لا ونحن نسلم عليه مشافهة في كل تشهد في الصلاة ، ونقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ولا نقول : السلام على النبي :

وينصحننا سيدي الامام أبو الحسن الشاذلي - رضى الله عنه - فيقول :

لا تؤخر طاعات وقت لوقت آخر ، فتعاقب بفواتها أو فوات غيرها أو مثلها ، جزاء لما ضيع من ذلك الوقت ، فان لكل وقت سهما ، فحق العبودية يقتضيه الحق منكم بحكم الربوبية .. ومن حكم السادة الصوفية قولهم : الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك .. وقولهم : نفسك ان لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

ومما تقدم نرى أن الصلة الروحية أمر مقطوع به ، واذا كنا لا نؤمن الا بالمادة ، فان ذلك سينتهى بنا الى غاية خاسرة والعياذ بالله ، فقد تنكر الملائكة والجن والجنة والنار الخ لأتنا لا نرى شيئا منها بأعيننا .. ولقد كفر بنو اسرائيل حين قالوا لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام - : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » .. والايمان بالغيب من قواعد الدين الصحيح ، لأنه تصديق بكلمات الله .

فان سلمنا بقيام الصلة الروحية سلمنا بقيام المدد المترتب عليها ، لأن الله يرزق البعض البعض في أمر الدنيا والدين ، وهذه هي القاعدة العامة ، فان شئت فجاء الرزق بلا سبب ظاهر فالأمر لله ، والتدبير بيده ، والأسباب تقيدنا ولا تقيد سبحانه ، ولا يجوز أن يعترض بهذا الاستثناء على القاعدة العامة ، لأن الحكم للغالب كما يقولون .

ومما جرت به التجارب أن يهتدى الخلف بالسلف ، ويسترشد الضعيف بالقوى ، والجاهل بالعالم ، والفضل كله بيد الله يؤتیه من يشاء ، وما قسمه كان وما لم يقسمه لم يكن ، وقد يؤتى عبده أقوى الأسباب

ولا ينتفع منها بشيء ، وقد تأتي السعادة للناس عطاء من الله ، فذلك أبو جهل القرشي لم ينتفع من مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأن الله طبع على قلبه بكفرة .. بينما سيقت السعادة لسلمان الفارسي ، رضي الله عنه ، فالحق - صلى الله عليه وسلم - بآل البيت وقال سلمان منا آل البيت ، ورضي الله عن شيخنا العارف بالله سيدنا الشيخ علي عجل اذ يقول في الهامه القورى :

وكم من بعيد ولكن قريب

وكم من قريب ولكن بعيد

والشيخ أداة اتصال المريد بربه ، وانما ينفج من شيخه بقدر جده وسميه وما قدره الله له في سوابق أزله ، فقد يتبع الشيخ عدد كثير فينتفعون منه بتفاوت ، وقد يصير بعضهم من الصديقين وهم الأقلون عددا والأعظمون عند الله قدرا ، ويقول في وصفهم سيدنا الامام أبو الحسن الشاذلي - رضي الله عنه - :

« الكاملون ، حاملون لأوصاف الحق ، وحاملون لأوصاف الخلق ، فان رأيتهم من حيث الخلق رأيت أوصاف البشر وان رأيتهم من حيث الحق رأيت الأوصاف التي زينهم بها .

« فظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى ، تخلقا بأخلاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال تعالى « ووجدك عائلا فأغنى » أفترأه أغنا بالمال ؟ كلا ، وقد شد الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وأطعم الجيش كله من صاع ، وخرج من مكة على قدميه ليس معه شيء يأكله ذو كبد الا شيء يواريه ابط بلال » .

هذا ويرى السادة الصوفية أن الذاكر اذا تاب وأخلص دينه لله ، وسار على نهج الكتاب والسنة والجماعة ، فهو انما يحسن الى نفسه بكثرة ذكر الله فيترقى في درجات اليقين ، ويقطع في الترقى العلائق والعوائق ، ويضمه فيض الله فيكون من أهل الفتح والالهام والحكمة ، ويقول الامام القشيري - رضي الله عنه - في فضل الذكر على الذاكرين ..

« الذكر ركن قوى في طريق الوصول الى الحق - سبحانه وتعالى - بل هو العمدة في طريق القوم ولا يصل أحد الى الله الا بدوام الذكر » .

والامام القشيري منح كل الحق في ذلك القول ، الذي أيده
التجارب الطويلة ، عبر القرون الماضية .. والتصوف يقوم على التجربة
والعيان أكثر مما يقوم على الدليل والبرهان ، والله تبارك وتعالى يقول :
« فاذكروني آذركم » فأى شرف للذاكرين في هذا القول الكريم ، فاذا
ذكرك ربك فقد نفحك ، واذا نفحك ، فقد آنسك بقربه .. وقد قالوا من
آنسه الله بقربه أعطاه أربعاً بغير أربع : علماً بغير طلب ، وغنى بغير مال ،
وعزا بغير عشيرة ، وأنسا بغير جماعة .

ونختم هذا المقال بالحديث القدسي الرائع وقد رواه الشيخان ، يقول
— صلى الله عليه وسلم — عن الله تعالى :

« أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فان ذكرني في نفسه
ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه ، وان تقرب
الي شبرا ، تقربت اليه ذراعاً ، وان اقترب الي ذراعاً ، اقتربت اليه باعاً ،
وان أتاني يمشي أتيته هرولة . »

ويجب تأويل هذه الألفاظ ، فالله — سبحانه — لا يحده مكان ، ولا
يتحرك ولا يسكن ، وانما المعنى أن يكون الله سبحانه في عون عبده
المجاهد في سبيله ، يضاعف حسناته ويعفو عن سيئاته .. فيعمل في جهاده
القليل ويثاب عليه بالكثير .. ويذنب بالفعل ويستغفر بالقول ، فيقبل
استغفاره .. فما أكرم ربي وما أبره ، واذا نسب الله عملاً صالحاً لعبده
فان ذلك من آيات احسانه ، واذا جد العبد في أسباب الطاعة وجب أن
يستعين بالله ربه ، فانه هو الذي يوفقه ويشرح صدره ، والله عليه المنة في كل
طاعة « وما بكم من نعمة فمن الله » فمنه — سبحانه — العطاء ومنه سبحانه
الثناء ، ومن هنا وجب ألا يفتر مؤمن بطاعته ، أو يمن بها على الله مهما جد
واجتهد ، بل يرد الفضل لله في كل عمل صالح ، ويسأله دوام التوفيق لما
يجب ويرضى « ولكن الله يحب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم
الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله
عليم حكيم » ..

الصبر في طلب الله

— ٣٢ —

جاء في رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى تلميذه الصديق الوفى المبارك السيد سالم عمر جمعة ما يلى :

(فكن معه واصطبر لعبادته ، فقد قالوا ان الاصطبار نهاية الصبر ، ومن صبر ظفر ، ومن لازم وصل ، ومن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له .

(والشجرة اذا أورقت ازهرت ، فاذا ازهرت وكانت من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، أدركت ، فاذا أدركت أثمرت .

« والثمره هنا الاعتقاد الكامل ، ثم المعرفة ، والوقوف عند حد الأدب فانه سبحانه وتعالى مالك الملك ، فنحن فى ملكه ، وواجب علينا خدمته سبحانه وتعالى .

« فاذا عبدناه فانما نحن عبيد ، مفروض علينا عبادته ، أى خدمته ، ولا نبغى بذكرنا وعبادتنا الا أننا خدّم وعبيد ، والله يفعل فيما ما يريد ، لا نبغى بذكرنا وعبادتنا أى ثواب ، ولا نخاف من عقاب ، بل نرضى بما قدره وقضاه ، فليس الأمر لسواه ، جل وعلا ، وهو الرحمن الرحيم » .

أمرنا الله سبحانه وتعالى بالعبادات المختلفة ، وفيها تكاليف بدنية ومالية ، يتميز بها المسرع من المبطىء والمقبل من المدبر ، وذلك مظهر من مظاهر عدله سبحانه وتعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وليس عدلا أن يكون المحسن والمسيء بمنزلة سواء عند ربهم .

والعبادة مدخل للعبودية ، والعبودية سبيل لمعرفة سبحانه وتعالى ،
ومعرفته سبحانه هي علة وجودنا في هذه الحياة الدنيا فقد بين تعالى تلك
العلة في قوله الكريم (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما اريد منهم
من رزق وما اريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقد
قال ابن عباس رضى الله عنه في معناها : الا ليعرفون .

ومعرفة الله تتفاوت بتفاوت الفهم عن الله ، والفهم عن الله
يتفاوت بتفاوت الجهاد في سبيله والصدق فيه ، وما قدره
الله لعبده من عطاءه في سوابق آزله ، ولأن ما قدره سبحانه وتعالى في
سوابق آزله غيب لا يعلمه الا الله ، وجب على العبد أن يتخذ كل سبب
مرسوم في الشرع لمرضاته ، وما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وقد
أمر سبحانه بالعبادة ، كما أمر بالاصطبار عليها في مثل قوله الكريم (رب
السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا)
وقوله تعالى (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك
والعاقبة للمتقوى) .

واذا كنا مع اعتقادنا في أن الرزق بيد الله تعالى نجهد جهدا في أمور
ديانا القانية لنصل فيما نبغيه لحياتنا الدنيوية الى أفضل مستوى
مستطاع فكيف بنا نتوانى في طلب الآخرة الباقية ، وإذا كانت مطامعنا في
الدنيا لا تقف عند حد ، فكيف نرضى بالقليل لأخرانا مع أننا نستطيع أن
نبلغ أضعافه ، أليس في ذلك إيثار للدنيا على الآخرة وقد نهانا الله عنه
وحذرنا منه (بل تؤثرن الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى) .

وما أبدع ما يقوله سيدي على الخواص ، رضى الله عنه ، فيما نقله
عنه سيدي عبد الوهاب الشعراني ، فقد قال :

« من أدب العبد في الفهم في كلام ربه جل وعلا أن ينشئ حيث مشى
به الشرع ، ويقف حيث وقف به ، فيعقل ما يقول له اعقل ، ويؤمن فيما
يقول له فيه آمن ، وينظر فيما قال له فيه انظر يعني تفكر ، ويسلم فيما قال
له فيه سلم .

« وذلك لأن الآيات وردت في القرآن متنوعة ، آيات لقوم يعقلون ، وآيات لقوم يؤمنون ، وآيات لقوم يتفكرون ، وآيات لقوم يسمعون ، وآيات للعالمين ، وآيات للمؤمنين ، وآيات للموقنين ، وآيات لأولى النهى ، وآيات لأولى الألباب ، وآيات لأولى الابصار ، فصل يا أخى كما فصل لك الحق تبارك وتعالى ، ولا تتمد الى غير ما ذكره لك ، ونزل كل آية وعبرة موضعها وانظر فيمن خطب بها ، واجعل نفسك كأنك المخاطب بها ، فان فيك مجموع ما تفرق في اخوانك المسلمين . نعتته تعالى لك بالعقل ، والايان ، والتفكر والتقوى والسمع ، والقلب الذى هو اللب ، والابصار . وغير ذلك ، فانظر يا أخى فى كل صفة نعتك بها واظهر بها فى العالم تكن ممن جمع له القرآن وأعطى الفرقان . »

أما أن الاصطبار نهاية الصبر ، فان الشيخ يوجه تلميذه الى موالاة الطاعات فى صبر جميل ، واستقامة دائمة ، مع احتمال المشقات فى سبيله سبحانه ، وما يقول به السادة الصوفية فى الاصطبار ، مأخوذ من كتاب الله تعالى كما بينا آنفا وهم يستنهضون همته فيقولون انه سبحانه قال (ليس كمثل شيء) ولما كان تبارك وتعالى لا مثل له ، حق للمابدين ألا يذروا مقدورا فيه الا بذلوه ولا يغادروا ميسورا فى طلبه الا تحبلوه وانشدوا فى ذلك :

سهر العيون لغير وجهك باطل

وبكاؤهن لغير هجرتك ضائع

ويقول الامام القشيري رضى الله عنه ناصحا للمؤمن :

« لمن تدخر مجهودك اذا لم تطلب معبودك ، هل تعرف أحدا يستحق ما يستحقه أو يوجد ما يخلقه ؟ ان دعوته أجابك ، وان أطعته اثابك ، وان تركته أمهلك ، وان رجعت اليه وأصلبك ، وان عرفته أحبك ، وبغير شفيع قريبك ، يوصله كاشفك ، وبفضله لاظفك . »

ويقول الامام الدقاق ، رضى الله عنه •

« ان مجنون بنى عامر ادعى المحبة لشخص ، وتحقق فيها حتى هجر الأوطان ، وفارق الاخوان ، واغترب عن كل شيء حتى اسمه (اسمه قيس ومحبوبته ليلى كما هو معروف فلما خرج الى الصحراء رأى ظبية) فقال :

فميناك عيناها وجيئك جيدها

سوى أن عظم الساق منك دقيق

فقال له أهل التحصيل :

« اف لك من محب قاسيت ما قاسيت ، وتحملت ما تحملت ، وحين خرجت الى الصحراء وجدت من أمثالها ما لا يحصى » •

ومن لازم وصل ، كما قال سيدى الشيخ رضى الله عنه ، والوصول لا يكون الا بالمعرفة ، لأن المعرفة تعلمك ، كما يقول الامام الدقاق ، رضى الله عنه ، ايه ليس كذاته سبحانه ذات ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة الا من جهة موافقة اللفظ ، وجلت الذات القديمة أن تكون لها صفة حديثة ، كما استحال أن تكون الذات المحدثه لها صفة قديمة ، سبحانه من ليس كمثلته شيء ، وجل عن الزمان والأين •

وليس المقصود أن تعرف ذلك اعتقادا فحسب ، بل المقصود أن تشهد ذلك مذاقا واحساسا ، فذلك الاحساس ، يهون معه كل جهاد فى سبيله ، ويصغر به ما سواه جل وعلا ، كما يقول استاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، رضى الله عنه •

فتشت كل الخلق عن علم فلم

أرلى سوى رب السما من وال

فتركت كل العالمين وجئته

وجعلت ذكرى ذاته منوالى

وقد تحلى السادة الصوفية بذلك الأدب ، فمقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، لأن العلم انما هو وسيلة للعمل ، فجدوا

فى طلب الله بكلياتهم وجزئياتهم ، وأخذ عنهم أكابر العلماء ، وإليك ما يحدثنا به حجة الاسلام الامام الغزالى رضى الله عنه عن التصوف وأثره فى كتابه (المنقذ من الضلال) .

بقيت نحو عشرين سنة بعد خروجى للتصوف ، وانكشف لى فى أثناءها أمور لا يمكن احصاؤها ، والقدر الذى أذكره لينتفع به الناس انى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا ، وإن جميع حركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وبالجمل ما إذا يقول القائل فى طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى .

ومعلوم أن الامام الغزالى - رضى الله عنه - انتهى الى ذلك القول بعد أن تبصر فى العلوم العقلية والنقلية ووقف على آراء الفلاسفة ، وحين أقبل رضى الله عنه على التصوف هجر العراق ورحل الى الشام وتفرغ فى خلواته لله ما وسعه الجهاد والذكر حتى وصل الى مقام قال فيه : يضيّق نطاق المنطق عنه وكل ما أقوله لكم :

فمكان ما كان مما لست أذكره

فطن خيرا ولا تسأل عن الخبر

ولا عجب أن يجعل ولا يفصل لأن مقامات السادة الصوفية انما هى مذاقات وجدانية وهى اذن فوق ما يصف الواصفون وصدق الامام النيهانى رضى الله عنه اذ يقول :

لا تسئل وصفهم فهم سر

بسوى الذوق ماله افشاء

وصدق شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه حين
يقول الهاما :

نحن فى عالم اليقين رجال قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم انما نحن فوق ذاك شربنا
فتح الباب ثم قال لجوه فولجنا وبعدها قد وصلنا
ومن لازم وصل ، ومن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ، كما
قال شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ،
والوصول لا يكون الا بالمعرفة ، ومعرفة الله لا تكون الا بعد معرفة النفس
ومن عرف نفسه فقد عرف ربه فمن عرف نفسه بالحدوث ، عرف ربه
بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء ، عرف ربه بالبقاء ومن عرف نفسه بالجهل
عرف ربه بالعلم ومن عرف نفسه بالعجز عرف ربه بالقدرة ومن عرف نفسه
بالفقر عرف ربه بالغنى ومن عرف أنه مخلوق ، عرف أن ربه هو الخالق ،
ومن عرف أنه مرزوق ، عرف أن ربه هو الرازق وهكذا ، وبهذه المعرفة
المذاقية يقف المؤمن من ربه موقف العبد من سيده ، فاذا قال له ربه يا عبدى
قال لبيك ربى فصدق فى الامتثال بصدق العبودية المذاقية ، فلا يكسر
حدود ربه بل يلتزمها ، فان كسرهما أسرع بالانابة والاستغفار ولم يصر على
ما فعل ، فأكرمه الله بالمغفرة .

وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك العبودية
المذاقية الغاية القصوى التى يستطيعها البشر ، فشرفه ربه بالانتساب اليها
فى آيات كثيرة فى مثل قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من
المسجد الحرام الى المسجد الأقصى) وقوله تعالى (تبارك الذى نزل
الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) .

فاذا جد السادة الصوفية فى طاعة الله ، فهم يجدون عبودية لله ، غير
ناظرين الى ثواب أو عقاب حتى لا تكون الطاعة معلولة بخوف أو رجاء ،
بل تكون صافية وخالية من العلة لأنه سبحانه بسيادته على خلقه أهل لأن
يعبد لذاته ، لأنهم صنعتهم ، واليه مآلهم وييده أمرهم ، وما قدره كائن بهم ،
فليس الأمر لسواه — كما يقول سيدى الشيخ ولم يتدع السادة الصوفية .

فى ذلك جديدا ، بل أخذوه من مثل قوله تعالى (فصل لربك وانحر) أى لذاته سبحانه ، ومن مثل قوله فى السادة أهل الصفة (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) فمن أراد أن يكون من السابقين بالخيرات بأذن الله ، فليكن ذلك مشربه (والسابقون السابقون • أولئك المقربون) ومعلوم أن السابقين أعلى فى درجاتهم من أصحاب اليمين •

وقد كنت أقرأ فى كتاب لطائف المنن لسيدى العارف بالله الامام الشمرانى رضى الله عنه ، فوجدت وصية يوصيه بها شيخه القطب الكبير سيدى على الخواص رضى الله عنه ، يقول له فيها :

اياك أن تشره عينك ، فتتمنى ما ليس لك أن يكون لك ، فانه لا يخلو اما أن يكون قسمه الله لك أو لم يقسمه ، فان كان قسمه لك فهو صائر اليك لا مجالة اما بمشيئك اليه ، واما بمحيته هو اليك من غير مشي ، وأما ان لم يكن قسمه الله لك ، فلا يمكنك الوصول اليه بحيلة من الحيل ، فاشتغل عن ذلك باحسان الأدب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك فى وقتك الحاضر ، فقد نصحتك ، وعليك ببذل طوقك وجهك فى طاعته ، معتذرا ، مفتقرا خاشعا مطرقا ، غير ناظر الى عوض من دنيا أو أخرى ، فانك عبد ، والعبد لا يستحق على خدمة سيده شيئا لأنها من حقوق السيد •

وهذه الوصية كما تراها تتشابه فى مبنائها ومعناها بوصية سيدى عبد السلام الحلوانى لتلميذه ، وسبحان من جمع الصادقين على بساط المحبة ، وعلمهم من كلماته التى لا تنفد ما لم يكونوا يعلمون •

وكان سيدى القطب الكبير أحمد الرفاعى رضى الله عنه يقول :

« كن طيارا الى الحضرة كلما تغيب عنها ، ولا ترض بالقعود عنها ، ثم اذا من الله تعالى عليك بالدخول ، فأحسن الأدب ، ولا تغتر بما أنت فيه من النعيم الأوفر والعز الدائم والكفاية الكبرى والدلال والغنى فى الدنيا والأخرى ، فمن اغتر بذلك قصر فى الخدمة ضرورة ، وأخلد الى الرعونة الأصلية من الظلم والجهل ، فأخرج (بضم الهمزة) من الحضرة فى أسرع من لمح البصر » •

والدخول هنا ليس دخولا حسيا ، بل هو اتصال روحي ، حين يشتغل القلب بربه ، وتجتمع الهمة في مرضاته ، فلا يتشتت اللب في أودية الدنيا وهمومها بل يكون العبد في حضور ، ذاكرا مذكورا ، ساعيا مشكورا ، أنس قلبه بالله فاستوحش مما سواه ، أقبل على الله فأقبل الله عليه وفرح به فاختره برحمته وآواه وكيف لا وقد قال تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين) والقرب هنا قرب منزلة ودرجات لأقرب مكان ومسافات ، وهذه الرحمة الرحمانية ، هي مطمح الصادقين والصادقين من عباده الصالحين لأنه سبحانه يكتبها للذين يتقون ، لذلك ترى سيدي الامام العظيم أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه يقول في حزبه الكبير - حزب البر - فيما قال :

« يا الله ، يا الله ، يا الله ، يا لطيف يا رزاق يا قوى ، ياعزيز لك مقاليد السموات والأرض ، تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر ، فابسط لنا من الرزق ما توصلنا به الى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نعمتك ، ومن حلمك ما يسعنا في عفوك ، واختم لنا بالسعادة التي ختمت بها أوليائك واجعل خير أيامنا وأسعدنا يوم لقائك ، وزحزحنا في الدنيا عن نار الشهوة ، وادخلنا بفضلك في ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيما من أرواحنا ومسخرنا من أنفسنا ، كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا .

« وهب لنا منك مشاهد تصحبها مكالمة ، وافتح اسماعنا وأبصارنا ، واذكرنا اذا غفلنا عنك باحسن مما تذكرنا به اذا ذكرناك ، وارحمنا اذا عصيناك باتم مما ترحمنا به اذا أظعنناك ، واغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وما تأخر ، والطف بنا لطفًا يحجبنا عن غيرك ، ولا يحجبنا عنك فانك بكل شيء عليم » •

وفي الحديث القدسي الشريف يقول الحق تبارك وتعالى « انا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي » ويفسره سيدي عبد الوهاب الشعراني رضى الله عنه فيقول : أى الذين كسرت ارادتهم البشرية وأزيلت شهواتهم

الطبيعية ، واستؤنفت لهم ارادات ربانية ، فهم دائما تحت قهر ارادتي طوعا منهم لا ينجبر لقلوبهم كسر أبدا حتى يلقوني •

ويؤيد ذلك ما قالت السيدة رابعة العدوية ، رضى الله عنها : المحب لا يسكن أنينه وحنيه حتى يسكن مع محبوبه •

ويحذر سيدى عبد القادر الجيللى ، رضى الله عنه ، الأغنياء من التقصير فى طاعة الله تعالى اغترارا بالمال الذى فى أيديهم فيقول :

؟ لحذر أن تشتغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته ، فيحجبك بذلك عنه دنيا وأخرى ، وربما سلبك ذلك المال وأفقرك وغيرك عقوبة لك ، واعلم أنك ان اشتغلت بطاعته تعالى عن ذلك المال ، فهو موهبة من الله تعالى لك ، وليس هو من المالك المذموم » •

وقد كان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول لأصحابه :

« كلوا من أطيب الطعام ، واشربوا من أذ الشراب وناموا على أوطأ الفراش ، والبسوا البين الثياب فان أهدكم اذا فعل ذلك ، وقال الحمد لله ، يستجيب كل عضو فيه للشكر » •

« بخلاف ما اذا أكل خبز الشعير بالملح ، ولبس العباءة ، ونام على الأرض ، وشرب الماء المالح السخن وقال الحمد لله ، فانه يقول ذلك وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله تعالى ، ولو أنه نظر بعين البصيرة ، لوجد الاشمئزاز والسخط الذى عنده ، يرجع فى الاثم على من تمتع بالدنيا ييقن ، فان المتمتع بالدنيا فعل ما أباحه الحق سبحانه وتعالى ، ومن كان عنده اشمئزاز وسخط فعل ما حرمة الحق عز وجل » •

وينصحنا سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ، أن تنتقل من الأكوان الى المكون فيقول :

« لا ترحل من كون الى كون ، فتكون كحمار الرحى يسير والذي ارتحل اليه هو الذى ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان الى المكون ، وان الى ربك المنتهى » •

ومع أخذ السادة الصوفية فى أسباب الطاعات فهم يستعينون دائما بالله تعالى ، ويسألونه العون والتوفيق والقبول ، ويتجلى لك ذلك منهم فى مناجاة سيدى ابن عطاء ، رضى الله عنه ، وهو يقول فيها :

« الهى : أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى ؟ •

الهى : أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟ •

« الهى : ان اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك ، منعنا عبادك العارفين بك عن السكون الى عطاء ، واليأس منك فى بلاء •

« الهى : منى ما يليق بلؤمى ، ومنك ما يليق بكرمك •

« الهى : كيف يستدل عليك ، بما هو فى وجوده مفتقر اليك ، أياكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل اليك •

« الهى : هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، منك اطلب الوصول اليك ، وبك استدل عليك ، فاهدنى بنورك اليك واقمنى بصدق العبودية بين يديك •

« الهى : بك استنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل فلا تخيبنى ، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنابك أتسب فلا تبعدنى وببابك أقف فلا تطردنى •

« أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووجدوك
وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أجبائك حتى لم يجيوا سواك ، ولم
يلجأوا الى غيرك .

« أنت المؤمن لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى
استبانت لهم المعالم .

« ماذا وجد من فقدك ، وما الذى فقد من وجدك لقد خسر من بغي
عنك متحولاً ، وقد خاب من رضى دونك بدلاً ، كيف يرجى سواك وانت
ما قطعت الاخسان أم كيف يطلب غيرك وانت ما بدلت عادة الامتنان .

وقد وقع لى الاطلاع على مخطوط نفيس من مؤلفات سيدى الامام
القشيري رضى الله عنه (أغارني أخى العارف بالله الاستاذ عبد المنعم
الحلوانى رضى الله عنه) يشرح فيه أسماء الله الحسنى ، قرأت أن أثقل
منه الى السادة القراء شيئاً من كلامه القيم فى الصبر والاصطبار فقد قال
جزاه الله عنا خيراً .

أما رتبة العبادات فى الصبر ، فعلى أقسام ، أولها التصبر وهو تكلف
الصبر ومقاساة الشدة فيه ،

وبعد ذلك الصبر وهو سهولة تحمل ما يستثقله غيره من فنون
القضاء وضروب البلاء ،

وبعد ذلك الاصطبار وهو النهاية فى الباب ويكون ذلك بان يآلف
الصبر فلا يجد مشقة بل يجد روحاً وراحة قال الشاعر :

تعودت من الصبر حتى ألفته
وأسلمنى حسن العزاء الى الصبر

وأنشدوا :

صائرا لصير فاستغاث به الصير .
فصاح المحب يا صير صيرا

ونقل عن الامام أبي علي الدقاق رضي الله عنه قوله :

« ليس الصبر ألا تذكر البلاء لفظا ونطقا ، انما الصبر ألا تعترض على قدرته استقباحا . لذلك ونكرا ، وشاهده ما أخبر الله تعالى عن أيوب عليه السلام بقوله (انى مسنى الضر) ثم قال تعالى (انا وجدناه صائرا نعم العبد انه أواب) •

ثم يقول الامام القشيري رضي الله عنه فى ابداع :

« وأما ما يجب على العبد من الصبر فهو الصبر على ما أمر الله تعالى به من أوامره ، والصبر عما نهى عنه من محارمه ، والسكون تحت مايجرى قضاؤه به وقدره ، وفقنا الله تعالى لذلك بمنه ورحمته انه على كل شيء قدير » •

وأقول بعد ما تقدم : اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك واجعلنا من عبادك الصالحين الذين جعلتهم فى حماك المنيع وقلت فيهم (ان عيادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكىلا) •

صحبة الشيخ العربي

— ٣٣ —

« أما الشوق فشوق يؤدي للجمع ، والجمع لا يكون الا بالجمع ، والجمع جمع القلب على الله ، فاذا كان شوق فلا يكون الا الله ، فان تعدى لانسان ، فلا يكون الا بجمعه على الله ، فلا يكون شوق لانسان الا لمحبة الله ، فهو بالله والى الله وفى الله وعلى الله وبالله . »

« فاذا كان عندى شوق فمظهره أنت ، ومنك طوقت جيده وعرفتك بالله ، فاذا توجهت الى الله ، وجدتك انت مع الله ، فاذا عرفت انسا فالاعرفه الا الله » .

جاءت هذه الكلمات فى رسالة بعث بها أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، لتلميذه الصديق الوفى المبارك السيد سالم عمر جمعة ، حفظه الله وهى كما تراها ، كلمات صوفية ضافية ، تأخذ منها أن شوق المؤمن لأخيه المؤمن عبادة ، من أسمى العبادات ، لأن محبة الله هى الباعثة لذلك الشوق ، وإذا قامت الأخوة على محبة الله تعالى ، لم تندسها علة دنية ، أو غاية عرضية ، تزول بزوالها الرابطة ولا تدوم .

والاخوة فى الله ، أخوتان ، اخوة عامة تقوم على أخوة العقيدة ، وأخوة خاصة ، تقوم على محبة الله ، والمحبة فى الله ، آخص من اخوة العقيدة ، ومحبة الشيخ لتلميذه أو التلميذ لشيخه ، هى من المحبة الخاصة ، بل هى خاصة من الخاصة ، لأنها بنيت أساسا على محبة الله ، وقويت أركانها بالأبوة والبسوة الروحية ، التى قامت بين الشيخ وتلميذه فى الله وبالله .

والشيخ ينمى فى التلميذ محبة الله ، وإثاره تعالى على ما سواه ،
والتلميذ يقدر لشيخه فضله فى تنمية المحبة وتشجيع دعاائها ، وتوثيق
عراها ، وكفالة الشيخ لتلميذه فى هذا الضوء من حياته الروحية ، كقالة يراد
بها وجه الله وأجر الشيخ على الله سبحانه ، وهو لا يريد من تلميذه جزاء
ولا شكورا .

والأخذ عن شيخ عارف بالله ، من المبادئ الصوفية الهامة ، حتى لقد
قالوا : كل من لم يكن له أستاذ ، يصله بسلسلة الاتباع ، ويكشف عن قلبه
القناع ، فهو فى هذا الشأن لقيط لا آب له ، دعى لانسب له ، فإن لم يكن
له نور ، فالغالب غلبة الحال عليه ، لم تروضه سياسة التأديب والتهذيب ،
ولم يقمهم زمام التجربة والتدريب

والسادة الصوفية ، يقولون وهم محققون فيما يقولون ، ان الطريق
تحتاج للرفيق ، وخاصة طريق الله ، التى يعالج العبد فيها خوافى علله القلبية ،
ولا بد لمعالجها من طبيب خبير بالعلل وعلاجها ، ممن يسهلهم الله لذلك ،
ويقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه لولا ميادين النفوس ، ما تحقق
سير السائرين ، اذ لا مسافة بينك وبين الله حتى تطويها رحلتك ، ولا قطيعة
بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك ، كما يقول رضى الله عنه حظ النفس فى
المعصية ظاهر جلى وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومداداة ما يخفى صعب
علاجه .

والدواء فيه المرارة فى البداية ، ولكنه موصل الى الشفاء فى النهاية ،
وان الذى أنزل الداء ، أنزل معه الدواء ، ليتداوى صاحب الداء من الداء
بالدواء الذى أراده الله وأذن به للشفاء ، وينصحن سيدى ابن عطاء الله رضى
الله عنه فيقول : لا تكن كالغليل يقول لا أتداوى حتى أجده الشفاء ، فيقال
له ، لا تجد الشفاء حتى تتداوى .

ويتدرج المريد فى الجهاد على يد شيخه شيئا فشيئا ، حتى يذوق
حلاوة الطاعة ، فينتقل من ذل المعصية الى عز الطاعة ، ويرقى حتى يتحلى
— كما يقول سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه — بسبعة أصول : استحقار
ما سوى الله حالا ، والتعظيم لأوامر الله كشفا ، وسقوط الاكوان شهودا ،

والغناء في الجمع استغراقا ، وتعلق الهمة بالله دأبا ، ومراقبة الأنفاس سرا ،
ثم حدوث الوله بحيث لا يرى غير الله ، ولا يحس بشيء سواه .

ويقول سيدي الامام الغزالي ، رضى الله عنه - في كتاب الاحياء ،
(المحبة لله ، هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات
فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ،
كالشوق والأنس والرضا واخواتها ، ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة
من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .

ويبين لنا السادة الصوفية ان الشيخ في التربية الروحية يجلو بارشاده
للمريد مرآة قلبه حتى تتجلى فيه أنوار ربه فيقول له شيخه عندئذ (هأنت
جوربك) فيشهد ربه ويؤثره على هواه وعلى كل ما سواه ، ويصلح في هذه
المرتبة لأن يجاهد نفسه بنفسه جهادا مشمرا ، وذلك أشبه بما يقع من كفالة
والد للجسد لابنه حتى يبلغ رشده فيجاهد على رزقه بنفسه على أساس
صالح من الكفالة الابوية السابقة ، ويرى المريد من ربه تعالى العون
والالهام مصداقا لقوله سبحانه ، (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا
وان الله لمع المحسنين) ، وليس معنى ذلك أن ينسى فضل شيخه فان من لم
يشكر الناس لم يشكر الله ويقول العارفون : لا يطمع أحد في معرفة الله
وهو لا يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يطمع أحد في معرفة
الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لا يعرف شيخه .

ويبين لنا السادة الصوفية كذلك ، ان الحجاب الذي بين العباد
وربهم ، ليس أمرا وجوديا بل هو حجاب توهمي ، واليك ما يدل ذلك به
سيدي ابن عطاء الله السكندري - رضى الله عنه ، على صحة رأيهم اذ
يقول في روعة ظاهرة :

« من شهد ظلية الآثار ، لم تعقه عن الله ، فان ظلال الأشجار في
الأنهار ، لا تعوق السفن عن التسيار ، ومن هنا يتبين لك أن الحجاب ليس
أمرا وجوديا بينك وبين الله ، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن
يكون أقرب اليك منه ، ولا شيء أقرب من الله فرجعت حقيقة الحجاب الى
توهم الحجاب » وهي نظرة فلسفية كما ترى ، والتصوف فلسفته الصافية

الخالية من الريبة والشك أو الخيال والوهم ، وكل ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك .

ويقول السادة الصوفية ان من ذاق شيئا من خالص محبة الله ، ألهام ذلك عما سواه ، كما يقولون : ان وصول العبد الى ربه انما هو وصوله الى العلم به سبحانه ، وجل تبارك وتعالى أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء ، وأين ذواتنا من ذاته العلية ، وأين الحادث من القديم ، والفانى من الباقي ، فهو جل وعلا ، يتقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ولا انفصل عنه حادث مسبوق به جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل .

وما رمى به السادة الصوفية من الحلول والاتحاد ، انما رموا به حسدا من عند أعدائهم ، أو جهلا بمرامهم في أقوالهم ، وقد تعلقوا عن افهام القاصرين ولا يفهم كلامهم الا واحد منهم ، سلك مسلكهم ، وذاق مذاقهم . خاصة وأنهم اعتمدوا في كلامهم على الاشارات ، كلفة رمزية لأهل التصوف ، لا لعامة الناس ، والخواص يفهمون ما لا يفهمه العوام وقد قيل في حكم الأقدمين .

وكم من عائب قولاً صحيحاً

وآفته من الفهم السقيم

على أن بعض أئمتهم بينوا لنا أنه حيث ورد الاتحاد في كلامهم فانما قصدوا به اتحاد مرادهم مع مراد ربهم كما قال سيدي على وفأرضي الله عنه .

وعلمك ان كل الأمر أمرى

هو المعنى المسمى باتحاد

ومن عجيب الأمر أن يرمى اعداء التصوف سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله عنه بالحلول والاتحاد ، مع انه يقول في صراحة تامة في الفتوحات المكية (باب ٢٥٢) ومن أعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلاً أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء

وان الشمس ما انتقلت اليه نواتها وانما كان القمر مجلاها كما جاء في
أشعاره قوله :

ودع مقالة قوم قال عالمهم
بأنه بالاله الواحد اتحدا

الاتحاد محال لا يقول به
الا جهول به عن عقله شرذا

وعن حقيقته وعن شريعته
فاعبد الهك لا تشرك به أحدا

وقد نبه سيدي عبد الوهاب الشعراني رضى الله عنه ، في مقدمة
كتابه القيم (اليواقيت والجواهر) الى أن حساد الصوفية دسوا على سيدي
محيي الدين وغيره ، كما دسوا على سيدي الشعراني في حياته ، أقوالا
تخالف ظاهر الشريعة وقد اطلع على النسخة الخطية الأصلية للفتوحات
المكية ، ولم يجد فيها شيئا من تلك المدسوسات •

وقد وجب علينا اذن ، أن نحسن الظن بأسلافنا الصالحين ، ولأنسىء
اليهم ، وهم أولئك الذين علمنا عنهم أنهم متمسكون بالكتاب الكريم والسنة
الشريفة والجماعة الملتزمة ، واذا عجزنا عن فهم عبارة من عباراتهم فلنرد
علمها ومرادهم منها لله تعالى ، وقد رأيت للامام النبهاني رضى الله عنه
عبارة في هذا المعنى فكان اذا التبس عليه الفهم يقول : وللشيخ هنا كلام
لا يجوز اعتقاده على ظاهره والله أعلم بمراد الشيخ منه ، فلا يجرح الشيخ
ولا يسيء به ظنا •

والسادة الصوفية ، حسدهم على مر الأزمان ، المسلمون وغير
المسلمين لأن كل ذى نعمة محسود ولا نعمة فوق حسن الصلة بالله تعالى •

محسدون على ما كان من نعم
لا ينزع الله عنهم ماله حسدوا

والحسد ، ونعوذ بالله منه ، داء قديم ، سنه ابليس اللعين، حين حسد سيدنا آدم عليه السلام على ما آتاه الله من فضله ، فأبى أن يسجد له ، ويقول سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، فى وصاياه :

« لا تكثر بحسادك ، فقد قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (قل أعوذ برب الفلق) حتى قال له (ومن شر حاسد اذا حسد) فكأنه عز وجل يقول له : سلنى ان أكفيك شر حسادك ولا تسألنى أن أقطعهم عنك ، فان الحسد مع النعم ، ولا بد من نعمة عليك » •

ويبين لنا سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ان الأولياء هم صفوة المؤمنين والله يجمعهم على محبته ، ويجمع بهم أهل مودته على طاعته وهم يتعاونون فى الدرجات ، فمنهم الأولياء ، ومنهم الصديقون ، وغايات الأولياء بداية الصديقين ، كما يبين لنا أنهم انما يبلغون الولاية والصديقية بحسن متابعتهم لحبيينا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو يقول ، فيما أورده عنه الصديق العلامة التقى النقى ، الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه القيم أبو الحسن الشاذلى واصفا المخلصين من المؤمنين :

رجال جبلهم على حسن عبوديته وأخلصهم لأخلاص توحيد ربوبيته . واتباع شريعته ، فيما متع اسرارهم بأنوار حضرته ، وأمد أرواحهم بمعانى المعارف ، وخصائص عنايته وأجال عقولهم فى عظمته ، وزكى نفوسهم فأخرجها من ظلمة الجهل ، وهداهم بنجوم العلم وشمس معرفته ، وأيد عقائدهم ببرهان كتابه وسنته ، ومحا عزائمهم بتحقيق غلبة مشيئته ، وطوى ارادتهم بتيقن وقفها على ارادته ، وزينهم بزينة الزهد ، وحلية التوكل ، وشرف الورع ، ونور العلم ، وضياء المعرفة ، وألهمهم لفضله وطوله ، وتولاهم فأغناهم به عن غيره •

« وجعل منهم مفاتيح قلوب الورى ، وينايع الحكمة الكبرى . يتلقونها شرعا ، ويلقونها لأهلها سرا وجهرا ، ومنهم من سترته الأقدار ، وحجبه عن الأغيار ، لينفرد بالتمكن فى حقيقة الأسرار ، تعرف كلا بسيماهم باطنهم مع الحق ، وظاهرهم مع الخلق ، فهم هم فى الوجود .

يوصف الغناء ظاهرين ، صفوا وافترقوا فى سيرهم سننا ، ظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى ، يتخلقون بأخلاق نبيهم صلى الله عليه وسلم كما قال العلى الأعلى (ووجدك عائلا فاغنى) •

« أفترأه أغناه بالمال ؟ كلا وقد شد الحجر على بطنه ، وأطعم الجيش من صاع ، وخرج من مكة على قدميه صلى الله عليه وسلم ، وركب فوق البراق ، وعرج به الى السماء العلى الى سدره المنتهى ، وزأى ما رأى ، ما كذب الفؤاد ما رأى •

« فانظر الى حال الغنى فى الوصفين ، واشهد شرف أوصافه فى الحالين ، فان قلت بشر ، قلت نعم لا كالبشر ، كما تقول فى الياقوت حجر لا كالحجر •

وفى العباد نبى ورسول يدعو بالحق الى الحق ، فأعطى الأولياء منه ميراثا من النبيين بين الخلق ، اذ هم قوم أخذوا فى التأسى بجد واثيان ، واعتقدوا قول كان الله ولا شئ معه ، وهو الآن على ما هو عليه كائن ، وأقاموا فى مقام التوحيد ، على قدم التجريد من حظوظ النفس ، وملاحظة الحظوظ ، واقتداء بالسلف رضى الله عنهم •

هذا قصد القوم ، وأصل فى الاخلاص والتخصيص ، فيما لو نظرت الى حقيقة ذلهم وافتقارهم الذى هو عين العز والغنى بمولاهم اشتدت تحقق حالهم الا على ولى فى نهايته ، أو صديق ولو فى بدايته لأن غايات الأولياء بداية الصديقين :

فخذ السر جهرا اليك
واحبس عليه بكتلتا يديك

ويبين لنا كذلك رضى الله عنه ان الطريق الى الله يسلكها العبد بأربعة أشياء ، ويقول من حازها فهو من الصديقين المحققين ، ومن حاز منها ثلاثا فهو من الأولياء المقربين ، ومن حاز منها اثنتين فهو من الشهداء الموقنين ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله الصالحين • وبين هذه الأربعة قتال رضى الله عنه :

أولها - الذكر ، وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور •

وثانيها - التفكير ، وبساطه الصبر ، وثمرته العلم •

وثالثها - الفقر (أى مما سوى الله والغنى بالله) وبساطه الشكر
وثمرته المزيد منه •

ورابعها - الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها (أى شهوات الدنيا
وأهل الشهوات) وثمرته الوصل بالمحبوب •

ويقول أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، طيب الله ثراه،
فى وصف عباد الله هؤلاء ، فيما نقلنا عنه من الهامه القورى :
هم الجواهر طبعاً لا يغيرهم مر الزمان وهم من أهله الدرر
ان يشبعوا حمدوا أو أفقروا صبروا أو يحزنوا كنموا أو يوهبوا شكروا
ملائك الله ترعاهم وتتبعهم والفضل يحضر فيهم أينما حضروا
من أمهم كان فضل الله غامره وحيث منزلهم يستنزل المطر
أزكى القلوب وأسماءها وأشرفها من بالهداية والايمان يأتزر
أضالعى شاهدات أنها اتقدت لكن كنتم فلم يظهر لها شرر
والعاشقون لهم فى الحب أن صبروا روض من العز لم يذبل له ثمر
مياحه الذكر والتقوى منابه والعلم والدين والآيات والعبر
خل المعارف للعشاق تقطفها ان كنت منهم فسروا سهر كما سهروا
ويقول رضى الله عنه فى كلام رائع طويل :

يا راضيا بالحب فى ربه لقيت كل الخير فى إقربه
احفظ عليك الدين مهما تكن يحفظك من جهل ومن ربه
هذا كتاب الله باب الهدى أنواره تهدى الى رحبه
من طهر النفس بآياته يكشف رب العرش من كربه
من يجعل الشرع له منهجا أخرج كل الشك من قلبه
دع ما بقول الناس من علمهم ما دمت تلقى العلم من سيبه

بحر التجلى كله حكمة كم تسكر الأرواح من عذبه
علمنا المختار خير الورى أن تقطع العمر على بابه
ومن فضل الله على هذه الأمة المحمدية ، انها تستجيب للأميرين
بالمعروف والناهين عن المنكر ، ولا عجب فهي خير أمة أخرجت للناس ؛
ولقد اتصل بى بطريق مجلة منبر الاسلام الغراء ، قراء أفاضل ممن يتابعون
هذه السلسلة ، الصوفية فى الهامهم ، وتأخينا فى الله تعالى وتعاوننا فى
طاعته سبحانه ، وهو ما شجعتنى على الاسترسال فيها ، مهما كلفنى
الجهد •

وانى ناقل للسادة القراء ، كتابا طريفا ، جاءنى من الأخ المفضل
السيد محمد محمد البلقينى • وقد طلب الى فيه ان اعاونه فى سلوك
طريق التصوف وقد فعلت ، فسعدت بصحبته فى طريق الله ، طريق الخير
والسعادة الحققة — قال فيه حفظه الله :

سيدى الأستاذ حسن كامل الملطوى •

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

منذ نحو عام قرأت لكم عن (الصوفية فى الهامهم) ومنذ ذلك اليوم
وأنا أتابع هذه الحلقات النورانية ، كما أسعدنى الحظ بقراءة كتاب
منهاج الصوفية ، كنت لم أتمه بعد ، وكذلك كتابكم عن الامام الحسين
رضى الله عنه •

وفى كل مرة اقرأ لكم ، اشعر بهزة نفسية ، ويقظة روحية ، تصل
الى حد الانفعال المتدفق ، لكن سرعان ما تنطفئ فى تيار الحياة المتقلب
بين مطالب العيش ووساوس النفس •

وكان لزاما أن أسعى الى الطريق ، طريق النور والهدى والسكينة ،
والحق والحقيقة ، طريق الأمل الالهى ، الذى يحقق للانسان انسانيته
وخلافته ، وتكررت المحاولات ، وأخيرا عزمتم ان اكتب اليك •

وكنت قد ذكرتكم يوما عند صديقى الاستاذ صالح أحمد صالح
المحامى ، فأخبرنى ان سيادتكم تشغل منصب وكيل وزارة الخزانة (كان

ذلك قبل احوالى للمعاش) وان جلساتكم فى مصر الجديدة (انى أسكن مدينة الاوقاف) حافلة بالمريدين طلاب العلم والحقيقة ، فخشيت أن تكون هذه الصوفية استكمالا لزينة النفس أو استجماعا للثناء (أعجبتنى هذه الصراحة ، كما أعجبنى للتدقيق فى اختيار الرائد المتصوف) •

حتى طلع علينا مقالكم الاخير فى عدد جمادى الأول ، فكان مكاشفة صريحة نابغة من قلب كبير متعلق بالآخرة ناظر الى مولاه (بينت فى ذلك المقال ان درجات الدنيا وان علت لا تغنى عن درجات الآخرة ، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية) وكان هذا المقال ، ردا بليغا على كل حديث خفى ، ودعوة خالصة للراغبين الى المسير •

سئمت التردد اذبارا واقبالا وتعبت من توالى الهبوط والصعود ، وأخشى فوات الأوان ، اشارة منكم قد تهدينى الى طريق الحرية والسعادة والرضوان ، وقد تكون ايذانا للانطلاق فى أسعد مسيرة الى أعظم هدف فما أتمس القاعدين • ان مثلك لا يمكن أن يرضن على طالب أو يخيب رجاء ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •

اللهم اكتبنا فى أولى الالباب ، الذين قلت فى وصفهم (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) آمين يارب العالمين •

رقائق الصوفية فى التوحيد

— ٣٤ —

« باسم ربى احبيك بالسلام سلام الروح الخالية من الخيال ، ومن الحيلة والأحوال ، الا من الله الواحد ذى الجلال ، سلام من عبدالسلام ، عبد يفخر ويزيد تيتها وعلوا بانه عبد الله ، الواحد ، الأحد ، الفرد الصمد ، هنيئا له ، لأنه خلقه الله . »

« أسألك يا رب حيث خلقتنى من عبيدك ، منتسبا اليك ، أن تجعلنى من فريق الجنة ، وما أطلبها الا لأنها مكان قربى منك ، ولا تجعلنى من فريق السعير ، لأنها تبعدننى عنك ، وان كان قدرك قد سبق ، ولكنى أسألك اللطف فيه ، انت المسيطر ولك حضرة الاطلاق تفعل ما تشاء ، سبحانك لا اله غيرك ، ولا معبود سواك ، يا حى ، يا قيوم » .

هذه بداية رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، كرمه الله الى تلميذه الصالح التقى النقى الصديق السيد سالم جمعة ، زاده الله فضلا ونعمة ، وهى كما يرى القارىء العزيز سطور من نور ، دلت على توحيد الصوفية الخالص من الأكدار والاغبار ، ومن دعوى الحلول والاتحاد الذى ينسب للصوفية حسدا أو سوء فهم من خصوم التصوف ، وحاشا ان يتلوث توحيد السادة الصوفية ، وقد اعتصموا بالكتاب والسنة والجماعة ، وهم الذين تأخذ عنهم فى هذه المقالات ، أما غيرهم من الضالين المضلين ، فلا شأن لنا بهم ، مهما ادعوا انهم صوفية ، وهل ذهب صرف يساويه بهرج ؟ .

واليكم تفسير ما يقول سيدى الشيخ ، لا من كلامى ، وانما من كلام أئمة التصوف ، الذنن خلا توحيدهم من الشوائب والأحوال ، وصفا فلم يجعل المخلوق متصفا بصفات ذات الحق سبحانه وتعالى ، وأين العبد

من ربه ، وأين المخلوق من خالقه ، وأين الحادث من القديم ، وأين الفانى من الباقي الذى يبقى بعد فناء خلقه ، فما هو ذا سيدى الامام القشيرى - رضى الله عنه - يعلمنا كيف يكون توحيد المؤمن خالصا فيقول فى مناسبة شرحة لمعنى اسمه سبحانه الباقي الوارث :

« مما يجب أن تشتد به العناية أن يتحقق العبد أن المخلوق لا يجوز أن يكون متصفا بصفات ذات الحق سبحانه ، فلا يجوز أن يكون بعلم الله علما ، ولا يجوز أن يكون العبد بقدرة الله قادرا ، وأن يكون سميعا وبصيرا بسمعه وبصره تعالى ، ولا أن يكون حيا بحياته ولا باقيا ببقائه تعالى ، لأن الصفة القديمة لا يجوز قيامها بالذات الحادثة .

« وحفظ هذا الباب أصل التوحيد ، فان كثيرا ممن لا تحصيل له ولا تيقن ، زعموا أن العبد يصير باقيا بقاء الحق ، وأن يكون سميعا بسمعه ، بصيرا ببصره ، حيا بحياته ، وهذا خروج عن الدين وانسلاخ عن الاسلام بالكلية .

« وهذه البدعة توازى قول الحلولية حيث جوزوا على ذات الحق سبحانه الحلول فى الأشخاص المحدثه ، كذلك هؤلاء جوزوا قيام الصفة القديمة بالذات المحدثه ، وربما تعلقوا فى نصره هذه المقالة الشنيعة بما روى فى الخبر عن الله تعالى اذ قال : « فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا فبى يسمع وبى يبصر » .

« ولا احتجاج لهم فى ظاهره ، لأنه ليس فيه أنه يسمع بسمعى ويبصر ببصرى ، بل قال بى يسمع وبى يبصر .

« فالاتفاق ان ذاته لا يجوز أن تكون لأحد سمعا ولا بصرا ، فاذا تركوا الظاهر لم يبق الا التأويل .

« فالواجب الاشتغال بالتأويل الصحيح دون الباطل ، وانما حملنا على المبالغة فى شرح هذا الفصل ما رأينا من الواجب علينا فى نصره الدين ونحن فى زمان يناظر فيه من ليس له تحقيق ولا تحصيل .

« قال النصراباذى رحمه الله تعالى : الحق باق ببقائه والعبد باق بابقائه .

« وأما الوارث فهو الباقي بعد فناء الخلق ، يفنى الأولين والآخريين من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين ثم يقول (لمن الملك اليوم) ويحيب نفسه بقوله (لله الواحد القهار) •

وفى مناسبة شرح اسمه تعالى : ذو الجلال والاكرام ، قال الامام القشيري رضى الله عنه :

« قيل الاجلال أن ترى مادونه بعين الاقلال ، وجلاله وكبريائه وعلوه وبهاؤه ، سبحانه ، كونه بالوصف الذى يحق له العز •

« أما الاكرام فقريب من معنى الانعام الا أنه أخص ، لأنه ينعم على من لا يقال أكرمه ، ولكن لا يكرم الا من يقال أنعم عليه •

« أما ترى كيف اكرم موسى عليه السلام ، حيث سلمته اليه أمه ، كيف رباه فى حجر عدوه ، وكيف صرف عنه كيده ، أسلمته الى البحر ، متوكلة على الله بالغداة ، فرده اليها قبل الظهر •

« وإذا سلمت اليه ولدها فرباه فى حجر عدوه ، وصرف عنه كيده ، فمن سلم اليه قلبه ، حفظه ، كما فى الخبر : القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، أى بين نعمتين من نعمه ، ترى أنه يضيعه ولا يحفظه حاشا لله •

أما فى مناسبة شرحه لاسمه تعالى السلام فقد قال الامام القشيري رضى الله عنه :

« السلام اسم من اسمائه تعالى ورد به نص القرآن ، واختلفوا فى معناه ، فمنهم من قال انه ذو السلام ، والسلام ، بمعنى السلامة ، كالرضاع بمعنى الرضاعة ، ومعناه يعود الى تنزه الرب سبحانه عن الآفات ، وتقديسه عن سمات المخلوقات ، وهو بمعنى القدوس •

« وقيل معناه ذو السلامة أى منه السلامة لعباده ، ولهذا قيل ان معنى السلام انه سلم المؤمنين من عذابه •

« وقيل انه السلام أى ذو السلام على أوليائه ، قال الله تعالى :

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) •

« وإذا قلنا انه ذو السلام أى السلامة من الآفات كان من صفات ذاته ، وإذا قلنا ان المؤمنين يسلمون من عذابه كان من صفات فعله •

« ومن آداب من عرف انه السلام ، ان يسلم منه المؤمنون ، كما ورد فى الخبر عن سيد البشر صلوات الله عليه أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده •

وحكى عن بعضهم انه رأى انسانا يغتاب رجلا فقال هل غزوت العام الروم ؟ فقال لا ، قال وكيف تسلم منك الكفار ولا يسلم منك أخوك المسلم • وفى مناسبة قوله تعالى (ليس كمثله شئ) قال الامام القشيري رضى الله عنه :

« التشبيه يكون باحد شيئين ، اما بالكاف ، واما بالمثل ، فجمع بين حرفى التشبيه ، ونفى بهما عن نفسه التشبيه ، فكأنه قال ليس مثله شئ ، وليس كهو شئ وهذا غاية نفى التشبيه •

« ولما كان المعبود سبحانه ، لا مثيل له ، حق للعابدين الا يذروا مقدورا فيه الا بذأوه ، ولا يغادروا ميسورا فى طلبه الا تحملوه ، فحق للدموع أن تنقطر على فوات قربته ، كما حق للقلوب أن تتعطر بنسيم محبته ، وكما حق للارواح أن تنفطر من خوف فرقته ، وانشدوا :

سهر العيون لغير وجهك باطلا
وبكاؤهن لغير هجرك ضائع

وقال الامام كذلك فى ضعف الانسان :

« قال تعالى : (أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل وام يك شيئا) •

وقال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) ذكره سبحانه وتعالى نفسه لئلا يعجب بحالته ، وجرده من كل فضيلة ، ولهذا قال المشايخ عرفهم مقدارهم لئلا يتعدوا أطوارهم •

وقال الله تعالى (والله أخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا)
ثم قال تعالى (الرحمن • علم القرآن) ثم قال (وما بكم من نعمة
فمن الله) •

جرك أولاً وعراك ، ثم أخبرك بما عرفك من العلوم والفهوم وأعطاك ،
ثم ذكرك عظيم ما انعم به عليك وأولاك •

وفى مناسبة شرحه لاسمه تعالى الصمد ، قال الامام رضى الله عنه :
« بمعنى انه لا يطعم ، ومن علم ذلك علم انه يطعم ؛ قال تعالى (وهو
يطعم ولا يطعم) فتتوجه رعايته عند ما ربه اليه ويصدق توكله فى جميع
حالاته عليه •

وفى مناسبة شرحه لاسمه تعالى الحى القيوم ، قال الامام رضى
الله عنه :

« هما اسمان من أسمائه تعالى قال الله سبحانه (الله لا اله الا هو
الحى القيوم) فأما الحى فهو الذى له حياة ، وأما القيوم فهو المبالغة من
القائم بالأمور ، يقال فلان قائم بهذا الأمر وقيم وقيام ، وقيوم فى وصفه
تعالى ، قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحى القيوم ، ومعنى القيوم فى
وصفه تعالى انه المدبر والمتولى لجميع الأمور التى تجرى فى العالم قال
الله تعالى (أقم هو قائم على كل نفس بما كسبت) •

« واذا علم العبد انه سبحانه حى ، وعلم انه تعالى حى لا يموت
وقديم لا يجوز عليه العدم ، صح توكله عليه ، ولهذا قال تعالى (وتوكل
على الحى الذى لا يموت) •

« فمن علم أنه سبحانه حى أبدا ، علم أن نفسه لا بد من فنائها وهلاكها
وان طالت مدة بقائها وملكها ، وقيل الموت جسر يوصل الحبيب الى
الحبيب ، وانشدوا :

أنت تبقى والفناء لنا
فاذا أفنيتنا فكن

« ومن عرف انه القيوم بالأمور عاش براحة التفويض فلم يجعل في قلبه للدنيا كبير قيمة ، واستراح من كد التدبير . »

وقال الامام في مناسبة اسمه تعالى الواحد الأحد ، هما اسمان من أسمائه تعالى ، قال سبحانه (والهكم اله واحد) وقال سبحانه (قل هو الله أحد) فأما الواحد فهو الذي لا قسم له ولا استثناء منه ، أما غيره فاذا وصف بأنه واحد فعلى المجاز ، كما يقال دار واحدة ودرهم واحد ، واما الفصل بين الواحد والأحد فمن الناس من لم يفرق بينهما ، ومنهم من فرق فقال الواحد اسم لفتح العدد ، لأنه يقال واحد واثنان ، واحد اسم ينفي ما يذكر معه من العدد .

وتقول قد جاءني واحد ، ولا يقال قد جاءني أحد ، ويقال لم يأت أحد بمعنى انه لم يأت واحد ولا اثنان ولا ما فوقه ، وقيل الأحد انما يذكر في وصفه تعالى على جهة التخصيص ، يقال هو الله أحد ولا يقال رجل أحد ، ويقال في وصف غيره وحيد وواحد ، ولا يقال ذلك في وصفه تعالى لعدم التوقيت ، وقال الجنيد رضى الله عنه : التوحيد افراد يقدم عن الحدث ، وقيل التوحيد أن تعلم ان كل ما يخطر ببالك مما ترتقى اليه كيفية ، أو تنتهي اليه كمية ، أو تنتمي اليه ماهية ، أو تليق بوصفه أيئية فالله جل جلاله بخلافه .

ولا شك أن ما نقلته للقارئ الفاضل من تفسير الامام القشيري رضى الله عنه للاسماء الحسنی التي وردت في الفقرة الاولى من كلام سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، يزوده بمعلومات طريفة ، هي الدر بل أعلى والشهد بل أحلى ، لأنها صادرة عن قلوب نقية ، وسرائر نقية ، يعلمها الله ويلهمها ما شاء من كلماته التي لا تنفذ ، ويشير اليها أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه في الهامه الذى نقلناه عنه :

كل شئ ينتهى فى موته	غير سر الله عندى ما نفذ
لى خليل كلما أملتة	جاءنى الفيض اذا سح المدد
كلما قد زاغ قلبى قال لى	يا معنى قل هو الله أحد

وقال أيضا الهاما لوقته :

فقد ادى قد أبعدت عن مشهد الورى
وقد شاهدت روى جلالك وارتقت
وأعدمتنى فى الحب علمى بقدره
تعشقت نور الله وهو بصيرتى
وتوجت بالقرآن نفسى عقيدة
وان شرب الناس الطلا وتصيبوا
فظهر فى نجاواك من ظلمة الرجس
تجردت عن معنای فى عالم الحس
فليس غرامى فيه يدرك عن قيس
وقد وضح البرهان من آية الكرسي
أصون به نفسى عن الزيغ والدس
فسنة خير الخلق فى شربها كاسى

أما الفقرة الثانية من كلام سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى
الله عنه فيشير فيها الى أنه انتسب بالعبودية لله تعالى ، ويسأله سؤال
العبد لسيدته ، والفقرير للغنى عنه ، أن يجعله من فريق الجنة ، لأنها مكان
المقربين ، وليس قربهم قرب مكان ، بل قرب أنس ومحبة ، وصفوة ونشوة
باصطفاء من الله ورحمة ، ورضوان من الله أكبر ، واستعاذ رضى الله عنه
من النار ، لأنها مكان المبعدين المطرودين من رحمته ، المعذنين بغضبه ،
المخزيين بسخطه ، اعاذنا الله منها بمنه وكرمه •

وإذا ذاق المؤمن العبودية لله ، قدس الربوبية ، واعطى لمولاه حقه
من الهية والاجلال ، وخلت روحه من الخيال والحيلة والأحوال ، أى
كان خالص التوحيد ، منكسر القلب ، وكان الله عنده ، لأنه تعالى يقول
فى الحديث القدسى : (انا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى) ، ألتست تراه
تعالى يقول لأهل بدر (ولقد نصركم الله ببدر وأتتم أذلة) تقربوا الى الله
بالمسكنة ، ونظر الله تعالى الى قلوبهم المنكسرة ، فرضى عنهم ، وأيدهم
بنصره ، فأنزل ملائكة قاتلت معهم ، حتى تمت لهم الغلبة على أعدائهم •

ويفسر العالم العارف الحجة سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى
رضى الله عنه ، الحديث القدسى المتقدم فيقول فى تفسير المنكسرة قلوبهم
من أجلى أى الذين كسرت ارادتهم البشرية ، وأزيلت شهواتهم الطبيعية ،
واستؤنفت لهم ارادات ربانية ، فهم دائما تحت قهر ارادتى ، طوعا منهم ،
لا يتجبر لقلبهم كسر أبدا حتى يلقونى ، ويقول سيدى الامام عبد القادر

الجيلاني رضي الله عنه ، انكسرت قلوبهم أى على الكشف منهم والشهود
والا فهو تعالى عند كل عبد انكسر قلبه أم لم ينكسر .

ويستطرد الامام الشعراني رضي الله عنه فيقول : فعليك يا أخى
بالقناعة والاشتغال بالله تعالى ، عن نعيم الدارين ، فانه هو النعيم المطلوب
للاكاير الباقي ، كما قال تعالى (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا
منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) .

ويحدثنا سيدى الامام الشعراني رضي الله عنه ، عما وقع له فى
صغره مع والده رضي الله عنه ، فقد قال له : ما ثم شيء أبرزه الله تعالى
الى هذا الوجود الا وفيه حكمة بالغة ، وأمره يوما بالوقوف على حداد
يقوم الرماح على النار ، قال فوقفت ، فقال لى ما رأيت ، فقلت ما رأيت
شيئا ، فقال يا ولدى أما تنظر انه لا يعرض على النار الا للمعوج ، وأما
المستقيم فلا يعرضه على النار ، قال فاخذت من ذلك العبرة .

ويعلمنا سيدى الامام الشعراني رضي الله عنه ، العبادة الخالصة
لوجهه تعالى فيقول انه سمع شيخه سيدى عليا الخواص يقول : من اقبح
الذنوب عند الله تعالى القيام بين يديه فى الاسحار بالتملق والخداع على
نية انه تعالى يعطيه مقاما فوق ما هو فيه ، وقد قال تعالى (واعبدوا الله
ولا تشركوا به شيئا) فذكر تعالى شيئا ، فشمل كل شيء من جميع
المخلوقات ، حتى الارادة والهوى والشهوة ، فانها من خلقه تعالى ييقين ،
فلا يريد ولا يهوى شيئا دون الله تعالى فيكون شركا .

ويقول سيدى الامام الشعراني كذلك : مما انعم الله به على ، عدم
اشتغالى بالنعمة عن المنعم سبحانه وتعالى ، وذلك من أكبر نعم الله عز
وجل ، فقل من لا تشغله النعمة عن المنعم ، والمعين لى على ذلك شهودى
عدم ملكى لما خولنى الله تعالى فيه من الأطعمة والملابس ، انما أنا عبد
أكل من مال سيدى ، واسكن فى داره .

ويقول أيضا ، رضي الله عنه : وفى كلام سيدى عبد القادر الجيلاني
رضي الله عنه ، احذر أن تشتغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته ، فيحجبك
بذلك عنه دنيا وأخرى ، وربما سلبك ذلك المال ، وافقرك وغيرك ، عقوبة

لك ، واعلم انك ان اشتغلت بطاعته تعالى عن ذلك المال فهو موهبة من الله تعالى لك ، وليس هو من المال المذموم ، ونقل سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه ، عن سيدي أبو الحسين الشاذلي ، رضي الله عنه ، أنه قال : كنت في بدايتي أعبد الله تعالى أنا وصاحب لي ، وأقول غدا يفتح علينا ، بعد غد يفتح علينا ، فمكثنا على ذلك الحال زمانا ونحن في تعب عظيم .

فدخل علينا رجل مهيب المنظر ، فقلنا من أنت فقال عبد الملك ، فعلمنا انه من أولياء الله تعالى ، فقلنا له ما حاجتك ، فقال جئت أنصحكما لله تعالى ، أن تعبدا الله تعالى لله تعالى ، ولا تقولوا غدا يفتح علينا ، بعد غد يفتح علينا .

قال فكشف لنا عن أمر كنا عنه غافلين ، فعبدنا الله الله ، ففتح علينا في ثاني يوم .

ويقول سيدي الشعراني تعقيبا على الكلام المتقدم ، فعلم ان من اتخذ عباداته وسائل لتحقيق غرض من الاغراض طالت عليه الطريق ، وربما رجع من أثنائها ، كما هو حال غالب المريدين في هذا الزمان .
ويذكرني هذا الكلام المفيد ، بما قاله في الهامه الفوري أستاذي الشيخ على عقل طيب الله ثراه :

لا تذكر الباري لقصد ولاية

أو أن تكون على السنا لا تنطق

أذكر لوجه الله جل جلاله

من رام غير جنابه لم يشرف

ليس التصوف بالكلام وإنما

صدق الفعال قرارة المتصوف

اللهم اجعلنا من عبادك المخلصين الذين أغيتهم بك عن غيرك وقلت فيهم (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون) آمين .

التوحيد الخالص

— ٣٥ —

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، بحر الجود ، الذى شرب من شرعه قوم ، وقفوا على ساحل بحره الزاخر ، فلم يخوضوه خوف الفرق ، ولكنهم وقفوا للشرب منه عند الشرق ، فكل من عطش واشتد به العطش ، شرب من بحر الرسول فارتوى ، وكل من ارتوى أدرك بأثر الرى أنه ضعيف ذليل ، ولا يمكنه أن يشرب البحر — وهو الشرغ — فيبوء بعجزه الى الله ، ويقف عند حده عاجزا أمام الله ، خاليا فى التوحيد من كل دليل عقلى أو نقلى ، متبرئا الى الله تعالى من نسبة العلم والدليل .

جاءت السطور المتقدمة فى رسالة بعث بها من القاهرة سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — نور الله ضريحه — الى تلميذه الصالح المبارك ، الصديق السيد سالم جمعة — زاده الله فضلا وتوفيقا — .

وقد فسر الشيخ — رضى الله عنه — بمقصوده من خوف الفرق فى آخر عبارته ، تفسيراً مجملاً ، كما يرى القارئ العزيز ، وقد وجهنا فيه الى ما يجب علينا نحن المؤمنين ، من اجتناب البحث فى ذات الله العلية ، وأسراره القدسية ، التى لا تدركها العقول المحدودة ، لأنه تعالى فوق كل مقول ، والعجز عن الادراك ادراك — كما يقولون — ويرر عجزنا عن ادراك كنهه — سبحانه — قوله الكريم : « ليس كمثله شئ » ، وبهذا نقدر لله فضله فى ايماننا به — جل جلاله — وفى توحيده توحيداً خالصاً من الشوائب ، عطاء منه — سبحانه — فى سوابق أزله ، وما أبدع ما يقوله سيدنا أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى — وليس معنى ذلك انه ينفى أثر مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بل انه يبرز فى معرض التوحيد ، انه عرف ربه بتقديره

— سبحانه — فاستجاب للدعوة المحمدية ولولما قدره الله من الاسلام ما تم له اسلام ولا عرفان .. « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » فمن شاء الله له الهدى ، أستمع الدعوتك ، واهتدى بهديك « وانك لتهدى الى صراط مستقيم » •

وقد اعتمد الفلاسفة فى البحث عن الحقيقة الأزلية ، على العقل المجرد فلم يصلوا الى الحقيقة ، وضلوا السبيل ، وقد جاراهم أهل الكلام ، فلم يظفروا بباطل ، وعكروا بكلامهم ، صفاء التوحيد الفطرى ، الخالى من التعقيدات العقلية ، الذى التزمه أوائل المسلمين وأعلامهم ، ممن يقتدى بهم على مر الأجيال ، واليك ما ينصحنا به الامام الصوفى الكبير ، عمرو بن عثمان المكي « المتوفى سنة ٢٩١ هـ » •

« اعلم ان كل ما توهمه قلبك أو سنج فى مجارى فكرك ، أو خطر لك فى معارضات قلبك ، من حسن أو بهاء ، أو أنس أو ضياء ، أو جمال أو قبح ، أو نور ، أو شبح ، أو شخص أو خيال ، فالله تعالى بعيد من ذلك كله ، بل هو أعظم وأجل وأكبر ، ألا تسمع الى قوله تعالى « ايس كمشله شئ » والى قوله « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » •

ويقول الامام سهل التستري (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) :

« ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض ، الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وزوجه وديناه وآخرته ، ويقول أيضا « أدنى الأدب أن تقف عند الجهل وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة » •

وهو بهذا يوجهنا الى ترك الجدل الذى خاضه أهل الكلام فيما يتصل بذات الله أو قضائه وقدره ، ولا طائل تحته ، والاقبال على العمل ارضاء لله تعالى ، وفق ما رسمه الله فى كتابه الكريم ، وما بينه فى سنيته مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولذلك يقول الامام سهل — رضى الله عنه — :

أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام والتوبة ، وأداء الحقوق •

وما أروغ ما ينصحنا به رضى الله عنه فى قوله : أعمال البر يعملها
البار والمفاجر ، ولا يجتنب المعاصى إلا صديق .. وفى قوله « شكر العلم
العمل ، وشكر العمل زيادة العلم » .

وقد نقل سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى - رضى الله عنه -
كلما نفيسا عن شيخه سيدى على الخواص .. جاء فيه :

« لولا اعلام الأنبياء لنا بما غاب عنا من أحوال البرزخ والآخرة ،
ما علمنا ذلك ولا كانت عقولنا تستقل بدركه من حيث نظرنا ، لأن أمور
الموت وما بعده من وراء طور العقول ، وقد تتابعت الرسل كلهم على
اختلاف الأحوال والأزمان يصدق كل رسول صاحبه ، وما اختلفوا قط
فى الأصول التى استندوا إليها » .

« ولو أن العقول استقلت بأمور سعادتها ، لكان وجود الرسل عبثا ،
فإن كل انسان يجهل بالضرورة مآله وعاقبته ، والى أين ينتقل ، ويجهل
سبب سعادته أن سعد ، أو شقاوته أن شقى ، كل ذلك لجهله بعلم الله فيه ،
وما يريد به ، ولماذا خلقه فهو مفتقر بالضرورة الى التعريف الالهى
بذلك » .

أقول وإذا كانت العقول تجهل أمر كثير من المخلوقات المحدثه التى
تغيب عن الأنظار .. فكيف بها تطمع ، وهى محدودة الأفق ، أن تبحث
فى أسرار الله القديم الذى خلقها وركبها بقدرته فى ذواتها ، وأقرب
المخلوقات التى تغيب عن نظر الانسان الروح التى بين جنبيه ، وهى محدثة
مخلوقة باجماع أهل السنة .. وقد قطع الله أطماع الباحثين فى سرها
الخفى .. فقال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي
وما أوتيتم من العلم الا قليلا » . وهو ما يفيد أن الروح من عالم الأمر
لا من عالم التوالد : « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

ويقول سيدى العالم العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى
(والد شيخى سيدى عبد السلام الحلوانى) رضى الله عنهما - فى
كتابه « وسائل الرحمات » .

« ومن الإشارات اللطيفة قول أبي بكر الرازي : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، فليس بحديث كما ذكره الحفاظ ، وقد غلط فيه كثير من الأفاضل فأورده حديثاً مرفوعاً ولا أصل لذلك . »

« وموضع الإشارة منه ، ما أشار اليه بعض الصوفية فيه ، اذ قال : معناه من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى ، ومن عرف نفسه بالذل عرف ربه بالعزة وهكذا . »
وقال بعضهم : بل معناه ان من عرف انتساب نفسه الى حضرة الربوبية بإشارة اتصالها بالعالم العلوى فقد عرف ربه ، ولأجل فخامة ذلك الانتساب نوه به رب العزة اذ قال « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » فأضاف الروح اليه تشريفاً وإشعاراً بأن له شأنًا ونسباً الى حضرته ، وقيل بأن معناه من تأمل حقيقتها عرف أن له ربا صانعا موجدا له ، واليه الإشارة بقوله « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام : قد ظهر لى من سر هذا الكلام ما يجب كشفه ، ويستحسن وصفه ، وهو أنه تعالى وضع هذه الروح الروحانية فى هذه الجثة الجسمانية ، لطيفة لاهوتية ، فى كثيفة ناسوتية ، دالة على وحدانيته وربانيته ، ووجه الدلالة من عشرة أوجه :
الأول : أن هذا الهيكل الانسانى ، لما كان مفتقرا الى مدبر ومحرك ، وهذه الروح مدبرة ومحركة ، علمنا أن هذا العالم لا بد له من مدبر ومحرك .

الثانى : لما كان مدبر الجسد واحداً وهو الروح ، علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى تقديره وتديره .

الثالث : لما كان هذا الجسد لا يتحرك الا بإرادة الروح وتحريكها له ، علمنا أن الله تعالى مدبر لما هو كائن ، لا يتحرك متحرك بخير أو شر الا بتقديره وإرادته .

الرابع : لما كان لا يتحرك فى الجسد شىء الا بعلم الروح وشعورها به ، فلا يخفى عليها من حركات البدن وسكناته شىء ، علمنا أنه لا يعزب عن علمه تعالى شىء فى الأرض ولا فى السماء .

الخامس : لما كان هذا الجسد لم يكن منه شيء أقرب الى الروح من شيء ، بل هو قريب الى كل شيء في الجسد ، علمنا أنه تعالى أقرب الى كل شيء ، وأن نسبة جميع العالم اليه في القرب والبعد سواء ، أى وان كان الروح في البدن والله تعالى ليس في العالم •

السادس : لما كان الروح موجودا قبل وجود الجسم ، علمنا انه تعالى موجود قبل كل شيء • وكذا بعد فناء خلقه فان الروح لا تزول •
السابع : لما كان الروح في الجسد لا تعلم له اينية ، علمنا انه تعالى منزّه عن الأينية ، بل الروح موجودة في كل الجسد لم يخل منها موضع منه ، فكذا الحق تعالى أى معكم أينما كنتم بلا اتصال ولا حلول تعالى الله عن ذلك •

الثامن : لما كان الروح في الجسد لا يعلم له كيفية علمنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية •

التاسع : لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر ولا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، علمنا أنه تعالى ليس كمثله شيء •

العاشر : لما كان الروح لا يحس ولا يمس ، علمنا أنه تعالى منزّه عن الحس واللمس •

ثم يقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى - رضى الله عنه - وهل النفس والروح شيء واحد ، قيل نعم ، وعليه جرى الأكثرون ، وصححه ابن القيم والسيوطى ، وصوبه ابن رشد من المالكية ، وبه جزم ابن السبكي وغيره ، وعليه فهما مترادفان على معنى اللطيفة الربانية التى بمفارقتها ينوت الانسان ، لا يتغايران الا فى التذكير والتأنيث ، فالنفس مؤنثة وقد تذكر على ارادة الروح ، والروح مذكر وقد يؤنث على ارادة النفس ، ومنه قول ذى الرمة ، وقد أمر أن يكتب على قبره فكتبوه :

يارب قد أسرفت نفسى وقد علمت

علما يقينيا لقد أحصيت آثارى

يا نازع الروح من جسدى اذا اجتضرت

وفارج الكرب اقدنى من النار

وما أبدع ما يقوله الإمام القشيري - رضى الله عنه - فى كتابه « شرح أسماء الله الحسنى » (مخطوط) وقد تفضل فأعارني أخى فى الله الأستاذ عبد المنعم الحلوانى - زاده الله فضلا - (وهو أكبر أبناء سيدى الشيخ) اذ يقول :

قال تعالى « أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » •

ذكرك عظيم ما أنعم به عليك وأولاك ، فمن أين لك العرفان والاسلام ، والايمان ، والطاعة والاحسان ، والاستدلال والبرهان ، لولا ما ألبسك من التوفيق ، وأخلص لك من التحقيق ، وأهلك له من التصديق قال سبحانه : « وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها » •

وما أروع تعقيبه - رضى الله عنه - على كلمة التقوى : لا اله الا الله ، فهو يقول :

« اعلم أن هذا القول وان كان ابتداءه النفى ، فالمراد به غاية الاثبات ونهاية التحقيق ، فان قول القائل لا أخ لى فتواك ، ولا معين لى غيرك ، أكد من قوله : أنت أخى ، وأنت معينى •

« وروى عنه - صلى الله عليه وسلم - : « من قال لا اله الا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة ، وروى فى الخبر : مفتاح الجنة لا اله الا الله » « وانما يكون العبد قائلًا فى الحقيقة لا اله الا الله ، اذا كان قائلًا بقلبه ، لأن الكلام المخلوق محله القلب ، وذلك معلوم من مذهب أهل الحق ، وكذلك من طريقة أهل اللغة ، قال الأخطل الشاعر :

ان الكلام لى الفؤاد وانما

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

« وانما يكون قائلًا لا اله الا الله بقلبه ، اذا كان عارفا بربه ، وكل الناس يحملون قوله - صلى الله عليه وسلم - من قال لا اله الا الله مخلصا ، على أنه مات على الاخلاص ، وأهل الاشارة قالوا اذا كان مخلصا فى مقامه ، كان داخلا فى الجنة فى حالته ، قال تعالى : « ولمن

خاف مقام ربه جنتان » .. قيل جنة معجلة وهى حلاوة الطاعات ، ولذاذة المناجاة والاستتناس بفنون المكاشفات ، وجنة مؤجلة هى فنون المشوبات ، وعلو الدرجات ، ولقد أحسن من قال : لا وحشة مع الله ، ولا راحة مع غير الله ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا راحة للمؤمن دون لقاء الله » .

ويقول سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى - رضى الله عنه - فى كتابه « لطائف المنن » ما خلاصته ان معرفة الله الثابتة هى التى لا تزلزلها الأدلة .. ويعبر عن ذلك بالوصول الى حضرة الله - عز وجل - ومعنى ذلك وصول العبد الى حضرة يشهد فيها ألا فاعل الا الله عز وجل ، ولا رازق الا الله تبارك وتعالى ، ولا محيى ولا مميت الا الله جل وعلا .. وهكذا ، ويغنى عن شهود الخلق والهوى ولا يشهد فى الكون الا أفعاله وخلقه وحده لا مشارك له فى ذلك ، فليس الوصول الى الله جل وعلا مثل الوصول الى خلقه ، كما قد يتوهمه أصحاب العقول الضعيفة المحجوبة « ليس كمثله شئ وهو السميع البصير » .

ثم يقول - رضى الله عنه - : فعلم أن كل من ادعى معرفة الله جل وعلا وزلزلته الأدلة ، فهو لم يشم من المعرفة رائحة ، لأن كل وقت يترك اعتقادا ويعتقد آخر ، والفرق بين معرفة أهل الله ، ومعرفة غيرهم أن جميع تعرفات أهل الله تعالى يرضى بها الله جل وعلا لأنها بتعريفه ، بخلاف تعرفات الأفكار ، لأن الأفكار لا تقدر أن ترقى عن الكون أبدا .. فافهم » .

أقول والذى أود أن أنبه اليه هو أن السادة الصوفية فى كلامهم المتقدم انما أرادوا أن يعلمونا انه لولا فضل الله ، وما بدأنا به من احسانه ما عرفناه ، فله الحمد والمنة على نعمة الايمان بوحديته ، وكلامهم هذا انما هو فى معرض التوحيد ، ولكنهم لا ينكرون الوسائط والأسباب ، وأخذ الخلف عن السلف ، فالسادة الصحابة أخذوا الدين عن مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخذ الأبناء عن آبائهم وعلمائهم جيلا بعد جيل ، فمن أراد الله أن يهديه شرح صدره للاسلام ، ونفع معه السبب ، ومن لم يرد الله له الاسلام ، لم ينفعه السبب ، وهذا يفسر لنا لماذا

آمن البعض وكفر البعض ، وليس لنا أن نخوض بجهل فى قضاء الله وقدره ،
فذلك من سره واختصاصه ، ونحن عبيد الله تعالى يفعل ما يريد •

وذلك الذى تقدم يجرنا الى أمرين : أولهما ألا نمن على الله بإيماننا
أو طاعاتنا ، لأنه لا ينتفع من إيماننا ولا من طاعاتنا بشيء « ولكن الله حبيب
اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان
أولئك هم الراشدون • فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » •

الثانى : أن نسأل الله على الدوام أن يحفظ إيماننا ولا يسلبه منا ،
ولا يقول قائل إن الله كريم اذا أعطى لا يسلب ، فهذا حق اذا جزمنا أن
الايمان عطية ، ولكن قد يكون ودیعة وللمودع أن يسترد ودیعته ، ويقول
السادة الصوفية وهذا هو وجه الخوف المذیب للأكباد •

لكنى مع ذلك أحب أن يكون المؤمن حسن الظن بربه ، فيرجوه
بقدر خوفه منه ، فيكون مع ربه بين خوف ورجاء ، لأن الخوف والرجاء
للمؤمن كالجناحين للطائر لا يستطيع أن يطير الا بهما معا •

ولولا ذلك الفقه القلبى ، ما كان للسادة الصحابة المبشرين بالجنة
أن يخافوا ، ولكننا رأيناهم أشد الأمة خوفا ، وأعظمهم رجاء • • وانما
جاءهم الخوف من نظرهم الى أن الله تعالى له حضرة الاطلاق « يمحو الله
ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » •

وفى هذا بيان لصدر عبارة سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه
فى القوم الذين وقفوا على بحر الرسول الزاخر - صلى الله عليه وسلم -
فلم يخوضوه بخوف الغرق ، ولكنهم وقفوا للشرب منه عند الشرق •

ومعلوم أن مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشر وأنذر ،
فأخذنا عنه الرجاء كما أخذنا عنه الخوف ، وكان - صلى الله عليه وسلم -
شديد الرجاء كما كان شديد الخوف ، وأنت تعجب لخوفه ، مع أنه كان
معصوما بمصمة الله له من الصغائر والكبائر ، كما أن ربه بشره بمغفرة
ما تقدم من ذنبه وما تأخر - أى ان وقع منه ذنب فرضا - لكن خوفه
كان على قدر معرفته بربه ، وصلته به ، وهيبته له ، وتقديره لجلاله

— سبحانه وتعالى — فكيف بنا ، مع أحوالنا المعروفة ، كما أن رجاءه
— صلى الله عليه وسلم — كان على قدر معرفته بفضل ربه وواسع رحمته .
ويجمع شيخى وسيدى العارف الشيخ على عقل — رضى الله عنه —
بين الخوف والرجاء ، فى الهامه الفورى الذى تقلناه عنه فيقول :

يارب انت علمتى
لم تخف منى خافية
سقى يزيد وانما
آيات عفوك شافية

ويقول كذلك رضى الله عنه :

رضاء الفتى بالله يشرح صدره فلن يتأذى بالحوادث والخطب
إذا رابى ذنبى دعتنى محبتى اليه وما تشنى الذنوب عن الحب
فيارب ان زادت ذنوبى فانتى وثقت بأن الفضل أوسع من عيبى
فان كان ذنبى مبعدى عنك لحظة فافك غبار الذنوب بلا ريب
وان كان لى مما فعلت جريئة فحوضك لى طهرى وفضلك لى طيبى
وما لذتى الا التجائى لوجهكم فوجهكمو دون العوالم لى قطبى
ويحذرفا سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى — رضى الله عنه — من
الخوف المؤسس من رحمة الله فيقول :

قرأت ليلة من الليالى قل أعوذ برب الناس حتى ختمتها فليل لى :
شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك ينسبك أفعالك الحسنه ،
ويذكرك أفعالك السيئة ، ويقلل عندك ذات اليمين ، ويكثر عندك ذات
الشمال ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله ، الى سوء الظن بالله
ورسوله ، فاحذر هذا الباب .

وليتمتع القارئ الكريم بعد ذلك بما يقوله الامام القشيري رضى
الله عنه — فى شرحه لاسمائى تعالى : الأول والآخى والظاهر والباطن اذ
يقول :

« الأول اخبار عن قدمه ، والآخـر اخبار عن استحالة عدمه ، والظاهر اخبار عن قدرته ، والباطن اخبار عن علمه وحكمته . »

« وهو الأول باحسانه ، والآخـر بغفرانه ، والظاهر بنعمته ، والباطن برحمته ، وقيل هو الأول بحسن تعريفه ، اذ لولاه ولولا فضله ، ولولا ما بدأك به من احسانه لما عرفته . »

« وقيل الظاهر لقوم ، فلذلك وجدوه ، والباطن عن قوم ، فلذلك وجدوه ، وقيل الأول بوده لك بدئيا ، اذ لولا انه بدأك بسابق وده ، لما أخلصت له فى عقده وعهده . . فأين كنت حيث كان لك ، ومتى كانت رحمة أيبك وشفقة أمك وذويك ، وقد قسم لك الايمان ، ورضى لك الاسلام ، وسماك بالصلاح فقال عز من قائل « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » جاء فى التفسير انهم أمة سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — . »

« أترك فى سابق القدم وحكم لك بصدق القدم ، ربك بفنون النعم ، وعصمك عن سجود الصنم ، واختارك على جميع الأمم ورداك برداء الايمان ، وتلقاك بجميل الاحسان ، ورقاك الى درجة الرضوان ، وحرسك من الشرك والبدع ، وألقى فى قلبك حسن الرجاء والطمع ، وان لم يلبسك رداء الوفاء والورع فلم يؤنسك من لطفه بنهاية الفزع . »

« وان الذى هداك فى الابتداء لهُو الذى يكفيك فى الانتهاء . فهو الظاهر بنعمائه وآثار نعمه عليك متظاهرة ، والباطن بآلائه وزوائد كرمه لديك متواترة . »

وأقول فى ختام المقال « ربنا اغفر لنا ولاخوتنا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم » . »

حج الصادقين

— ٣٦ —

« فاذا نوى الحج خلق كل نية أخرى ، وفسخ كل عقد عقده منذ خلق ، ما يكون غير نيته الحج الى الله ، والوقوف بين يديه خاليا من الشوائب ،

فاذا نزع لباسه ، تجرد من كل شيء فاذا تطهر زالت عنه كل علة .. فاذا لبي سمع بقلبه جواب التلبية ، فتلذذ بالنداء ، فاذا دخل الحرم ترك كل محرم ، فاذا أشرف على مكة/ أشرف عليه حال من الحق ، وعلامته البكاء ، لأن الملائكة تحفه ، فاذا دخل المسجد دخل فى قرب من الله سبحانه وتعالى ، فخشع وطاف ورمل هاربا من الدنيا ، ورجع وسكرا ، وركع بعد أن صافح الحق بمصافحة الحجر ، كما ورد فى الأثر ، فظهر عليه الأثر ، ومن ظهر عليه الأثر نال الرضا .. واستشعر أنه تحت العجز عرف واغترف ، وترك أمره لله ، وصفا له الحال ، واقتقر من الدنيا مالا وعلما وعملا ، واغتنى بالمآل ، مآل الخادم عند مولاه ، يصيره كيف يشاء ، ويضعه فى مكانه كما شاء أن يجعله من خدامه ، والله رءوف رحيم ، فمن عرف القوم ، وسار بسيرهم نجا ، وكان مع شدة الخوف كثير الرجا » •

جاءت تلك الكلمات الطيبة فى رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى — طيب الله ثراه — لتلميذه الصالح الورع ، الصديق الوفى ، السيد سالم جمعة ، وهى تشع بأنوارها المشرقة ، فى مجال الحج وبركاته وآثاره •

والحج خامس ركن من أركان الاسلام ، وقد أكمل الله به الدين للمسلمين ، ونزل فى حجة الوداع على حبيبنا المصطفى — صلى الله عليه

وسلم - يوم الجمعة وفي موقف عرفه ، قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » •

والحج فريضة على المستطيع ، وقد فسرت السنة النبوية المطهرة الاستطاعة بالزاد والراحلة في قوله تعالى « والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » •

وكان ابن عباس - رضى الله عنه - يقول : من مات ولم يزك ، ولم يحج ، سأل الرجعة الى الدنيا وكان يفسره في هذه الآية .. « قال رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت » قال أحج ، ومثله « فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » قال أزكى واحج .. « وكان رضى الله عنه يقول : هذه الآية أشد شيء على أهل التوحيد » •

وسيدى الشيخ عبد السلام الحوانى ، رضى الله عنه ، يوجه تلميذه . أول ما يوجهه الى تصحيح نية الحج ، من كل الشوائب ، ليخلص جحه لله ، كما أراد - سبحانه - فى قوله الكريم :

« وآتموا الحج والعمرة لله » .. ولا شك أن تصحيح النية ، من إخلاص العبد لربه :

« ألا لله الدين الخالص » ويقول « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، ولهذا أمرنا الله أن نترك كل شائبة تشوب إخلاص القلوب فى الحج فقال تعالى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » •

والرفث اسم جامع لكل لغو وفجور من الكلام •

والفسوق جمع فسق ، وهو اسم جامع لكل خروج من طاعة الله وتعدي حدوده تعالى •

والجدال .. وصف مبالغ للخصومة والأخذ والرد فيما يورث العداوة والبغضاء •

والحج في اللغة معناه القصد الى المعظم ، وكانت العرب في الجاهلية يقولون ن حج الى النعمان أى تقصده تعظيما له وتميزا •
والحج أيضا معناه سلوك الطريق الواضح ، واشتقاقه من المحجة وهو اسم للطريق •
ويقول سيدى الامام أبو طالب المكى - رضى الله عنه - فى كتابه القيم قوت القلوب :

« وأول فضائل الحج ، حقيقة الاخلاص به لوجه الله تعالى وأن تكون النفقة حلالا ، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب ، وتفرق الهم ويكون الهم مجردا والقلب ساكنا مطمئنا مملوءا بالذكر ، فارغا من الهوى ، ناظرا أمامه ، غير ملتفت الى ورائه ، وصحة القصد بحسن الصدق ، ثم طيب النفس بالبذل والانفاق ، والتوسع فى النفقة والزاد ، لأن النفقة فى الحج بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى ، الدرهم بسبعمائة درهم ، والحج من سبيل الله ، روى ذلك عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم •

وكان ابن عمر - رضى الله عنهما - يقول : أفضل الحجاج أخلصهم نية ، وأزكاهم نفقة ، وأحسنهم يقينا ، وقال مجاهد لابن عمر - رضى الله عنهم - وقد دخلت القوافل : ما أكثر الحجاج فقال : ما أقلهم ، ولكن قل ما أكثر الراكب •

وأنت ترى من ذلك أن ابن عمر - رضى الله عنه - وعن سائر الصحابة - كان يقيس الحجاج بورعهم ، ويرى أهل الورع قلة فى الركب ، فاذا كان ذلك كذلك فى السلف الضالعين ، فماذا نقول نحن اليوم ، اللهم اغفر لأولنا وآخرا ، وعاملنا بفضلك ، ولا تعاملنا بعدلك •

وفى الحديث الشريف : « الحجاج والعمار وفد الله تعالى وزواره ، ان سألوه أعطاهم ، وان استغفروه غفر لهم ، وان دعوا إستجب لهم ، وان شفّعوا شفّعوا » وهذا ما يفسر لنا قوله تعالى « ليشهدوا منافع لهم » •

وحسن الظن بالله تعالى واجب على كل حاج مهما كانت ذنوبه قبل الحج ، لأن الحاج ضيف الله ، ولا أكرم من الله سبحانه وتعالى بضيفه ،

ومع أن الأرض كلها له سبحانه ، فقد جعل البيت محلا لضيافته ، وحاشا أن يقول - سبحانه - « ليشهدوا منافع لهم » ، ولا يشهدونها •

وقد كنت أقول لبعض من صحبني في الحج ، لا يجوز أن ننظر هنا الى سيئاتنا ، بل يجب أن ننظر الى احسان ربنا وفضله وفيضه « وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » •

وقد لقي رجل سيدي عبد الله بن المبارك ، رضى الله عنه ، وقد أفاض من عرفة الى مزدلفة •• فقال : من أعظم الناس جرما يا أبا عبد الرحمن في هذا الوقت فقال من قال ان الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء •

وقد روى الامام أبو طالب المكي - رضى الله عنه - عن سيدي على بن الموفق « يقال انه هو الذي يضاهاى الخضر - عليه السلام - فى أمتنا ويجاريه فى العلم ، قال : حججت سنة فلما قضيت مناسكى تفكرت فيمن لا يتقبل حجه فقلت اللهم انى قد وهبت حجتى هذه وجعلت ثوابها لمن لا يتقبل حجه ، قال فرأيت هاتفا فى النوم قال لى : يا على تتسخرى على الله ، وهو خلق السخاء ، وخلق الأسخياء ، وهو أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأحق بالجوّد والكرم من العالمين ، وقد وهبت كل من لم يقبل حجه لمن قبلته •

ويقول الامام أبو طالب المكي أيضا : وكان ابن الموفق هذا قد حج عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حججا وقال : فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن الموفق حججت عنى ، قلت نعم يا رسول الله ، قال ولييت عنى ، قلت نعم ، قال فهذه يد لك عندى أكافئك بها يوم القيامة ، آخذ بيدك فى الموقف فأدخلك الجنة والخلائق فى كرب الحساب •

هذا والاعتبار من أسرار الحج ، فما أكثر العبر وأقل الاعتبار ، كما قال امامنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - ولذلك يقول السادة الصوفية :

« وليعتبر الحاج في طريقه وسيره بالآيات ، وما يرى من الحكمة والقدرة من تصريف الخلق ، فيكون له في كل شيء عبرة ، ومن كل شيء موعظة فانه على مثال طريق الآخرة . »

« وليكن له بكل شيء تذكرة ، وفي كل شيء فطنة وتبصرة ، تردده الى الله تعالى ، وتدله عليه ، وتذكره به ، ويشهده منها فينظر في أمره ، ويستدل على حكمته ، ويشهد منه قدرته . »

وهذا مما يفسر لنا توجيه سيدي الشيخ عبد السلام لتلميذه ، في عباراته التي صدرنا بها المقال ، فقد وجهه الى خلوص النية في الحج ، والاستبصار بشعائره ومناسكه ، لأن الحج تقديس لله تعالى ، في بيته الحرام ، دار ضيافته ، وساحة مغفرته ، يأتيه الناس شعنا غبرا من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويقول سيدي محيي الدين بن عربي بحق :

« ان عبادة الحج ، شبيهة بالناس في أحوالهم يوم القيامة شعنا غبرا ، متضرعين ، تاركين للزينة ، يرمون بالحجارة وكأنهم يرمون ذنوبهم عن كواهلهم ، لأنهم في عبادة لو علموا ما فيها من الخير لذهلت عقولهم ، وما ثم عبادة هي تعبد محض في أكثر أفعالها الا الحج » .

ويقول أيضا رضى الله عنه :

« .. وكما تتفاضل المنازل الروحية ، كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية ، وقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد ، ثم يقول :

« والملائكة تعمر جميع الأرض وأعلاهم رتبة ، وأعظمهم علما ومعرفة ، عمرة المسجد الحرام ، وعلى قدر جلسائك يكون وجودك فإن لهم الجلساء في قلب الجليس تأثيرا ، وهمهم على قدر مراتبهم ، وقد طاف بالبيت مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفا ، سوى الأولياء ، وما من نبي ولا ولي الا وقد ترك همته المتعلقة به ، لأنه البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت » .

والبكاء الذى جعله سيدى الشيخ علامة على اشراف حال من الحق سبحانه وقع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقد ورد عنه فى كتاب قوت القلوب أنه وقف عند الحجر الأسود ثم قال : انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا انى رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقبلك لما قبلتك .. ثم بكى حتى علا نحيجه ، فالتفت الى ورائه فاذا على - كرم الله وجهه - فقال يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات .. فقال على : يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع ، قال وكيف .. قال ان الله عز وجل لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقمه هذا الحجر ، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء .. ويشهد على الكافر بالجحود ، قيل فذلك معنى قول الناس عند الاستلام « اللهم ايماننا بك ، وتصديقا بكتابك ، ووفاء بعهدك » . يعنون هذا الكتاب والعهد .

أما ما يقول به الشيخ من الافتقار من الدنيا مالا وعلماء وعملا ، فليس مقصوده أن يفتقر جيبه ، وأن ينبذ عمله ، وأن ينسى علمه ، بل المقصود أن تكون الدنيا فى يده مالا وعلماء وعملا ولا تشغله بكل ذلك عن ربه .

ألست تراه تعالى يقول فى وصف عباده الصالحين : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » .. فهؤلاء كانت لهم تجارة ، وكان لهم بيع وشراء وأموال ، لكن محبة الله ملأت قلوبهم ، والسادة الصوفية يقولون أن الدنيا كالحية وليس الشأن أن تقتل الحية ، انما الشأن أن نمسك بها وهى حية ، وعندى أن الدنيا نار تنتفع بها فى شؤونك العامة والخاصة وتحذر شررها حتى لا تحترق بحرها .

وأما غنى المآل ، الذى فوه به الشيخ - رضى الله عنه - فهو صدق العبودية مع الله تعالى ، صدق مذاق ، لا صدق عقيدة فحسب ، فاذا صدق المؤمن عقيدة ومذاقا فى عبوديته ، فوض أمره الى الله وسار الى الله وأعرض عما سوى الله ، فكان ربانيا ، ممن سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى وشرفهم بالاتساع اليه حين عرفهم فقال :

« وعباد الرحمن .. الآيات التى ختم الله بها سورة الفرقان » .

وقد سئل الامام الحسن البصري ، ما علامة الحج المبرور ؟ فقال أن يرجع العبد زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة ، وقالوا أيضا ان من علامة قبول الحج ترك ما كان عليه العبد من المعاصي ، والاستبدال بالأخوان البطالين اخوانا صالحين .. وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة .

وقالوا في فضل مكة ، ان أعمال البرتضاعف بها ، والحسنة فيها بمائة ألف حسنة على مثال الصلاة في المسجد الحرام .. روى معنى ذلك عن ابن عباس وأنس - رضى الله عنهم - وقالوا أيضا ان العبد يؤاخذ بالهمة في مكة ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه : ما من بلد يؤاخذ العبد فيه بالارادة قبل العمل الا بمكة وقال أيضا : لو هم العبد أن يعمل سوء بمكة عاقبه الله تعالى ثم تلا « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » .
يعنى أنه علق العذاب على الارادة دون الفعل .

وكان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : لأن أذنب سبعين ذنبا بركة أحب الى من أن أذنب ذنبا واحدا بمكة ، وركبة منزلة بين مكة والطائف ، وقد أقام ابن عباس - رضى الله عنهما - بالطائف وجاور بها خوفا من حرمة مكة ، وقد تشرفت هذا العام بزيارة قبره هنالك ، جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيرا كثيرا بما ترك من علم زاهر .

وكان الورعون من السلف ، ومنهم عبد الله بن عمر وعمر بن عبد العزيز ، يضرب أحدهم فسطاطا في الحرم وفسطاطا في الحل ، فإذا أراد أن يصلى أو يعمل شيئا من الطاعات ، دخل فسطاط الحرم ليدرك فضل المسجد الحرام ، لأن المسجد الحرام عندهم فى جميع ما يذكر انما هو الحرم كله ، وإذا أراد أن يأكل أو يكلم أهله أو يتغوط خرج الى فسطاط الحل .

ومما من الله به على هذا العام أنى كنت أذكر المؤمنين بحرم مكة وأنصحهم أن يتجنبوا فيها الاساءة ، ويحرصوا كل الحرص على الاحسان والطاعة ، وكنت أجد منهم استجابة والحمد لله ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ومن فضل الله علينا أن موقف عرفه هذا العام كان فى يوم الجمعة ،
وعرفه ، هى أهم أركان الحج ، ففى الحديث الشريف « الحج عرفة » .

وقد قال بعض السلف : اذا وافق يوم عرفه يوم جمعة غفر لكل
أهل الموقف ، وهو أفضل يوم فى الدنيا ، وفيه حج مولانا رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — حجة الوداع ، ولم يحج بعد نزول فرض الحج
غيرها .

ولقد تذكرت فى الحرم قول المغفور له الشيخ عبد الله عفيفى وأسمعته
لبعض احبابى فأعجبوا به كل الاعجاب :

يا خليلي بالصف والمصلى ها هو الصبح فى البقاع تجلى
فانشد القلب فى الحمى أين حلا ضل عنى وما غوى حين ضل
ودنا من حماك وتدلى

شفه الحب والحبيب فثارا وسرى الركب بالعشى فطارا
كان نورا وصار بالحب نارا نعم دار الحبيب يا قيس دارا
وبقاع الحبيب روضا وظلا

زمنم ورده وفيها هواه ومنى قصده وفيها مناه
وسنا البيت وحيه وهنداه هذه دورهم وفيها جناه
قدست أربعا وجلت محلا

يا مراح البراق أنت راحى يا صلاح العباد أنت صلاحى
يا صباح الحياة طاب صباحى ومسائى على رباك الصباح
حين يجلى الكتاب فيك ويتلى

مهبط الوحي أنت مهبط قلبى عن امام الأنام فرعا وأصلا
وحمى الله أنت موطن حبي يا ديار الحبيب والدار تنبى
جسدئنى عن النبى ونبى

وكذلك جئت الملتزم وتعلقت. باستار الكعبة بعد الطواف لأدعو الله

تعالى ، فتذكرت قول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل - رضى
الله عنه - فى الهامه القورى الذى نقلناه عنه :

انى على أعتابكم لم أرض غير الحب مشرب
حريرتى رق لكم وهى المقام وذاك أقرب
وأدلتى أنى ضعيف والضعيف عليك يحسب
قالوا بأنك لم تكن فيما تقبره منسب
فأجبتهم أنا نسبتى عبد على الأبواب أحسب

وكم كان لشيخى - رحمه الله - من روائع حين كان يتعرض للحجاز
وهو ينشد ، فكم شدنا اليه ، فيما كان يتغنى به الهاما لوقت من عطاء ربه
لأوليائه المتقين . . فمن ذلك قوله طيب الله مثواه :

سهام الهوى لم تشنى عن رحابكم ولو أتى منها على مركب صعب
وكيف أهاب الصعب وأرهب السرى ومن نام لا يرقى الى مشهد القرب
وغفلة قلب المرء بعد وحسرة فما نال عقبى ربه غافل القلب
ونحن أولو علم ولكن بوجدنا شربنا من الأنوار ما ليس بالشرب
فكنا بفيض من الله خير أئمة لنا نوره يهدى من الزينج والعجب
ولما تدانينا ولاحت دياره وقد جذبتنا نحوها أيما جذب
هتفت بحبى دم لربك وحده وأخرج جميع الكائنات من القلب
وما أروع قول شيخى كذلك :

دع زمانا مضى وعدبى لأرض شغفتنى بنورها المتلالي
بين ييداء روعت ووهاد وذئاب تختال فى اقبال
ونجوم مثل الحباب على الكأس تسامت أو كالحلى واللالى
قيل ماذا تريد من هذه الأرض أتبعى البقاء فى جمع مال
قلت والله غير احمد مالى بعد رب العباد من آمال

يا حبيبي رضاك دنيا ودين . فهما باتباعكم صحا لى
نفحتنى بنوركهم نفحة الخير وقد طابت منكمو آصالى
انما أنت مصدر النور من ربى ومعنى الرضا وباب الوصال
كل جاء يزول فى روعة الموت ولكن خبالقى أبقى لى
واكتحال العيون أيسر شىء واكتمال القلوب صعب المنال
هو ذكر ورغبة وشهود ووفاء للخالق الفعال

وما من شك أن الهجرة الى الحجاز ، مقر البيت الحرام ، ومزار
النبي عليه الصلاة والسلام هجرة من الدنيا الى الآخرة .. وسعى لرؤية
صورة مصغرة للمحشر يوم القيامة ، فكهم ترى فى تلك الرحلة المباركة
وتسمع من أجناس مختلفة ، ولغات متنوعة ، ودعوات متوالية ، واستغاثات
ضارعة ، وتوبات صاعدة ، وعيون باكية ، وقلوب خاشعة ، وأكف الى
السماء مرفوعة ، وجباه الى الأرض موضوعة ، ووجوه ضاحكة مستبشرة ،
والسنة بكتاب الله ناطقة ، وعيون الى الكعبة ناظرة ، وآلاف من الناس
بها طائفة ، وأخرى راكعة ساجدة ، أما فى المسعى بين الصفا والمروة أو
عند رمى الجمرات بمنى ، فقال ان الناس جراد منتشر ، وأما وقوفهم فى
عرفات فكأنهم اجتمعوا ليوم الحساب ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك
يوم مشهود •

اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب
الآخرة ، وآمن روعاتنا ، واستر عوراتنا ، يوم ينكشف المستور من
أمرنا ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم •

اللهم انا نعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ، ونعوذ بك من
الذنوب التى تغير النعم ، ونعوذ بك من الذنوب التى تهتك الحرم « ربنا
وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » •
آمين ..

تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم

— ٣٧ —

« من تفكر في دينه سلك ، ومن حافظ على آداب الطريق في سيره الى الله ملك ، وكان في أفعاله كالملك . »

سبحان من أدب النفوس ، وأرسل لها العروس ، وأنزل الكتاب كالطروس ، فكان طبيب النفوس ، كتاب أحكمت آياته ، ونطقت بيناته .
وكل انسان بنياته ، له هبة موهوبة ، وأمور في الدنيا مطلوبة ، فمن أسعده الله أعطاه ، ومن وفقه اليه أغناه .

إليك أرغب ، وإياك أرهب . اللهم ألهمني الصواب ، واجمع قلوب الأحباب على الباب . »

ذلك من بعض ما كتب شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، طيب الله مثواه ، لتلميذه الوفى الصديق الصالح السيد سالم جمعة ، مد الله فى عمره ، وبارك له فى عمله .

والعروس يستوى فيه المذكر والمؤنث وجمع الرجل عرس بضمتين مثل رسول ورسول ، ويقصد به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والطروس جمع طرس أى الصحيفة ويعلمنا سيدى الشيخ فى هذه الكلمات الطيبة أموراً دينية ودنيوية هامة وينقلنا فيها من درجة الى درجة ، أخذاً بمبدأ التدرج ، الذى هو سنة من سنن الكون والتكوين فى النواحي الحسية والمعنوية .

واذا نظر الانسان الى تكوينه الجسدى والعقلى والروحى ، كمثّل حى قريب منه ، رأى أنه تدرج فى تكوينه الحسى والمعنوى شيئاً فشيئاً ، وكان لكل طور من أطواره ما يناسبه من جهد وثمرة .

ولو سأل نفسه فى سن التفكير والتمييز ، من خلقتى ولماذا خلقت وما مالى بعد الموت لاستدل على أن له خالقا ، قادرا ذا حكمة ، ليس له شريك فى ملكه ، والحكمة تنفى عنه أن يخلق عبثا ، ولو ان حياة الانسان انتهت بحياتها فى الدنيا لكان ذلك عبثا ، وهو ما يستحيل فى حق الخالق سبحانه ، ولا بد من رجعة اليه تعالى ، اما الى سعادة أبدية ، أو شقاء أبدى فى حياة أخرى تكون بعد البعث من الموت ولا انتهاء لها أبدا .

ولو أن الخالق سبحانه ، ترك العباد لأنفسهم يتفكرون ، لشق الأمر عليهم ، ولكنه أراد برحمته أن يعاونهم ، ويسر لهم الاهتداء اليه ، سبحانه ، فأرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين ، وأيدهم بالحجج البالغة ، والمعجزات الباهرة ، واقتضت حكمته العلية ، أن يكون هؤلاء الرسل من صنف البشر ، لا من صنف آخر ، ليحصل لهم الألفة بالتجانس ، ويقرب التصديق لمن كتبت لهم السعادة الأبدية . والذي يخلق العباد من عدم ، لا يكون محتاجا اليهم ، ولا الى تصديقهم بربوبيته ، ولا الى طاعتهم لأوامره ، كما لا يضره تكذيبهم بربوبيته ، أو عصيانهم لنواهيه ، وانما العباد هم المحتاجون ، الذين ينتفعون من الطاعات ، ويضارون بالمعاصي ، أفرادا وجماعات ، وحكاما ومحكومين ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وقد مهدت الرسائل السابقة لظهور أعظم الرسائل شأنا فى الناس كافة ، وهى الرسالة المحمدية التى كانت مسك الختام فهدى الله بها من العمى ، واقتد بها من الردى .

وكان كل رسول من الرسل الأمناء يرسل الى قومه خاصة ، وأرسل الله تعالى مولانا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاقوام كافة ، فكانت أعم رسالة عرفتها البشرية ، كما كانت أسرعها ظهورا وأبقاها وأنماها ، على مر السنين وتعاقب الأجيال ، فكان عدد المسلمين بعد انتقاله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الى الرفيق الأعلى أضعاف أضعاف ، من أسلموا فى زمانه ، وبذلك صار صلى الله عليه وآله وسلم أكثر النبيين تيمنا يوم القيامة .

وذلك لا يكون الا بسر من أسرار الله العليا ، آتاه الله حبيبه الأصفى ومصطفاه الأسمى ، ليتم له شرف خطابه الأعلى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فكان صلى الله عليه وسلم بذلك عروس المملكة ، التي خلقها الله ، وشاء لها أن تكون ، والله ملك السموات والأرض فرحم الله به كل العالمين ، والعالمون هم كل ما سوى الله عز وجل ، ودخل في العالمين اذن الأنس والجن والملائكة والأنبياء والمرسلون ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (ان فضله كان عليك كبيرا) .

ويشير الى ذلك سيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى) رضى الله عنهما فى قصيدته المسماة المستجيرة فيقول :

وعروس مملكة المهيمن أنت ياطه وأنت بجمعها الفرد العلم
أو لست أنت الأصل فى فيضان ما عم الأنام من المكارم والنعم
أو ليس من سطعات نورك أشرق البدران والداران يا نور الظلم
طب اذا الحسنات أعضل كسرهما صححتها للمذنبين فلا سقم
تهب الجزيل لمن أتى يبغي الندى تحمى النزىل اذا بحضرتك اعتصم
وقد جاء حبيبنا المصطفى ، صلوات الله عليه وآله ، بمعجزة القرآن الكريم ، الذى أحكمت آياته ، ونطقت بيناته ، كما يقول سيدى الشيخ عبد السلام ، رضى الله عنه ، فكان فيه طب النفوس ، فعالجها به صلوات الله وسلامه عليه ، من أدوائها ، حتى رشدت بعد غى ، وحيت بعد موت ، فأمنت بعد كفر ، وشكرت بعد جحود .

وقد جاء القرآن المجيد مجملا ، ففصل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ما أجمله من عظات وأحكام ، وكان أمين الله فى ابلاغه ، كما كان أمينه فى تفصيله وبيانه ، ومن ثم ألزم الله تعالى المؤمنين باتباع رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم وجعل اتباعه ، دليلا على حبه سبحانه فى قوله الكريم (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) وجعل طاعته طاعة لله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وبيعه بيعه له (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) .

وكما كان اتباعه صلى الله عليه وسلم دليلا على محبة العبد لربه ،فانه كذلك مجلبة لاسمى غاية ، وأشهى نهاية ، وهى محبة الله لعبده ، وهى الأفق الأعلى ، الذى تتعطر عنده أرواح المؤمنين المخلصين بنسيم المحبة الالهية ، وثمرتها مغرية للغاية ، فهى مفضية لا محالة بالمغفرة والرحمة والرضوان ، ومن أصدق من الله حديثا •

ولا تعجب بعد ذلك مما يقوله سيدى الشيخ فى مطلع كلامه : من تفكر فى دينه سلك ، ومن حافظ على آداب الطريق فى سيره الى الله ملك ، وكان فى أفعاله كالملك •

فالملائكة مخلوقات نورانية ، لا تعوقهم عن طاعة الله شهوات فانية ، ولذات زائلة ، يعمرن أوقاتهم بذكر الله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون) فهم على الدوام محفوفون بالتجليات ، مغمورون بالرحمات •

وقد بين القرآن الكريم ، سلوك الجيل الأول فى هذه الأمة ، وهى خير أمة أخرجت للناس ، فوصفهم فى دينهم ودنياهم أروع وصف ، وشهد لهم ربهم ، بنظافة ظواهرهم وبواطنهم ، بما لا مطمع لأحد فى المزيد عليه ، لا بل وفى بلوغ حده الا ما شاء الله •

فانظر ، رعاك الله ، فى قول الله تعالى مثلا فى وصف سادتنا الصحابة رضوان الله عليهم : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) فكشف عن عبادتهم الظاهرة ، وعن نياتهم الخفية السامية (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) والى قوله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) فهى عبادة خلت من النفاق ، والغررض الدنيوى ، حلقوا فيها بأرواحهم الصافية الى الملأ الأعلا ، الذى هبطت فيه ، والذى اليه تعود ، عند انتهاء الأجل ، حين تسمع لذيد خطابه الكريم (يا أيها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) •

ولا يظن ظان أن هناك مسافة يطويها العبد في سلوكه الى مرضاة ربه ، وانما المقصود بالسلوك ، مجاهدة النفس التي تحجبته شهواتها عن مذاقات المعرفة ، وبالمجاهدة والثابرة، والمصابرة ، يزول الحجاب، وينكشف الغطاء ، فيرى العبد بعين بصيرته ، أكثر مما يراه بعين بصره ، لأن عين البصر محدودة ، لا ترى الا المحسوسات ، وعين البصيرة ، مطلقة ، فيما شاء لها أن تكشفه ، من أمور الملك أو الملكوت ، بقدرة الحي الذي لا يموت والذي قال (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) كما قال (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) وقد يقول قائل هذه الآيات في حق الرسل صلوات الله عليهم ، وليست للمؤمنين فأقول : ان الله يكرم بالمرسلين تابعيهم بصدق ، ويؤيدهم بحق ، ليجعلهم منارات لاجيالهم ، يهتدى بهم من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، (قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين) فكما يكون للرسل عليهم الصلاة والسلام معجزات خارقات ، يكون لأولياء الله آيات بينات والله يؤيد بنصره من يشاء .

ومن هنا وجب أن يسترشد للمسالك الى الله بمرشد من أهل البصيرة يكون عاملا بالكتاب والسنة ، وملازما للجماعة ، ويعتبره نائبا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يربى السالكين في جنب الله ، حسبة لوجه الله ، وابتغاء مرضاة الله ، لا يسأل الناس على هدايتهم أجرا ، وقد أثبت الله لعباده الذين شرفهم بالانتساب اليه في قوله الكريم (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا .. الخ) دعاءهم بأن يهينهم ليكونوا أئمة لأهل التقوى فقال تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما) وانما سألوه ذلك ليكونوا من خدام دعوة الحق ، وهو شرف اعتز به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم .

فكما أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول رب العالمين ، فالأولياء نوابه وجنوده في حياته الشريفة وبعد وفاته ، يعلمون المؤمنين أقواله

وأفعاله وأحواله الشريفة وقد من الله على أمته فى كل جيل من أجيالها ، حتى بقيت كلمة الله ثابتة فى الأرض ، وإن تعرض الناس للفتن ، ورمتهم الأيام بالمحن (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وكل ذلك من بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « أنا حظكم من الأنبياء وأنتم حظى من الأمم » فما أعظم حظ الأمة المحمدية « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبيب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) •

ومن عجب أن يخاف بعض الناس من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه بما حباه الله تعالى به ، ويظن أن ذلك يعجر الى الشرك بالله ، ولست أدري كيف يؤدى التعظيم للشرك ، ونحن نشهد بالأسنة ونقر بالقلوب أنه عبد الله ورسوله فى كل تشهد وفى كل أذان ، كما أننا مؤمنون بالقرآن الكريم الذى يدعو الى التوحيد الخالص ويصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه عبد من البشر يوحى اليه •

وانما عظم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم الله الذى أرسله الينا والى الناس كافة ، وبعظم الأمانة التى عهد بها اليه ، فأداها أحسن أداء وهى تقوم على أساس أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ولا وجه للخوف من الشرك أو تخويف الناس منه ، فأننا نعظم بيت الله الحرام ولا نشركه بالله ، ونظم آباءنا وأمهاتنا ومشايخنا ولا نشركهم بالله ، والشرك حده بعيد ، حمى الله منه المؤمنين بالكتاب والسنة والجماعة والحمد لله على ذلك •

أما ان كان الخوف والتخويف من التوسل به صلى الله عليه وسلم الى ربه ، فذلك التوسل انما هو أخذ بالأسباب التى أقامها المسبب سبحانه ، فالرسالة جاءتنا على يده صلوات الله عليه ، واهتدينا على يديه ، فكان الرحمة المهداة لنا من الرحمن الرحيم ، وهو بابنا الى الله تعالى ، تجرى نعمة الله الظاهرة والباطنة لنا على يديه ، وذلك تقدير العزيز العليم ، والمنعم

سبحانه هو الواحد الأحد ، ليس له شريك فى تقديره أو عطائه لأن معرض السبب غير معرض التوحيد (كما بينا ذلك فى مقالة سابقة) فحين قال تعالى فى معرض التوحيد (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهذى من يشاء) قال فى معرض السبب (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وفى معرض الجمع بين السبب والسبب قال تعالى (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله) فاذا وضع المؤمن ذلك نصب عينيه أراح واستراح ، فالمنعم هو الله ، وجاءت نعمه لسيدي زيد على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم على يديه وأعتق على يديه وتزوج على يديه صلى الله عليه وآله .

والموت الذى كتبه الله على عباده انما هو نقلة من هذه الحياة الدنيا الى حياة البرزخ القائم بين الدنيا والآخرة ، وقد صرح القرآن الكريم بحياة الشهداء فى البرزخ فى قوله الكريم (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين)

اذا كان ذلك كذلك فكيف بحياة سادتنا الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وكيف بحياة سيدهم وأميرهم صلوات الله وسلامه عليه وآله ، واذا كان أثره الشريف قد انقطع بسوته فلماذا حرص أفقه الأمة ، وأعظمهم توحيدا ، على جواره فى قبره ، فكان أول من سعد بهذا الجوار ، الصديق الأكبر ، والعلم الأشهر ، مولانا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم لحق بهما الفاروق ، الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، مولانا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد آثرته سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بالمكان الذى كانت تود أن تدفن فيه ، وكان مولانا السبط الحسن بن على كذلك يود لو سعد بدفنه الى جوار جده المصطفى صلى الله عليه وسلم لولا أن عارض فى دفنه الأمويون فدفن بالبقيع الى جوار والدته سيدتنا الزهراء رضى الله عنها .

كما أنه حين جاء مولانا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، بكل ماملكت يده من المال الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال له ما تركت لأهلك ، قال تركت لهم الله ورسوله ، وهو يعلم علم اليقين ان الله تعالى هو الرازق وحده ، ولكنه لم يشأ أن يحرم أهله من أن تصاحبهم بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى جعله الله رحمة للاولين والآخرين ، والفقير اذا وقف بباب الغنى ، فهو لا يعتقد فيه الألوهية ، وانما يتعرض لأن يرزقه الله على يدى ذلك الغنى الذى وسع الله عليه ، وأوصاه خيرا بالفقراء وجعله أداة من أدوات عطائه ، والسعيد من الأغنياء من أعطى ، والشقى من قال ، أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، لأن الله تعالى انما يطعم الفقراء من يد الأغنياء ، وجعل ذلك بابا من أبواب الابتلاء .

ثم انه سبحانه أمرنا بالصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم ، ولعجزنا عن الصلاة والتسليم عليه بأنفسنا ، سألنا الله تعالى أن يصلى عليه ويسلم كما يحب ويرضى ، فلماذا كلف الله المؤمنين بالصلاة عليه ، ما كان ذلك الا ليربط قلوبهم بقلبه الكبير فيستمدوا منه نورا تقوى به محبتهم له ، فيتخلقون بأخلاقه فيحبهم الله ويدخلهم فى رحمته ، ومعلوم أن المصلى عليه يقول اللهم صلى على سيدنا محمد ، فهو ناطق بذكر الله فى قوله اللهم فصارت الصلاة عليه ، صلى الله عليه وسلم ، ذات طرفين ، يذكر فيها رب العالمين سبحانه ، ويذكر فيها رسوله الكريم ، الذى تفتح على يديه أبواب رحمة الله .

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه فى كتاب مفتاح الفلاح ، (ولعل سر مشروعية الصلاة على الأنبياء ، أن روح الانسان ضعيفة لا تستقر لقبول الأنوار الالهية ، فاذا استحكمت العلاقة بين روحه وروح الأنبياء بالصلاة فالأنوار الفائضة من عالم الغيب على أرواح الأنبياء تنعكس على أرواح المصلين عليهم .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الاحياء ، فى باب ما ينبغى أن يحضر فى القلب عند كل ركن من الصلاة ما نصه : وأحضر فى قلبك النبى صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم وقل السلام عليك

أيها النبي الخ •• ويقول العلامة الشهاب بن حجر المكي شيخ الشهاب الخفاجي في شرح العباب في بيان كلمات التشهد ما نصه :

وخوَّط صلى الله عليه وسلم كأنه إشارة الى أنه تعالى يكشف له عن المصلين في أمته حتى يكون كالحاضر معهم ، ليشهد لهم بأفضل أعمالهم ، وليكون تذكرو حضوره سبباً لمزيد الخشوع •

وليس يغيب عن السادة القراء الأفاضل ، أن الله تعالى ، أدام حرمة صلى الله عليه وسلم ، بتحريم أزواجه على المؤمنين من بعده فحرمة فينا قائمة على الدوام ، وقد حرص السلف الصالح من فقهاء الأمة على رعاية هذه الحرمة ، فراعوا الآداب بجوار قبره الشريف ، من خفض الصوت عند السلام عليه ، وعند المناقشة في دروس العلم ، واستقبلوا وجهه الشريف عند الدعاء ، وحرص الامام مالك ، ومنزلته الفقهية في المسلمين معروفة ، وهو من تابعي التابعين ، على ألا يطأ بنعله أو دابته أرض المدينة المنورة ، لأنها تضم جدث النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ابن عمر من قبله يتتبع مواطئ قدمه صلى الله عليه وسلم حيث مشى ، تبركا بها ، كما كان رضى الله عنه — على ما رواه الامام مالك بسنده في الموطأ ، اذا أراد سفراً أو قدم من سفر جاء قبر النبي صلى الله عليه وسلم فصلى عليه ودعا ثم انصرف ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفترون على الشعرة الواحدة من شعراته صلى الله عليه وسلم ويرى الواحد منهم انه لو كانت عنده شعرة واحدة منه كانت خيراً من الدنيا وما فيها ، وكفن رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة فاطمة بنت أسد (أم الامام على كرم الله وجهه) في قميصه وقال انما ألبستها قميصي لتكسى من حل الجنة ، واضطجع معها في قبرها وقال (انما اضطجعت معها ليهون عليها) أى الحساب وقد دعا لها فقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الطبراني وغيره : « اللهم ارحم أمي فاطمة بنت أسد ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى » وحياته صلى الله عليه وسلم خير لنا ، ومماته كذلك خير لنا ، فخير له لا مقطوع ولا ممنوع بفضل الله عليه وعلينا (وللآخرة خير لك من الأولى) وله سبحانه الثناء الحسن الجميل •

والذائق لا يحتاج الى أدلة وبراهين ، فالعيان يغنى عن البرهان ، وما يعقل ذلك الا العالمون ، أما المتعاملون ، فنسأل الله أن يهديهم الى سواء السبيل ، ولا يكفروا المتوسلين ، وفيهم أعلام الدين ، وأئمة المتقين ، وكيف لا تتوسل الى الله ، بمن جعل الله الشهادة برسالاته ، ركناً من أركان التوحيد ، نعوذ بالله أن نكون ممن يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، فالشهادتان انما وصلتا ليكون المؤمن متصلاً برسوله الكريم الذى هداه الى الله تعالى ، والأسباب قامت بأمر مسببها سبحانه ، فاذا قلنا ان الأرض أنبتت الزرع ، فانما نذكر سبب الانبات ، ونشهد ربنا الذى أقامها تثبت ، وكذلك اذا قلنا أحيا الماء الزرع قصدنا به أنه سبب الاحياء على سبيل المجاز وشهدنا أن الله تعالى هو المحيى فى الحقيقة ، وعقيدة المؤمنين فى التوحيد راسخة بحمد الله ولا محل للتشكيك فيها .

واستمع بعد ذلك الى بعض الروائع التى جاد بها الهام سيدى العارف بالله الشيخ احمد ابو الوفا الشرقاوى (المتوفى ١٩٦١) طيب الله ثراه فى قصيدته المسماة ، لمعة الاسرار فى مدح الحبيب المختار ، والتى تفضل فشرح معانيها مولانا المفتى الأكبر الاسبق الشيخ حسنين محمد مخلوق ، مد الله فى عمره وزاده فضلا وهى طويلة جدا ، وتزداد حلاوة كلما تكررت تلاوتها ، وقد تخيرت منها قطرات عطرة قال فيها رضى الله عنه :

ومذهبه أنه يسمو ويعظم أن	بيدى لسانى فى أوصافه قولا
وكيف يوصف والأكوان قاطبة	فى ظل أعتابه تستمطر الفضلا
يحن قلبى الى مغناه حيث سنا	خضرائه يشمل الأملاك والرسلا
تقديه نفسى من مغنى يتيه على	العرش العظيم بمن فى حيه حلا
فانه مربع قد خص طيبه	بنور جثمان من يعلو ولا يعلى
فيا فؤادى ذب شوقا اليه ويا	انسان عينى تصيب فى الهوى سيلا
هناك يامقلتى حيث الحبيب غدت	تسدى المواهب من ساحاته فضلا
حيث الملائك تستجدى لطائفه	والأنبياء ترجى سنجبه هطلا
كم رفرفت فى سناء أنوار قبته	أرواح أمته ييغونها طولا
تغدو خصاصا فتمسى وهى رائحة	منها بظانا بما تحبى العطا جنزلا

فلا حجاب غدا من دون حضرته
 لكن النفس من أهوائها حجابا
 فاقطع علائقها وارحل بروحك عن
 وخلها وتيمم بالفؤاد لمن
 هناك تظهر أنوار الحبيب ولم
 له الجمال الذى لما سما قدما
 فانه قد سرى فى الليل من حرم
 لكى يفوق على كل السوى شرفا
 كأنتى بجميع الكون اصبح فى
 لكن الطاف ربه للورى سبقت
 وكل أطواره تبدى لأمته
 فذاته حضرة الله جامعة
 انى بسطت يد الآمال مفتقرا
 فانتى فى عهود الحب من قدم
 لاعلم يا سيدى أرجو ولا عملا
 جعلتها نسبي فيكم أروم به

ويؤخذ من شرح فضيلة المفتى الأكبر الأسبق لبعض الأبيات المتقدمة،
 أن العلماء أجمعوا على أن البقعة التى تضم الأعضاء الشريفة أفضل بقاع
 الأرض حتى موضع الكعبة المشرفة ، وقيل :

جزم الجميع بأن خير الأرض ما

قد حاط ذات المصطفى وحوها

ونعم لقد صدقوا بساكنها علت

كالنفس حين زكت زكى مأواها

بل هى ، كما ذكره السيد السمهوى نقلا عن التاج السبكى عن ابن
 عقيل الحنبلى ، أفضل من العرش ، لاحتوائها على جسد أشرف الخلق
 الذى تنزل الرحمات والبركات غير المتناهية عليه صلى الله عليه وسلم
 فى قبره .

وكذلك قال فضيلة المفتي الأكبر ، وقد ثبت في الصحيحين في حديث الاسراء اجتماعه صلى الله عليه وسلم بأرواح الأنبياء وبالملائكة ، وأنه تعالى جمعهم تلك الليلة في بيت المقدس تكريما لنبيه ، وأمرهم أن يؤمهم في الصلاة ، اظهارا لتفضيله وامامتة ، كما ثبت اجتماع بعضهم به في عروجه في تلك الليلة الى السماء واحتفاؤهم به ، وثناؤهم عليه صلى الله عليه وسلم .

وثبت أيضا تفضيله عليهم ، بما رواه ابن جرير وابن كثير عن علي كرم الله وجهه قال : لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده الا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وسلم لئن بعث وهو حي ليقولن به ، ولينصرنه ، ويأخذ العهد بذلك على قومه ، وهو مروى أيضا عن ابن عباس موقوفا ولكن له حكم الرفع ، لأنه مما لا مجال للرأى فيه .

يقول المفتي الأكبر : فاعلم ذلك ولا تكن من الغافلين .

ويستطرد فضيلته قائلا : وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ان الله تعالى فضل محمدا صلى الله عليه وسلم على أهل السموات وعلى الأنبياء عليهم السلام ، قالوا فما فضله على أهل السماء ، قال ان الله تعالى قال لأهل السموات « ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم » وقال لمحمد (انا فتحنا لك فتحا مبينا) قالوا فما فضله على الأنبياء ، قال ان الله تعالى قال (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) وقال لمحمد (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) .

هذا وان الله تعالى قد جعل المؤمنين وسيلة يرحم بعضهم ببعض في صلاة الجنازة التي فرضها عليهم فرض كفاية ان لم يؤدها البعض أثم الجميع ، مع انه غفور بذاته ورحيم بذاته ، لكنه أقامها أسبابا يتخذها المؤمن ، وهو يشهد ربه ، وجعل الأبناء وسيلة لرحمة آبائهم وأمهاتهم ، فأمرهم بالدعاء لهم (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) ونحن ندفع الجوع بالطعام والظما بالماء ، ونشهد ربنا الذى هو يطعمنا ويسقينا ، فكيف يحمل التوسل على الشرك بالله ، وهو من ياب اتخاذ الأسباب ، وكيف يشبه المعترضون المتوسلين بعبدة الأصنام ، والأصنام احجار لا تضر

ولا تنفع ، وأين عبادة الأصنام واتخاذها آلهة من حب من أحبهم الله ، فهو حب في الله ، وبالله ولم يرد أن الله أحب الأصنام حتى يكون لهم عذر في حبها ثم في التبرك بها ، فيا بعد ما بين القياسين ، وقد أخبرنا سبحانه ان حملة العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، وأعلمنا ما كان غائبا عنا من استغفارهم وهو وسيلة أرادها الله (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) •

لقد ذكر الله في كتابه الكريم الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والصالحين ، وأثنى عليهم ، فخلدهم في الخالدين من عباده وجعل أسماءهم وأوصافهم تتلى في المحاريب ، وجعل قصصهم عبرة لأولى الألباب ، وأوصافهم مثلا عليا يحتذيها أهل الرشاد والاسعاد ، وللثقة في محبة الله لهم ، ورضائه عنهم ، سأل الأنبياء والمرسلون ربهم أن يلحقهم بالصالحين ممن سبقوهم وهذه غبطة بما نالوه من فيضه وإحسانه في جواره الكريم ، فهل كان في سؤالهم هذا إشراك بالله ؟ ، حاشا وكلا •

ثم انه تعالى أمرنا نحن المؤمنين أن نكون مع الصادقين من عباده ، ولم ير في ذلك عبادة أو شركا بل رآه سببا معينا لنا على طاعته ، فهم وسيلتنا اليه في الدنيا والآخرة ، وهم حجتنا فيما بيننا وبينه سبحانه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقد قال العارفون أن الكينونة تكون ظاهرا بمجالستهم حتى تنطبع في المؤمن صفاتهم ، وباطنا برابطة الروح ، حيث تسقى الأرواح بعضها بعضا ، كما يسقى الماء المتدفق من الأرض العالية ، الزروع القائمة في الأرض الواطئة ، ورزق الظاهر بحركات الأجسام ، ورزق الباطن بحركات القلوب •

والله من قبل ذلك ومن بعد ذلك هو وحده المقدر ، ان شاء ساق الأسباب النافعة لعبده ، وان شاء حرمة منها ، وكما يقول سيدي الشيخ

عبد السلام : وكل انسان بنياته ، له هبة موهوبة وأمور فى الدنيا مطلوبة ،
فمن أسعده الله أعطاه ، ومن وفقه الله أغناه •

وما أحلى ما يقول الصوفى الكبير جلال الدين الرومى فيما ترجمه
عنه صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

ان الظواهر أضلت ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء والطين ،
وأضلت الظواهر أبا جهل حين نظر الى رسول الله صلى عليه وسلم
على أنه محمد بن عبد الله القرشى ، فلم يره سيدنا محمدا رسول الله صلى
الله عليه وسلم) •

وما ذنب البستان اذا قصرت فى جنى ثماره ، وما ذنب النهار اذا
أغمضت العين عن شهود أنواره •

وأقول بعد ذلك : اللهم انا نتوسل اليك بأحب أحبابك لديك ، وأعزهم
عليك ، ومن شرفت أهل السماء والأرض بامامته ، وجعلته مفتاح رحمتك ،
سيدنا ومولانا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه ومن والاهم ،
ونسألك بجاهه العظيم عندك ، أن تربط أرواحنا بوجه الشريفة ، حتى
يأتيها رزقها رغدا من ساحة كرمك ، فأنت المعطى وهو القاسم ، وما أجود
المعطى ، وما أعدل القاسم ، وما أرافه ، وما أرحمه ، وأنت يا الهنا الواصف
له (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم
بالمؤمنين رؤوف رحيم) •

زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم

— ٣٨ —

« .. ولا يخفك ان عطاء الله لا يتفد ككلماته التي لا تنفذ (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) » .

« وأنت ان شاء الله ممدود منه ، باتباعك شرع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وسيكون قربك منه قريباً ان شاء الله ، وتراه وتتمتع به وتمتد منه حتى تمتد غيرك ، فالمدد من الله سبحانه ومن أمدهم فيكون لك ومنك النور والسرور » .

« ابعد الله عنا الشرور ، وطهر قلوبنا من المدة وهي قيح تورث الذنوب ، ونجنا من العطب والكروب وجعلك دائماً مطمئن النفس تتبع البر كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم ، البر ما اطمأنت اليه النفس » .

« .. وربما تمر حوادث بشيء من الخوف ، فعليك بحسن التوكل واستشر قلبك بما يطمئن اليه » .

جاءت هذه الإرشادات القيمة في رسالة بعث بها أستاذي العارف بالله سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني رضي الله عنه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد سالم عمر جمعة زاده الله فضلاً وتوفيقاً وتاريخ الرسالة ٢٨ مايو ١٩٤١ ، أي ابان اشتعال الحرب العالمية الثانية والتي امتدت الى الصحراء الغربية حتى صارت على مقربة من الاسكندرية التي يسكنها ذلك التلميذ الصالح » .

وكلمات الشيخ تبعث الأمل الفسيح لتلميذه في عطاء الله الذي لا يحده حد ، ولا يحصره عد ، فقد أسبغ سبحانه على عباده نعمه ظاهرة وباطنة ، وبين لهم عجزهم عن عدّها واحصائها فقال تعالى :

(الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار • وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار • وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) •

وكما أن عطاءه سبحانه لا يعد ولا يحصى ، فكلنماته كذلك لا تنفذ ، وقد أخرجنا سبحانه من بطون امهاتنا لا نعلم شيئا ، فعلمنا ما لم نكن نعلم ، وكل ما يفتح به علينا من فهم أو الهام أو استنباط ، أو اكتشاف ، أو اختراع إنما هو من عطائه وكلماته ومن أوائل ما نزل من كتابه الكريم قوله تعالى (اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) •

ويعلم سبحانه رسله وأنبياءه الكرام وحيا ، ويعلم الأولياء والصديقين الهاما ، وعلى قدر معرفة العبد بربه تكون صلته به ، فالرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه هم أعرف الناس بربهم ، وهم متفاوتون فى المعرفة كما شاء الله لهم ، ولذلك كانوا أعظم الناس محبة لله ، وأشدهم خشية منه سبحانه وتعالى ويليهم فى ذلك الصديقون ثم الأولياء ، الأمثل منهم فالأفضل •

والقرآن الكريم بين لنا من ذلك شيئا كثيرا وبين لنا أنه على كثرة ما علم الناس فى شئون دنياهم فإن العلم الذى يربطهم بربهم ، هو العلم الذى يكشف عنهم غطاء الغفلة فيعرفون ربهم بفضله عليهم فيشكرون له نعمه كما يعرفونه بسلطانه فيخافونه من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وهذا ما يوجهنا إليه قوله الكريم (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فمن لا يخشى الله ليس من العلماء عند الله وإن كان عند نفسه وعند الناس من العلماء وقوله العظيم (وما بكم من نعمة فمن الله) فمن لم يدرك ذلك يكون جاحدا لنعمة الله •

ولقد اغتر قارون بجهله ، فظن انه اغتنى بعلمه فحكى الله تعالى ما كان من أمره (قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من

قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) وقص علينا سبحانه ان قومه فتنوا بماله وزينته في الحياة الدنيا حتى قالوا : (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم) فنصحهم العلماء الراشدون وقالوا لهم ما حكاه تعالى (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون) ثم بين الله عاقبة جهل قارون الذي ظن في نفسه أنه غالم فقال تعالى :
(فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) فتيقظ عندئذ أهل الغفلة وتبينوا الرشد من الغي (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكان الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكانه لا يفلح الكافرون) •

ونأخذ من قصة قارون هذه أن كل كافر بربه جاهل وان حمل من الشهادات الجامعية أعلاها ، أو اخترع من المخترعات أدقها وأعقدها وهو ما يؤكد قوله تعالى :

(•• ولكن أكثر الناس لا يعلمون • يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون • أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون • أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمسوها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون • ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) •

وإذا كانت قلوب الكافرين قد انطمست وطبع الله عليها بكفرهم ، فلا عذر للمؤمنين في غفلتهم عن الله تعالى وقد آمنوا ، ولا عذر لهم في أن تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، وقد آمنوا بالبعث بعد الموت ، وآمنوا بالحساب والثواب والعقاب يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا •

وإذا رشد المؤمن ، وتيقظ بعد غفلة ، عمل لما بعد الموت ، وقد رسم الله له طريق العمل ، وجعله واضحا ميسرا لا مشقة فيه ولا حرج ، وإنما هو جهاد لنفسه الأماراة بالسوء ، والتي تستحب العاجل على الآجل ، وتجنح لشهوات الدنيا التي توبقها ، وتهرب من الطاعات التي تسعدها ، وفي راحتها هنا تعبها هنالك ، وفي تعبها هنا راحتها هنالك ، والمائل لا يشتري موقوتا بغير موقوت ، ولا يشتري لذة فانية بسعادة أبدية ، والا كان من الذين استحبوا العمى على الهدى ، وليس ذلك من شأن المؤمنين •

وقد بلغ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه ، وأدى رسالته أصدق أداء ، وفصل ما أجمله كتاب الله عز وجل ، امتثالاً لأمر ربه ، وتركنا كما قال صلوات الله وسلامه عليه وآله على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك فالطريق اذن واضح ، والحق لا يخفى ، والداعي قد أسمع ، فما التخلف بعد ذلك الا من الغفلة عن الحق الذي تنطق به الآية الكريمة (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) •

وذلك ما يوضح لنا مقصود سيدى الشيخ فى قوله لتلميذه : وأنت ان شاء الله ممدود منه (أى الله) باتباعك شرع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو يوجهه الى التزام الاتباع ، وتجنب الابتداع ليسلك سبيل المؤمنين على نور من ربه ، فيحل حلال الله تعالى ويحرم حرامه ويجب بحبه ، ويغض بغيظه ، فلا يستحسن ما استقبح ، ولا يستقبح ما استحسن فانه لا يكمل ايمان المؤمن حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم وآله ، لأنه انما جاء بشرع الله ، ولا يصل أحد الى ربه الا بشرعه الذى يقتدى فيه ويتأسى بمولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصدق العارف البكرى رضى الله عنه اذ يقول :

وأنت باب الله أى أمرى

أتاه من غيرك لا يدخل

أما ما يقوله سيدى الشيخ لتلميذه : وسيكون قربك منه قريباً وتراهم وتتمتع به ، وتمتد منه حتى تمد غيرك ، فانه يشره بزيارة روضته الشريفة

والتسليم عليه ، وهى سعادة روحية لا يدركها الا اهل التجربة من ذوى
التبصرة ، وقد أسعدنى الله بصحبة السيد سالم جمعة فى زيارة الروضة
الشريفة كثيرا والحمد لله حمدا لا نهاية له وقديما قالوا :

لا يدرك الشوق الا من يكابده

ولا الصبابة الا من يمانها

وقالوا :

وأبرح ما يكون الشوق يوما

اذا دنت الخيام من الخيام

كما يحتمل أن تكون البشرى برؤيته مناما وهى أيضا تبعث السعادة
والاشراق فى روح الرائي كما هو معروف ، وزيارته صلى الله عليه وسلم
بالمدينة المنورة قرابة من أعظم القربات الى الله تعالى ، ففيها وفاء له
صلوات الله عليه وآله ، وتصديق به ، واعتراف بفضلته وشرعه ، وتجديد
لبيعته بوحدانية الله تعالى ورسالة حبيبه الأصفى ومصطفاه الأسمى ، وفى
الحديث القدسى (عبدى لم تشكرنى ما لم تشكر من اجريت النعمة لك
على يديه) ولا نعمة أعظم من نعمة الايمان بالله ورسوله واذا كان جذع
النخلة الذى كان يخطب اليه صلى الله عليه وسلم حن وأن وهو من خشب ،
لفراقه صلى الله عليه وسلم حين نصبوا له المنبر ورقاه ليخطب عليه ، فكيف
بذوى الوجدان والأرواح المؤمنة النيرة .

ورضى الله عن سيدى الشيخ احمد الحلوانى الخليجى ، (والدسيدى
الشيخ عبد السلام ، رضى الله عنهما) اذ يقول فى قصيدته المستجيرة
مشيرا الى معجزة حنين الجذع :

فجبرته وخواره عندى نغم	والجذع حن وخار اذ فارقه
كالجذع فهو مضلل اعمى اصم	فالمرء ان لم تعرفه لك هزة
لك والغرام بنا اضطر	أرواحنا خناقة وقلوبنا اناة
أناضيف جودك يا امام أولى الكرم	بالله صل حبل الرجاء تعظما

وما أروع كلام الشيخ الكبير طيب الله ثراه ، وكان قد رأى فى المنام مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم له ، فأشار الى ذلك فى القصيدة ذاتها قائلا :

بشراى ان حلاك تبسم بالمنى ان الكريم اذا رأى الضيف ابتسم
وبوجهك الميمون يسعد من رأى أنواره ممن بملتك اعتصم
أرنيه فهو سعادتى ومجادتى أبدا ولو نوما وعنى لا تتم
يا رحمة الله الأمان فكن لنا سورا على الايمان يا أفق الهمم

ولفضيلة صديقى العالم المبارك المعاصر الاستاذ الشيخ احمد محمد مرسى ، مراقب دار الحديث النبوى بالمؤتمر الاسلامى سابقا ، مد الله فى عمره تعليق على رسالة العلامة الحلبي صاحب السيرة الشهيرة المسماة : تعريف أهل الاسلام والايمان بأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يخلو منه مكان ولا زمان ، تضمن كثيرا من الطرائف العلمية النقية ومنها قوله بارك الله فيه : وقد يظن بعض المعاصرين أن الكلام فى هذا الموضوع من قبيل الغلو المنهى عنه ، وهو خطأ ممن ظنه ، لأن الغلو أن يعتقد فى الشخص ما يرفعه فوق منزلته كما اعتقدت النصارى فى عيسى عليه السلام انه ابن الله أو ثالث ثلاثة ، أما اعتقاد أمر دل عليه دليل فليس من الغلو فى شىء .
وقوله زاده الله علما : ويمكننا أن نبحت وجود النبى صلى الله عليه وسلم وآله فى كل مكان وزمان على أساس الوجودات الأربعة المقررة فى علم المنطق :

١ - الوجود الذهنى :

والنبى صلى الله عليه وآله وسلم موجود فى ذهن كل مسلم وفى عقيدته .

٢ - الوجود اللسانى :

وهو موجود على لسان كل مؤذن للصلوات الخمس وعلى لسان كل مصل يصلى عليه داخل الصلاة وخارجها .

٣ - الوجود الكتابي :

وهو كذلك موجود فى خطبة كل كتاب علمى منشور أو منظوم ، وكذلك كتب التفسير والحديث والسيرة والأدعية والصلوات وغيرها •

٤ - الوجود الجسمى :

وهو نوعان : (١) وجود الجسم الطبيعى وهو لا يتأنى إلا فى مكان واحد ، ولا يجوز تعدده فى مكانين فى وقت واحد (ب) وجود الجسم المثللى : بمعنى أن الجسم الشريف فى مكانه من الروضة المطهرة ، وتوجد أجسام مثالية فى عدة مواضع من العالم يديرها روحه العظيم على توالى الأزمنة ، ومن الدليل على وقوعه قول المصلين فى تشهدهم : السلام عليك أيها النبى ، وهذا خطاب للحاضر الموجود وإن لم يروه كالحال فى الملائكة ، ولو كان غير حاضر عندهم يقينا لكان خطابهم له عبثا لا يليق أن يحصل فى الصلاة التى هى أفضل العبادات كيف والعبث منهى عنه فيها •

وقوله تعالى (فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله) هذا انذار لكل مراب الى يوم القيامة بأن يحاربه الله ورسوله ، وحرب الله حقيقة مستمرة فمن رسوله كذلك ، لأنه معطوف على الله بالواو ، وهى تفيد الجمع والاشتراك ، فهو اذن موجود يحارب المرائين بلعنهم والدعاء عليهم وعالم المثال المدلول عليه بقوله سبحانه وتعالى (فتمثل لها بشرا سويا) •

ولقد قال الحافظ بن القيم : ان الروح القوية كروح أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، تستطيع أن تهزم جيشا بأكمله ، فليس بكثير على روح نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعظم روح خلقه الله تعالى ، ان يملأ العالم فى صور أجسام مثالية ، ولهذا رآه كثير من الأولياء فى أوقات مختلفة وأماكن متعددة وسألوه عن أشياء أشكلت عليهم فأجابهم بما أزال عنهم الاشكال (وكان الجلال السيوطى يسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن أحاديث فيجيبه عنها) •

هذا ويقول العلامة الحلبى فى رسالته : والحجاب من قبلنا بموجب مساوينا ، لا من قبله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا تجد العبد متى

فارق نفسه ولو بالنوم وأغمض عينيه يراه اذا قسم الله له تعالى ذلك ، ومترى قتلها بقمعها وأماتها بردعها لم يبق بينه وبينه حجاب لا مناما ولا يقظة ، ولذا كان السيد أبو العباس المرسى يقول لو حجبت عن رؤية النبی صلی الله عليه وسلم طرفة عين ما عدت نفسي من المسلمين •

ويقول العلامة الحلبي أيضا : وأمر البرزخ لا يقاس على غيره وقد سئل عزرائيل : كيف تقبض روح رجلين حضر أحدهما معا ، أحدهما في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب ، فقال ان الله تعالى قد زوى لى الدنيا بجميع أكوانها فجعلها بين يدي كالقصعة بين يدي الأكل أتناول منها ما شئت ، ثم ان ملكي السؤال مع تناهي عظمهما يأتيان أضيق اللحود ويسألان ميتين أو أمواتا في وقت واحد ، ومنهم من هو في أقصى المشرق ومنهم من هو في أقصى المغرب ، فالله قادر أن يعطى نبيه صلی الله عليه وسلم الذي أعطاه للملكي السؤال وملك الموت وفوق ذلك لانهما دونه ولا نهما يسألان الأموات عنه صلی الله عليه وسلم •

أقول وما أبدع ما ينتهي اليه الامام البوصيري في برده المباركة :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
فان فضل رسول الله ليس له
حد فيعرب عنه ناطق بفسم

هذا وثمة بشرى عظيمة أن يراه صلی الله عليه وسلم في المنام ، فقد جاء في الحديث الصحيح (من رأى في المنام فسيروني في اليقظة) فقد قالوا لا بد من تحقق الرؤية يقظة ولو لحظة قبيل الوفاة ، وقد رآه كثير من العلماء العاملين في المنام ثم رأوه في اليقظة في أحوال مختلفة ، كما قال الحافظ السيوطي وغيره ، وقد ورد أن الشيطان لا يستطيع أن يتمثل به صلی الله عليه وسلم •

وبشرى أخرى لمن يصلي عليه صلی الله عليه وسلم ، وقد زفها الحديث الشريف الذي رواه البزار والطبراني وأبو الشيخ وغيرهم عن عمار بن ياسر

رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ان الله تعالى ملكا أعطاه أسماء الخلائق فهو قائم على قبري اذا مت فليس أحد يصلى على الا قال : يا محمد صلى عليك فلان بن فلان ، قال فيصلى الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرا) والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة ، ويقول العلامة الحلبى رحمه الله ان خدمة التبليغ التى يقوم بها الملك انما هى على سبيل الاحترام والتوقير •

وورد أنه صلى الله عليه وسلم يسمع بنفسه صلاة المصلى عليه ليلة الجمعة ويومها وقد روى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم (ليهبطن ابن مريم حكما عادلا واماما مقسطا وليسكن فجأ حاجا أو معتمرا وليأتين قبري حتى يسلم على ولأردن عليه) صححه الحاكم وسلمه الذهبى - ويعقب على ذلك المفضل الشيخ أحمد محمد مرسى فيقول فى ابداع لم يسبقه احد اليه فيما اعلم : وهذا الحديث يفيد سنية زيارة القبر الشريف لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بزيارة عيسى له فى قبره ، وأقره صلى الله عليه وسلم •

ومن روائع ما يقول العلامة الحلبى : ومن الأدلة العقلية والنقلية أيضا أن الله تبارك وتعالى نصبه شاهدا على أعمال العباد خيرها وشرها فقال تعالى (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) والشاهد لابد أن يكون حاضرا للمشهود عليه وناظرا للمشهود اليه ، فعلم أنه ملا كل عالم وحاضر فى كل مكان •

وللبهقى وابن عساكر وغيرهما عن حاطب مرفوعا (من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى) وتلك أيضا بشرى عظيمة للسادة الزائرين ، فانهم ان استغفروا الله بين يديه صلى الله عليه وسلم ، شفع لهم صلى الله عليه وسلم عند ربه ليغفر لهم ، تحية منه صلى الله عليه وسلم لضييفه ورافة ورحمة بالوافدين عليه من المؤمنين المذنبين كيف لا والله تعالى يقول (ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا) كما يقول (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) •

ووالله لقد لمسنا بركة الزيارة في كل مرة حتى كأن نفوسنا الأمارة بدلت بأخرى كاملة ، فذقنا حلاوة الطاعة ، وتدبرنا كلمات الله كأنما تلقيناها أول مرة وملاً صدورنا أنس بالله ورسوله فكأنهما من صدور أهل الجنة التي قال تعالى فيها (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) فياله من صفاء ، وياله من نور .

وانى لا انسى ان لسانى قد عقد فى الزيارة الأولى ، ولكن صدرى هزه اللقاء وحركه الشوق حتى كاد القلب يخرج من بين الضلوع ، فكان من الصمت كلام ، ومن العي بيان واى بيان ، واذكرنى ذلك الشعور المتدفق قول ابن العفيف رحمه الله :

يا من اعيد جماله بجلاله حذرا عليه من العيون نصيبه
ان لم تكن عيني فانك نورها أولم تكن قلبي فانت حبيب
ولا يظن القارئ العزيز ، أن هذا هو شعورى وحدى فانه يشاركنى فيه كثير من الزوار المباركين ، ولقد لقينى مصادفة شاب مصرى لا اعرفه عند أحد التجار بالمدينة المنورة ، ولكنه كان يذكرنى لأنه استمع الى محاضرة كنت ألقيتها فى جمعية الشبان المسلمين بمغاغة فى سنة ١٩٤٨ ، وتجاذبنا أطراف الحديث وجرنا الكلام الى الزيارة وروعته وجمالها وجلالها فقلت لصاحبى : انى أؤكد لك أنه لولا جمال أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، لحبس جلاله الكبير الألسنة عن الكلام عنده لكن الجمال يخفف عن النفوس وقع الجلال فتتحرك الألسنة بالكلام ، فقال فى دهشة : كأنك تصف ما وقع لى أول ما وفدت عليه صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت له : وماذا وقع لك ؟ قال انحصر لسانى عن الكلام فانصرف فى اضطراب وقلت فى ذلك شعرا ، وروى لى شعره وأذكر منه قوله :

عجب لسان عند قبرك ينطق خرس الشفاه لديك هن الاصدق
غشى الجلال لديك كل مشاعرى فوقفت مضطربا وقلبي يخفق

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام :

وتمتد منه حتى تمد غيرك ، فالمدد من الله وممن أمدهم ، فيكون لك ومنك النور والسور ، فذلك ما تشهد به الآية الكريمة (لقد من الله على

المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) •

فالتزكية لا تكون بالتعليم وحده بل بالسر الروحي المكنون الذى يؤتیه الله من يشاء من مدد رسوله صلى الله عليه وسلم ، الذى جعله الله واسطة العطاء وسبب الرحمة ومشرق النور القلبى الذى يهتدى به المؤمنون السالكون والعاملون والراشدين ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه اذ يقول (انما أنا رحمة مهداة) والا فكيف يتصور العقل أن يترك مائة ألف أو يزيدون من أصحابه الأطهار ، ودعوته الى الله لم تبلغ ربع قرن من الزمان ، أو كيف يتصور العقل أن دعوته تزداد انتشارا بعده حتى يكون لتابعيه امبراطورية اسلامية غير مسبوقة بمثلها فى طول الزمن وعرضه فى سرعة قيامها وقوتها اللهم الا أن يكون ذلك بسر خفى يتعدى طور المحسوس الى اللا محسوس ، ويبلغ آفاق الروح ، والروح من أمر ربى ، وضحت آثارها وهى خافية ، وظهرت أنوارها للقلوب فلم تدركها الأبصار ، وانما أدركتها البصائر ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور •

وانك لتعجب أشد العجب من قوم يقولون ان زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقصد لذاتها والا دخلت فى عموم النهى عن شد الرجال الوارد فيه قوله صلى الله عليه وسلم (لا تشد الرجال الا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى) وهؤلاء متأثرون برأى ابن تيمية ، وليس ابن تيمية مع مكائته العلمية بالعالم الفرد فى هذه الأمة ، وهو لم ينزل من السماء ، وكان الامام مالك رضى الله عنه يقول : كل أحد يؤخذ من قوله أو يترك الا صاحب هذه الروضة (يشير الى النبى صلى الله عليه وسلم) وقد نقل أحمد بن القاسم عن الامام أحمد بن حنبل أنه سئل عن الرجل يأتى المشاهد التى بالمدينة وغيرها فقال أما عن حديث ابن أم مكتوم انه سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتيه فيصلى فى بيته حتى يتخذ مسجدا ، وعلى ما كان يفعل ابن عمر كان يتبع مواضع سير النبى صلى الله عليه وسلم ، قال أما على هذا فلا بأس قال ورخص فيه •

وعند هؤلاء القوم أن ينوى قاصد المدينة الصلاة فى مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وليت شعرى ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب الى مسجد قباء ماشيا تارة وراكبا تارة أخرى ، كما أنه حض على زيارة مسجد قباء والصلاة فيه وقال انها توازى عمرة ثم ألم يكن يزور البقيع (مقبرة المدينة) ويدعو لأهله فكيف يحمل الحديث على النهى المطلق ، بينما مقصوده ، كما قرر أكابر العلماء ومنهم الامام النووى شارح صحيح مسلم ، أن يبين أفضلية المساجد الثلاثة ، أما غيرها من المساجد فمتماثلة •

أقول ثم ان ياء الاضافة فى قوله صلى الله عليه وسلم مسجدى لاتفيد الملكية ، فهى قطعا تفيد الظرفية ، لأن المساجد لا يملكها الا الله تعالى ، وقد زاد الله المسجد شرفا بسجود مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، كما شرفه بأنه هو الذى بدأ بناءه ، وشرف المدينة المنورة فكانت مهاجرة ومهبط وحيه عليه ومثواه ، ثم أليست زيارته هجرة اليه صلى الله عليه وسلم يحبها الله ويشيب عليها تأسيسا على قوله صلى الله عليه وسلم (انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينجسها فهجرته الى ما هاجر اليه وقد قال امامنا الشافعى رضى الله عنه ان هذا الحديث يدخل فى نصف العلم •

ويقول الامام الغزالى فى الاحياء ما ملخصه : والمساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ولا بلد الا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة الى مسجد آخر ، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، ثم قال : ليت شعرى ، هل يمنع هذا القائل من شد الرحال الى قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مثل قبر ابراهيم الخليل عليه السلام ، بل الزيارة مأمور بها قال صلى الله عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا) وقد جاء فى الشفاء للقاضى عياض عن زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : وزيارة قبره صلى الله عليه وسلم سنة من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها ، ثم روى بسنده

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال النبی صلى الله عليه وسلم (من زار قبری وجبت له شفاعتی) •

وأقول بعد ذلك اللهم شفعه فينا بجاهه عندك ولا تقطعنا عن رحابه ما أحيينا يارب العالمين ، فلولاه صلى الله عليه وسلم ما كانت الصلاة ولا كآل المسجد وماذا يمنع المؤمن من أن ينوى عدة نوايا في زيارته للمدينة المنورة ، بأن يصلى فى المسجد النبوى ويزور حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ويزور أصحابه الكرام عليهم الرضوان ويصلى فى مسجد قباء الخ... • وكل ذلك وغيره من الطاعات والبر من بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله •

وإذا استمد المؤمن من نور نبيه صلى الله عليه وسلم تخلق بأخلاقه ، وتحلى بصفاته ، فكان قدوة طيبة لغيره وينتفع بصحبته من يصاحبه ، وقد أرشدنا الله تعالى الى ان من علامات التقوى صحة الصادقين فقال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ويقول السادة الصوفية :

والروح كالريح ان مـيرت على عطر

طابت وتخبث ان مرت على الجيف

وقد دعا سيدى الشيخ أن يبعد عنا الشرور ، وفسرها بأنها الران الذى تخلقه المعاصى فى القلوب ، فتورثها الغفلة عن الله وفى ذلك العطب والكروب ، وعبر الشيخ عن الران بالمدة والقيح الذى تورثه الذنوب ويشير بذلك إلى قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) نجانا الله من المعاصي وأهلها ونفعنا بالتقوى وأهلها •

ثم إن سيدى الشيخ يتوقع ظروفًا شديدة ، وينصح تلميذه بحسن التوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ، كما ينصح به باستفتاء قلبه لأن البر ما يطمئن اليه قلب المؤمن المتوكل ، الذى خرج من حوله وقوته فاعتصم بالله وأيقن أنه مولاه ولا معين سواه ، نعم المولى ونعم النصير ، وفى قوله

تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) لفظة بديعة الى أنه لا يجوز أن يتكل المؤمن على بشر مثله ممن يدركهم الموت أو على صنعتته أو على تجارته أو على أمواله ، فانها جميعا عرضة للفناء ، وانما يأخذ المؤمن بأسباب العيش كما أمر الله مع الركون قلبا وقلبا الى الله الذى كفل الأرزاق وضمنها اخلقه أجمعين مؤمنهم وكافرهم طائعهم وفاسقهم ، لأنه لا خالق سواه ولا رازق معه سبحانه وتعالى .

وقد قال سيدنا داود لابنه سليمان عيها الصلاة والسلام : يا بنى انما يستدل على تقوى الرجل بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات وما أجلاها من نصيحة .

ويقول الامام حاتم الاصم (المتوفى ٢٣٧ هـ) . عجبت لمن يعمل بالطاعات ويقول انى عملها ابتغاء مرضاة الله ثم تراه ابدا ساخطا على الله رادا لحكمه أتريد أن ترضيه ولست براض عنه كيف يرضى عنك وأنت لم ترض عنه .

اللهم اجعلنا من عبادك المؤمنين الموقنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه والذين قلت فيهم وقولك الحق (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب) .

فكر الله وأشره في التربية الروحية

— ٣٩ —

اعلم أن طريق شيخنا ، رضى الله عنه طريق الذكر فقط وليس غيره ،
ففيه التفتح ، وفيه الطلب ، وفيه قضاء الحوائج ، وهو منه واليه ، وبه كل
شئ ، فإذا أمرت بشئ غيره فاضرب عنه صفحا ، واتبع الذكر ، ففى
الأسماء العلو الى السماء ، قلبك مع ربك ، وربك معك ، فليس بعيدا
عنك ، يقربك اليه ، ويعرفك به •

ومن عرف الله عرفه الحكمة ، ومن سلك سبيلا غيره ، وكان يجهل
بحره ، جره هذا السلوك الى الشكوك ، نجانا الله منها ، وهو تعالى يقول:
« انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » •

ورد ذلك الارشاد النافع فى رسالة كريمة أرسلها شيخى العارف بالله
سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، الى تلميذه الصالح
المبارك الصديق السيد سالم جمعة ويدله فيه على أن شيخنا الأكبر قطب
زمانه ، ومجدد قرنه ، العارف بالله سيدى الحاج محمد أبو خليل رضى الله
عنه « انتقل الى رضوان الله فى يونية ١٩٢٠ وضريحه الأنور بالزقازيق وله
هنالك مشهد ومسجد كبير معروف » ، كان يقتصر فى تربية أتباعه على
ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى ، فلم يكن لهم أوراد ولا أحزاب أخرى ،
لأن الشيخ الأكبر كان يرى أن الأوراد والاحزاب انما فتحت بها على
أصحابها من أثر ذكرهم لله تعالى ، فالأولى بالمريدين أن يسلكوا الى الله
تعالى من باب ذكره سبحانه ، لأنه أصل ثابت وفرعه فى السماء ، على أنى
أود أن أنبه الى أن الطرق الأخرى التى لها أوراد لا تكتفى فى التربية
بالأوراد بل توجه أيضا الى الذكر بالأسماء الحسنى •

والى جانب الذكر الفردى بالكيفية والعدد المرسومين فى طريق سيدى الشيخ الأكبر هناك ذكر الجماعة بعض الوقت ، وهو أقوى تأثيرا وأقوى أثرا فى رفع الحجب عن القلب من ذكر الواحد وحده ، وفى ذكر الجماعة يحصل لكل ذاكر ثواب ذكره بنفسه وثواب سماع الذكر من غيره ، وقد أمر سبحانه وتعالى بالتعاون على البر والتقوى ، وذكر الجماعة من هذا الباب •

وقد جعل السادة الصوفية الذكر أساسا لتربية السالكين ، وانفتحت على ذلك كلمتهم فى المشارق والمغارب ، وقد اشتبه على الناس هذا الأمر ، بما فيهم بعض العلماء ، بل ربما كان هؤلاء العلماء أكثر الناس التباسا ، ولهذا وجب علينا أن نبين فى شىء من الشرح موضوع الذكر وأثره فى تربية الأرواح فى جنب الله ، فنقول رب الله التوفيق :

المقصود من ذكر الله تعالى أن يجتنب المؤمن الغفلة عنه سبحانه ، لأن الغفلة تجرئه على المعصية ، والذكر يعاونه على تركها ، ويقول السادة الصوفية ان أعمال البر ويعملها البار والفاجر ولكن لا يجتنب المعاصى الا صديق ، والتصوف يدعو الى تخلية القلب من الرذائل وتحليته بالفضائل ، وعندئذ تستولى عليه الأنوار القدسية فيتعلق بالله ، ويؤثره سبحانه على هواه ، وعلى كل ما سواه ، لأنه جل جلاله وعز شأنه هو المطلوب والمرغوب والمحبوب ، منه ابتداءنا ، واليه انتهاءنا ، وقد جعل سبحانه الدنيا دار تكليفه ، وجعل الآخرة دار تشريفه ، ولم يكلفنا فى الدنيا محالا ، وانما كلفنا ممكنا يحتاج للمجاهدة الظاهرة والباطنة ، ليميز بالمجاهدة الخبيث من الطيب ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، أما هو سبحانه فانه غنى بنفسه عن غيره ، لا نفع له من طاعة ، ولا ضرر عليه من معصية ، والنفع والضرر للعباد أو عليهم •

ووجه ابتلاء المؤمن ، أن له نفسا أمارة بالسوء ، تتحرك للشهوات بطبعها وجبلتها ، والله تعالى أمره بالكف عنها ، والجذر منها ، فصار فى مسلك وعر ، ان أرضى نفسه فى شهواتها فقد أغضب ربه ، وان أرضى ربه فقد أغضب نفسه ، ولا ثالث لهذين الأمرين ، فليختر لنفسه ما يحلو •

أما ان كان قصير الادراك واستحب العاجل على الآجل ،فانه يركن الى الشهوات ليرضى نفسه فيها ، وهو رضاء ظاهر نهايته اغصابها يوم يكشف عنه غطاء الغفلة وتتحسر نفسه فتقول « يا حسرتنا على ما فرطت فى جنب الله » ، وأما ان كان واسع الأفق ، بصيرا بالعواقب ، فانه يرضى ربه ويعضب نفسه ، وهو غضب وبقى ، نهايته ارضاؤها ، حين يقول لها مولاه « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » •

وبين الطرفين بون شاسع ، وبين النتيجتين فرق واسع ، ولا بد اذن من طبيب حاذق فى علاج أمراض النفوس ليعاونها فى مقاومة العلة المهلكة ، التى تحركها الى الشهوات فى خفاء لا تراه العيون ، كما تدركه البصائر النافذة بقدرة الله الى بعض الغيوب ، ومن هنا قامت الحاجة الى الشيخ المربى الذى يتدرج بالمريد صعودا فى جهاد النفس حتى تتخطى المسلك الوعر فتتذوق حلوة الطاعة ، وتقبل عليها ، وتتجنب المعصية وتنفر منها •

وما دامت العلة خافية عن العيون ، ومدركة بالبصائر ، فلا بد من نور خفى عن العيون ، ومدرک بالبصائر ، ليقاوم العلة ، فيخرج صاحب الشهوات من الظلمات الى النور باذن ربه ، وقد دلت التجارب العملية للشيوخ العارفين بالله ، أن أسماء الله الحسنى لها من الأنوار والخصائص والأسرار ما يشفى صدور قوم مؤمنين ، تأسيسا على قوله تعالى « فاذكرونى أذكركم » وقوله تعالى « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها » فاذا ذكرت ربك كشف عنك غطاء الغفلة فكنت ذاكرا مذكورا شاكرا مشكورا « واشكروا لى ولا تكفرون » وتوات عليك النفحات وغمرتك البركات ، ومحيت عنك السيئات ، وعظم لك الأجر « .. والذاكرين الله كثير والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » •

ولا تنس أن الله تعالى عرف أولى الألباب بأنهم « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار » •

وقد قال العارفون ان رزق الظاهر بحركات الأجسام ، ورزق الباطن بحركات القلوب وقد بين القرآن الكريم أن الذكر علاج لاضطراب القلوب ، وسبيل لطمئنانها ، فقال تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وكل ما بذكرك بربك يدخل في نطاق الذكر ، ويخرجك من دائرة الغفلة ، لأن المقصود من الذكر دوام حضور القلب مع الله تعالى ، فتأدية الصلوات ذكر ، والزكاة ذكر ، والصيام ذكر ، والحج ذكر ، والتفقه في الدين بالقدر الضروري أو أكثر ذكر ، والافتاء في أحكام الله ذكر ، وقراءة القرآن الكريم ذكر ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ذكر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكر .. الخ .. الخ .

فالعبادات تتنوع والمذكور فيها واحد سبحانه ، وما شرع الله العبادات والطاعات الا لذكره ، واتنا ان قلنا ان الشيوخ العارفين بالله يريدون المريدين بطريق الذكر ، فلا تقصد انهم ينهون عن غيره من الطاعات ، انما تقصد أنهم يزكون الأرواح في جنب الله تعالى من طريق الاكثار من ذكر الله تعالى جماعات وفردى بأسمائه الحسنی ، وذلك الى جانب العبادات الشرعية ، المفروضة منها والمسنونة والمندوبة ، لأنها الأساس المتين الذي تبنى عليه الكمالات التربوية الروحية .

ولا شك أن ذاكر الله على النهج الصوفي - كما دلت التجارب العملية الصحيحة - يذوق من حلاوة العبادات والطاعات مالا يذوقه المؤمن العادي الذي يغفل عن الله في أغلب أوقاته ، كما أن الذاكر يتدبر من معاني القرآن الكريم والسنة الشريفة مالا يتدبره غيره ، والسادة الصوفية يعودون المريدين أولا على ذكر اللسان ، الذي يرقبهم مع الموالاة من ذكر القلب تكلفا الى الذكر طبعاً ، ثم الى ذكر السر ، وعلامة هذا الأخير أنك اذا تركت الذكر فانه لا يتركك بل يردك من الغيبة الى الحضور ويقول سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه : (من علاماته انه لا تخمد نيرانه ، ولا تذهب أنواره) ، وأذكر في ذلك قول أستاذي العارف بالله سيدي الشيخ علي عقل في الهامه الثوري الذي قلناه عنه :

إذا قيل لى اطلب قلت رضى مطلبى وان قيل لى اشرب قلت أنوار كاسى
سلونى عن العشاق قد ذقت حبهى وانى لهم رأس إذا كان من رأس
حسبت الهوى سهلا فخفضت عبا به فطورا به أطفو وطورا به غطى
الى أن أتتى من لده عناية وصلت بها بر السلامة والانس
وانما نجح السادة الصوفية فى تربية مرديهم ، لأنهم برعوا فى علم
النفس ، فوصفوا العلاج عن خبرة تربوية لا يدانيهم فيها أحد حتى
المتخصصون فى علم النفس ، لأنهم علموا وعملوا ، وطبقوا علمهم أول
ما طبقوه على أنفسهم ، ومن عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، أما
غيرهم فعلموا ولم يعملوا ، وشتان بين من ذاق ومن لم يذق : ويقول الامام
الغزالي رضى الله عنه : فرق بين أن يعلم الانسان حد الصحة والشبع
وبين أن يكون صحيحا وشبعانا •

والشيخ العارف يعاون المريد السالك على مقاومة هواء ، ومغالبة
نفسه ، لأن النفس فى أول مراتبها تكون أماراة بالسوء أى كثيرة الأوامر
التي ترضى طبيعتها البدنية ، وشهواتها الحسية ، فينير لها الذكر سبيل
التبصرة كما ينير السراج غرفة مظلمة ، فترقى من الأماراة الى اللوامة •
فتتدم عند وقوع الذنب ، وتود اصلاح حالها مع ربها ، ولا ترضى أن تكون
فى غفلة عنه ، ولا عاصية له ، فتتوب وتثوب الى رشددها ، فإذا جد صاحبها
فى سلوكه ، وتابع ارشاد شيخه ، وهم فى ذكر ربه ، أمحت من قلبه بالذكر
ظلمات الغفلة والمعاصى شيئا فشيئا ، وتخلت نفسه عن الرذائل وتحلت
بالمفضائل • فتلت أنوار الحق ، فاطمأنت الى ربها ، وسكنت اليه فرضى
عنها وأرضاها •

وقد خلد الله الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم ، فى القرآن الكريم
بتعلق قلوبهم بالله تعالى ، حبا فيه ، واشارا له سبحانه فى مثل قوله تعالى
« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه »
وقوله تعالى « فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها
بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة

وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » •

وقد جاء فى مناقب سيدى أبى فروة الصحابى ، رضى الله عنه ، أنه سار ميلا لم يذكر الله تعالى فيه ، فرجع حتى سار فيه ذاكرا لله تعالى ، فلما بلغ منتهاه قال : اللهم لا تنس أبأ فروة ، فإن أبأ فروة ليس ينساك • ومن حكم السادة الصوفية قولهم : خلق الله القلوب مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات ، ولا يمحو الشهوات من القلوب الا خوف مزعج ، أو شوق مقلق ، وقولهم : وحشة العباد عن الحق أوحشت منهم القلوب ، ولو أنسوا بربهم ولزموا الحق ، لاستأنس بهم كل أحد ، وقولهم : هى أربع لا غير ، عينك ولسانك وقلبك وهواك ، فانظر عينك ، لا تنظر بها الى مالا يحل لك ، وانظر لسانك ، لا تقل به شيئا يعلم الله خلافه من قلبك ، وانظر قلبك ، لا يكن فيه غل ولا حقد لأحد من المسلمين ، وانظر هواك ، فقاومه رضاء لربك ، فاذا لم تكن فيك هذه الأربع الخصال فقد شقيت •

وبأن لنا مما تقدم أن ذكر الله تعالى يرفع العبد المؤمن من أرض الشهوات الى سماء المعرفة ، وهذا ما أشار اليه سيدى الشيخ ائتمليذه فى قوله : ففى الأسماء العلو الى السماء ، أما قوله ، رضى الله عنه ، بعد ذلك : قلبك مع ربك ، وربك معك ، فليس بعيدا عنك ، يقربك اليه ويعرفك به ، فانما يذكره بمعنى ما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بى وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منه •

وبعد العبد من ربه ، وقربه منه ، ليس بعد مسافة ، أو قربها ، وانما يكون البعد بغفلة القلب عن الله ، والقرب بحضور القلب مع الله ، فالبعد هو الحجاب ، والقرب هو كشف الحجاب ، والحجاب ظلمة ، والكشف نور ، والظلمة جهل ، والنور معرفة ، وعلى قدر معرفة المؤمن بربه يكون اتصاله به ، وليس ذلك الاتصال اتصال ذات فى ذات ، تعالى الله عن ذلك علوا

كبيراً ، وانما اتصال ايمان به سبحانه ، ويقين فيه ، ومجبة له ، واعتماد عليه ، وركون اليه ، وحضور معه ، وطلب لرضاه ، واشاره على ما سواه ، سبحانه لا اله الا هو الحي القيوم »

ويقول السادة الصوفية : علامات الوصول الى الله ثلاث : الفهم عن الله تعالى ، والاستماع من الله ، والأخذ عن الله ، وعلامات صحة محبة العبد ربه ثلاث : عدم الاختيار ، واستحلاء كل واقع من الأقدار ، ورؤية كمال المحبوب في كل شيء ، فيرضى عنه بكل شيء ، ويسلم له في كل شيء ، ويشترط السادة الصوفية أن يحفظ العبد آداب الشريعة ، دقيقتها وجليلها ، اذا علمها ، ويسأل عن كل حالة لا يعلمها ، والا كان خائناً في شرع الله ، ومن كان خائناً في الآداب الشرعية ، أخرى أن يخون في الأسرار الالهية ، والله تعالى لا يهب أسرارها الا للامناء .

وقد جرت العادة عند السادة الصوفية ، على اختلاف طرقهم ، أن تبدأ تربية المريد فيلقن لا اله الا الله ثلاث مرات ثم يشهد في الشائئة أن سيدنا محمداً رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كما جرت العادة أن يبدأ المريد في ذكر الأسماء الحسنى بلا اله الا الله لما فيه من الخصائص والأسرار ويقول سيدي ابن عطاء الله السكندري رضى الله عنه في شأن تلك الكلمة العظيمة ، التي سماها الله كلمة التقوى ما خلاصته :

« هذه الكلمة لما كانت أفضل الذكر فزع اليها الولي والعدو عند المحنة ، ففرعون لما قرب من الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل ، أى لا اله يقدر على أن يجعل النار راحة كما في حق الخليل ، والماء عذاباً كما في حقه ، الا الذي آمنت به بنو اسرائيل ، ويونس عليه السلام قال تعالى في شأنه : « فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت » أى فانك أنت الذى تقدر على حفظ الانسان حياً في بطن الحوت ولا قدرة لغيرك على ذلك ، فقبل الله نداء يونس ، ولم يقبل نداء فرعون ، لأن يونس عليه السلام سبقته له المعرفة وقال تعالى « فلو لا انه كان من المسيحين للبت في بطنه الى يوم يبعثون » وفي هذا تنبيه على أن من حفظ الله في الخلوات ، حفظه في الفلوات ، ويونس عليه السلام قال هذه الكلمة مع

الحضور والشهود والانكسار ، فقال لا اله الا أنت وفرعون قالها فى الغيبة فقال لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، وفرعون سبق له الكفر ، وما ذكرها عبودية ، بل لطلب الخلاص من الفرق لقوله تعالى « حتى اذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل » وهو كلام نفيس فليتدبره المريدون السالكون فى شتى الطرق الصوفية .

ويقول سيدى أبو سعيد الخراز ، رضى الله عنه ، اذا أراد الله أن يوالى عبدا من عبيده فتح عليه باب ذكره ، فاذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه الى مجالس الانس ، ثم جعله على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجاب وأدخله دار الفردانية ، وكشف له حجاب الجلال والعظمة ، واذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو ، فحينئذ يصير العبد زمنا فانيا ، فوقع فى حفظه ، وبرىء من دعاوى نفسه .

أقول والناظر فى الكتاب والسنة يرى انهما حضا على الذكر ، بل والذكر الكثير باللسان وبالقلب ، وذكر اللسان موصل حتما الى ذكر القلب ، والمعمل على ذكر القلب ، ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، الذرة من أعمال القلوب ، تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح

وليحذر المريدون من دسائس الشيطان فقد يصده عن ذكر الله ، بوسوسة خبيثة فيلقى فى صدره ، انك تذكر بلسانك وليس فى قلبك حضور ، فما فائدة هذا الذكر ، ان هذا الذكر وجوده كعدمه ، لا فائدة منه ، ولا ثمرة له ، فأرح نفسك منه ، وليعلم المريدون أن الغفلة عن الذكر ، شر من الغفلة فيه ، واذا أراد المريد أن يكسب الحضور ، فليجالس شيخه أو اخوانه المجدين ، الذين يؤنس بهم فى طريق الله ، فان الأرواح يسقى بعضها بعضا ، كما سمعت ذلك من سيدى الشيخ ، ووجدت صحته بالتجربة العملية التى دلتنى على أن الغفلة تكون مع أهل الغفلة ، والحضور يكون مع أهل الحضور .

وللذكر عند السادة الصوفية آداب كثيرة من أهمها أن يكون الذاكر متوضئا ومستقبلا القبلة وملاحظا أن الله تعالى يراه ، فيستحضر عظمته

وجلاله سبحانه ، ويستغفره ويتوب اليه من عصيانه والتقصير فى طاعته ،
 ويستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستحضر شيخه المربى له ،
 لأن شيخه بابه الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيدنا رسول الله
 صلى الله عليه وسلم بابه الى الله وقد قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا
 الله وكونوا مع الصادقين » وقد جعل الله لكل شىء سببا ، وذلك الاستحضار
 مما يعين المريد على ترك الشواغل الدنيوية وقت الذكر ، ويتكلف ذلك
 بالمجاهدات ، ثم يصير التفرغ للذكر البحت عادة يسعده الله بها من عون
 وعطائه « والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » وأكل
 الحلال ورد المظالم لأهلها والكف عن الغيبة ، واجتناب الحسد ، والفقه
 الضرورى لتصحيح العبادات والمعاملات من الأسس المؤكدة فى صلاح
 السلوك عند السادة الصوفية .

ويقول السادة الصوفية ان الشيخ الداعى الى الله ، أو المرشد النائب
 عنه يجب أن يتوافر له ذوق صريح ، وعلم صحيح ، وهمة عالية ، وبصيرة
 نافذة ، كما يتوافر له التواضع ، وحسن الخلق ، والشفقة على خلق الله ،
 والانكسار مع الله ، ومجانبة الدعوى ، وعدم المبالاة باقبال الناس ، أو
 ادبارهم عنه ، وتحمل الأذى فى سبيل الله ، وعدم الشكوى من ضيق
 العيش ، أو وقوع البلاء ، وقالوا انه ليس من لوازمه الكرامات ولا الاخبار
 بالغيب ، كما قالوا انه ليس من لوازمه أن يكون معصوما من الذنوب ،
 لأن العصمة واجبة فى حق الأنبياء والمرسلين ، وليست واجبة فى حق
 الأولياء ، لأن الأولياء يحفظون من الوقوع فى الذنوب بحفظ الله الذى
 يرعاهم ويتولاهم ، فان وقعوا فى الذنب ، أسرعوا بالاستغفار والتوبة ،
 ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون .

والداعى الى الله ميسر لما خلقه الله له من ارشاد تابعيه فى السلوك ،
 لذلك تهش القلوب لكلامه ، وتنفذ نصائحه فيها ، تفاذ الضوء فى العرفة
 المظلمة ويكون التوفيق حليفه فيما يوجه اليه ويشير به ، وكان امامنا
 مالك بن أنس رضى الله عنه يقول : ليس العلم بكثرة الرواية وانما هو
 نور يقذفه الله فى القلوب ، كما كان يقول الأدب . أدب الله ، هذه ابنتى وهذا

ابنى ، لأن ابنته المباركة فاطمة « وكان يقال لها أم البنين » كانت تستمع من وراء الباب لرواة الحديث من تلاميذ أبيها فإذا سمعت خطأ طرقت الباب تنبيهاً على الخطأ ، فكان الامام يطلب الى الراوى التصحيح ويقول له : ان فاطمة تدق الباب ، وكانت رضى الله عنها تحفظ الموطن وترويه رواية صحيحة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

والداعى الى الله له قدم صدق عند الله ، لأنه تعالى هو الذى اختاره وجعله اماماً للمتقين « ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال اننى من المسلمين » ويسر له سبيل الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وآتاه شرف النيابة عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجبت طاعته على تابعيه ، لأنه انما يدعوهم الى الله بأذنه « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » وقد ضرب لنا سيدنا موسى عليه السلام أروع مثل فى هذا السبيل ، فمع أنه من المرسلين أولى العزم ، وصاحب التوراة ، التى جمع الله له فيها موعظة وتفصيلاً لكل شيء ، فقد سعى سعياً حثيثاً للالتقاء بالخضر عليه السلام حين أعلمه الله أنه أوتى رحمة وعلماً من عند الله ، وقال له فى تواضع جميل « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً » فكان الجواب « انك لن تستطيع معى صبراً » مع بيان عذره فى عدم الصبر « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً » فقال سيدنا موسى عليه السلام « ستجدنى ان شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً » فشارطه سيدنا الخضر عليه السلام قائلاً « فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً » وبقيت القصة معروفة كما وردت فى سورة الكهف .

وقد علمنا سيدنا موسى عليه السلام آداباً عالية فى قصته هذه ، أولها أن الالتقاء بالصالحين من عباد الله غنية ، لا يجوز أن يزهد فيها مؤمن يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وأن الاسترشاد بهم واجب ، وأن طاعتهم واجبة كذلك ، وأنه يجب ترك جدالهم فيما لا علم لنا بأسراره ، وكشفت القصة فوق ذلك كله الى وجوب الصبر على صحبتهم الى نهاية الشوط ، تحصيلاً لما عندهم من الدقائق ، والرقائق والحقائق ، كما لا يجوز

أن يتدلل تلميذ بعلمه على شيخه أو أستاذه ، فلأبرار أسرار لا يعلمها الا الله تعالى ، والمفروض أن يحسن المريد اختيار شيخه ، والمفروض الا يأمره الشيخ بمعصية الله اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ولهذا يجب على المريد أن يدقق فى اختيار شيخه أو مرشده ، وقيسه بمقياس الشرع الشريف ، ويسأل الله فى سره وجهه أن يوفقه فى حسن اختياره ، لأنه سيتلقى عنه أعز ما يتلقاه تلميذ عن أستاذه ، ولا أعز من معرفة الله جل وعلا ، ولا يصل العبد الى معرفة ربه الا بعد تطهير قلبه من أمراضه الخفية ، وعلاج ما يخفى أشق وأصعب من علاج ما يظهر ، ويقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه ، فى ضرورة اتخاذ الشيخ المرشد فى الهامه الفورى الذى نلقاه عنه :

وعندى أن الامر ليس كما ترى
فلا بد من سوق القلوب لمن يدرى
إذا لم يكن للنفس شيخ له هدى
يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوأه
سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها
على موجة التيار ما نورها يسرى

ويقول سيدى الشيخ عبد السلام فى ختام عبارته ، ومن عرف الله عرفه الحكمة ، والحكمة هى العلم النافع ، والعلم النافع نور يقذفه الله فى القلوب ، فلا بد من اعداد القلوب وتطهيرها بالطاعات حتى تصير أهلا لتلقى الواردات « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب » ثم يحذرنا سيدى الشيخ من سلوك طريق غير طريق الله ، لأن ذلك يجر الى الشكوك والعياذ بالله ، وليس وراء الشكوك الا انحلال عرا الايمان ، نجانا الله من ذلك ، وأماتنا على ما يجب ويرضى لنا من الاعتقاد واليقين .

ويسترعى سيدي الشيخ اتبأهنا الى قوله تعالى « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » ويقول السادة الصوفية ناصحين لنا : من أراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله ، فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها فقيرة عند هيئته •

وأخيرا يقول سيدي ذو النون المصري « المتبوفي ٢٤٥ هـ » « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأمره وسنه » جعلنا الله ممن يقتدون به صلوات الله وسلامه عليه وآله في كل ذلك فقد قال تعالى « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » كما قال تعالى « وان تطيعوه تهتدوا » •

فهرس الكتاب

٣	مقدمة
٥	تفويض الأمور لله تعالى والرضا بقضائه
٩	تربية النفس في جنب الله
١٦	الذكر - الشكر - الرضا - العلم بالله
٢٤	الصوفي جسمه بين الخلق يسمى وقلبه في الملكوت يرعى
	القرب من الله قرب مكانة لأقرب مكان - الصوفية ينفون
٣١	الحاول والاتحاد
٣٧	انصلة الروحية بين التلميذ وشيخه عند الصوفية
٤٣	الخوف والرجاء عند الصوفية
٤٩	فضل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدده
٥٨	فضل السادة آل البيت الكرام والتبرك بهم
٦٣	اتخاذ الأسباب لا ينافي التفويض لله تعالى
٧٢	الحج والزيارة
٧٩	هوى النفس وضرره
٨٥	الروح في اتصالها بالله تعالى
٩٣	مكارم الأخلاق عند الصوفية
١٠٣	الامتثال لأمر الله تعالى والاستسلام لقهره
١١٠	التواضع لله تعالى
١٢٠	إثر اتصال المريد بشيخه
١٢٩	حب الله تعالى وحمده
١٤٠	اجتماع المريد بشيخه واثره في التربية الروحية
١٥١	صفات الشيوخ المربين
١٦٢	الصوفية في مواقف النصيحة للأمراء
١٧٢	التوكل عند الصوفية
١٨٥	سماحة الخلق والتماس العذر عند الصوفية
١٩٧	لا سلبية في التصوف
٢٠٩	الدين الحى هو ما صبهته الصوفية حارا في النفس الانسانية
٢١٧	الاستعانة بأهل اليقين عند الصوفية

٢٢٨	... أثر اجتماع الاشباح في الارواح ...
٢٣٣	... الحج ...
٢٤١	... تحية الروح ...
٢٥٠	... التوكل على الله ...
٢٥٨	... أثر الشيخ في التربية ...
٢٦٧	... الصبر في طاب الله ...
٢٧٩	... صحة الشيخ المربي ...
٢٨٨	... رقائق الصوفية في التوحيد ...
٢٩٨	... التوحيد الخالص ...
٣٠٨	... حج الصادقين ...
٣١٨	... تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ...
٣٣٢	... زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ...
٣٤٦	... ذكر الله واثره في التربية الروحية ...

رقم الإيداع
١٩٩٢/٣٩٠١
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م



شركة الإعلانات الشرقية / مطابع دار الجمهورية للصحافة